التوراة والإنجيل والقرآن والعلم

تأليف
الكاتب الفرنسي موريس بوكاي
ترجمة
نخبة من الدعاة

دار الكندي
بيروت - لبنان

التــوراة
والانجيل والقرآن والعلم

التوراة والإنجيل والقرآن والعلم

تأليف

الكاتب الفرنسي موريس بوكاي

ترجمة

نخبة من الدعاة

دارُ الكِنْدي
للطباعة. وَالنشر. وَالتوزيع
بيَروت - لبنَان
ص ب: ١٦/٥٣٧٩

أشرفت على هذه الترجمة «مجلة الفكر الاسلامي»
الصادرة عن دار الفتوى
في الجمهورية اللبنانية
١٣٩٨هـ ١٩٧٨م

الطبعة الأولى

مقدمة الكتاب

كانت الحقيقة وما تزال ضالة الانسان وهدفه المنشود ، فقد شغلت فكره في كل مجال ، في مجال العقيدة في الخالق وجودا وذاتا ونوعا ، والكون منشأ ونظاما وتطورا ومآلا ، وفي انظمة سلوك الانسان وذاته ومعاشه ونوع علاقاته مع ربه ، ومع اخيه الانسان ومدى ما يستفاد منها لضمان سعادته وامنه ورخائه ...

ولقد وصل حتى الان الى حقائق ، التقى فيها مع اخيه الانسان كحقيقة وجود الله الخالق لكل شيء والقادر على كل شيء . وكحقيقة خلق الكون وحدوثه واصل نشأته ومصيره وتغيره ، وحقائق القيم الانسانية ونقائضها ، وبعثة الرسل ونزول الوحي والكتب ووجود الملائكة والجن والمعاد والحساب والعقاب والقضاء والقدر والجنة والنار وغيرها .

ولكنه مع ذلك ظل يختلف في حدود واوصاف ونوعية هذه الحقائق خلافا قائما على مسوغات ومبررات فكرية او بغيا او اتباعا للهوى وانجرافا مع مغرياته بقول الله تعالى في القرآن الكريم : « ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الامر فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » . ويقول : « وما كان الناس الا امة واحدة فاختلفوا » ويقول : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » ويقول : « لقد جئناكم بالحق ولكن اكثركم للحق كارهون » .

ولقد كان من ثمرة هذا الخلاف ، البعد العقدي بين الناس ، وبالتالي البعد الاجتماعي وما يترتب على ذلك احيانا من انفعالات نفسية تنعكس على الناس قطيعة وبغضا وكرها وعداوة وانقساما وحربا ضروسا لا تأتي على شيء الا وتجعله كالرميم .

ولو انصف الناس قديما لحصروا خلافهم فيما بينهم في الحدود الفكرية التي يستسيغها منطقهم ويخولهم اياها . ولكنهم ابوا الا أن يشوبوا العاطفة بالفكر والانفعال بالمنطق وهوى النفس بالحق المجرد فكان ما كان وسيظل حتى يرث الله الارض ومن عليها الا من رحم الله ...

وعندما اطلعنا على الكتاب الذي نقدمه اليوم الى قراء العربية وهو كتاب « التوراة والانجيل والقرآن والعلم الحديث » للدكتور موريس بوكاي العالم الفرنسي الكبير ، رأيناها سانحة مباركة يمكن فيها ابراز اتجاه فكري مجرد استلت منه اخلاط الهوى النفسي والانفعال الذاتي فرغبنا ان يكـــون بين يدي مفكري مجتمعنا العصري علهم يجدون في اسلوبه الموضوعي هذا ، ما يشجعهم على اعتماده والاستزادة منه املا بان يوفق الله الجميع لما فيه الحق والخير ويهدينا صراطه المستقيم .

ففي هذا الكتاب دراسة موضوعية مجردة من شخص يدين بالمسيحية ، تمثل صورة قيمة لجهد عظيم في البحث عن هذه الحقيقة في احد مجالاتهـــا وهو مجال الكتب السماوية الثلاثة ومدى ما ترتكز اليه من الحق في ضوء العقل والعلم الحديث ...

ولقد عمدنا الى ترجمة هذا الكتاب في اول جهد لنا في هذا البـــاب : تقديرا منا لاتجاه الكاتب الذي تغلب على هوى النفس ونزوعها ، واقـــدم على الكتابة بموضوعية وتجرد في موضوع ديني خطير يمس عقيدته واصوله الدينية من خلال قناعات فكرية مرتكزة الى معطيات علمية حديثة ، فقـــدم لنا جهدا فكريا يفتقر المجتمع المتمدن المعاصر الى كثير من مثله ...

لقد ترجمناه لانه كشف النقاب عن كثير من الحقائق التي سبق ولفت القرآن الكريم النظر اليها والتي تساعد كثيرا من مفكري عصرنا المخلصين على تجلية امور هي في صالح المجتمعات الانسانية .

ولان كثيرا من المسلمين بخاصة ؛ بل من مفكريهم في غفلة عن هـــذه الحقائق التي اهتدى هذا الكاتب الكبير اليها فرغبنا في ان نضعها تحـــت اعينهم ، ولكن هذه المرة من كاتب مخالف لهم ومفكر بعيد عنهم ...

وحرصا على خدمة الحق والفكر الصافي والبر الطاهر النقـــي ، واندفاعا وراء مصلحة الانسان الصالح الذي غشت بصره وقلبه اخبار ملفقة وافكار خاطئة ونظرات منحرفة علنا نسهم بجهد متواضع لكشف اللثام عن الحق وجلاء صورته ليراها كل الناس على السواء .

وبعد ، فان هذا الكتاب هو في نظرنا قيمة دينية وفكريـــة وانسانية صالحة ومخلصة وان كنا نختلف مع صاحبه في عديد من النظرات ؛ اجبرنا ان يكون لنا نصيب في المساهمة بوضعه بين يدي مجموعات من ابناء هذه المنطقة المتحضرة من العالم وفي هذا العصر ، عصر الاشعاع الذي لم يتمكن رغم دفقات نور العلم والتكنولوجيا الحديثة فيه ان ينجي اجياله ومجتمعاته من دياجير ظلام الضلال والانحراف والبهتان والشر .

بيروت ١٤ ربيع الاول ١٣٩٨

٢١ شباط ١٩٧٨

(نخبة من الدعاة)

مدخل

كل دين من اديان التوحيد الثلاثة ، يملك مجموعة خاصة به من الكتابات المقدسة ، تؤلف ركيزة الايمان عند كل مؤمن ، يهوديا كان ام مسيحيا ام مسلما . وهي لدى كل من هؤلاء تمثل صورة مادية لوحي الهي مباشر ، كما هو الحال عند ابراهيم وموسى اللذين تلقيا الاوامر والاحكام من الله ، او غير مباشر كما هو الحال لدى عيسى الذي اعلن بانه يتكلم باسم الرب ، او لدى محمد الذي بلغ الرسالة التي نقلها اليه سيد الملائكة جبريل .

واعتبار المعطيات الموضوعية لتاريخ الديانات ، يضع العهد القديم والانجيل والقرآن ، في مستوى واحد كمجموعة من الوحي المكتوب . بيد ان هذا الامر وان كان مبدئيا مقبولا لدى المسلمين ، فهو لدى مؤمني بلادنا الغربية المتاثرين باليهودية ـ المسيحية المسيطرة غير مقبول . بل يرفضون اعطاء القرآن سمة الكتاب الموحى به . وان المواقف المتخذة من كل مجموعة مؤمنة تجاه الاخريين فيما يخص الكتابات المقدسة توضح مثل هذه الاتجاهات .

فليهودية التوراة العبرية كتاب مقدس . وهي تختلف عن العهد القديم المسيحي بزيادته بعض الاجزاء غير الموجودة في العبرية . وهذا الاختلاف لا يغير في العقيدة شيئا من الناحية العملية . غير ان اليهودية لا تعترف باي وحي جاء بعد وحيها .

وقد تبنت المسيحية التوراة العبرية وزادت بعض الاضافات عليها . ولكنها لم تقبل كل الكتابات المنشورة لتعرف الناس برسالة عيسى . وقد اوقعت الكنيسة في مجموعة الكتب التي تفصل حياة عيسى وتعاليمه التي اعطاها حذوفات على غاية من الاهمية . ولم تحتفظ من العهد الجديد الا بعدد محدود من الكتابات ، واهمها الاناجيل الاربعة القانونية . ولا تعترف المسيحية بعد هذا باي وحي جاء بعد عيسى ورسله ، وبالتالي تسقط القرآن من هذا الحساب .

اما الوحي القرآني الذي نزل عقب ستة قرون من المسيح ، فقد احتفظ بالعديد من تعاليم التوراة والانجيل اللذين اكثر من ذكرهما . بل وفرض على كل مسلم الايمان بالكتب السابقة (سورة ٤ آية ١٣٦) كما ابرز المكانة

المهمة التي شغلها في تاريخ الوحي رسل الله ، كنوح وابراهيم وموسى وعيسى ، الذي كان فيهم في مقام مرموق . وقد اظهر القرآن ولادته ، كما في الاناجيل ، كحدث معجز ، كما كرم والدته مريم تكريما خاصا واطلق اسمها على السورة رقم ١٩ .

ولا مفر من الاعتراف بأن هذه التعاليم الإسلامية مجهولة على العموم في بلادنا الغربية . وقد يعجب البعض من هذا ، ولكن سرعان ما يزول ذلك اذا ذكرنا الطريقة التي لقن بها العديد من الاجيال قضايا الانسانية الدينية ، والجهالة التي تركوا فيها تجاه كل ما يخص الاسلام . اليس هدف اطلاق التسميات « الدين المحمدي » و « المحمديين » حتى في ايامنا هذه ، غرس الاعتقاد الخاطىء في الاذهان بانها تتعلق بعقائد منتشرة بفعل انسان ، وليس لله فيها (في مفهوم المسيحيين) اي مكان . وان كثيرا من مثقفينا المعاصرين يعنون بمقومات الاسلام الفلسفية والاجتماعية والسياسية ثم لا يتساءلون كما هو واجب ، عن ماهية الوحي الاسلامي . انهم يطرحون — كقاعدة ثابتة — استناد محمد على ما سبقه ليبعدوا بهذه الطريقة عن الذهن كل اتصال له بمسالة الوحي بالذات .

والى جانب هذا ، اي ازدراء لم يجابه به المسلمون في بعض الاوساط المسيحية ؟ لقد لمست ذلك عندما حاولت عقد حوار للمقابلة بين نصوص توراتية ونصوص قرآنية ، تتناول موضوعا واحدا . ولاحظت الرفض المبدئي لمجرد اعتبار ما يتضمنه القرآن في الموضوع المطروح ، كما لو كان الاستشهاد بالقرآن بمثابة انتماء الى الشيطان !

ويظهر ان ثمة تغيرا جذريا يتم في ايامنا على اعلى مستوى في العالم المسيحي . والوثيقة التي صدرت عن امانة سر الفاتيكان ، ووزعت فيما بعد عن المجمع الفاتيكاني الثاني لغير المسيحيين ، وفيها توجيهات للحوار بين المسيحيين والمسلمين ، وكانت ثالث طبعاتها بتاريخ ١٩٧٠ ، تشهد بعمق التغيير في المواقف الرسمية . وبعد ان دعت هذه الوثيقة الى تنحية « الصورة » البالية الموروثة عن الماضي او المشوهة ببعض الاوهام والافتراءات التي كانت للمسيحيين عن الاسلام ، اصرت على الاعتراف باخطاء الماضي وانحرافاته التي اقترفها الغرب ذو النشأة المسيحية بحق المسلمين» . انها تنتقد مفاهيم المسيحيين الخاطئة عن قدرية الاسلام وتمسكه بالتشريع وتعصبه ، وتلح على وحدانية الايمان بالله وتذكر بالمفاجاة العظيمه التي ادهش بها الكاردينال كوئناج سامعيه في المحاضرة التي القاها سنة ١٩٦٩ في جامعة الازهر حين اعلن هذه الافكار ، كما تذكر بتوجيهات امانة سر الفاتيكان سنة ١٩٦٧ التي دعت المسيحيين الى تهنئة المسلمين بانتهاء صيام رمضان وانه لقيمة دينية اصلية .

ولقد اتبعت مثل هذه المقدمات التي اتخذت بقصد التقارب بين روما

والاسلام، بمبادرات مختلفة ولقاءات اكدته . ولكن كم كان قليلا عدد الذين اخطروا بهذه الوقائع المهمة التي تعاقبت في العالم الغربي حيث لا تعوزه وسائل النشر والاعلام والطباعة والاذاعة والتلفزيون ! فالصحف في الواقع لم تفسح الا قليلا من صفحاتها للزيارة الرسمية التي قام بها في الرابع والعشرين من نيسان سنة ١٩٧٤ رئيس غرفة امانة سر الفاتيكان الكاردينال « ينبودولي » لغير المسيحيين لفيصل ملك العربية السعودية كما اعلنت عنها صحيفة « لوموند » في الخامس والعشرين من نيسان سنة ١٩٧٤ في بضعة اسطر . ومع ذلك ، كم يكون الخبر عظيما عندما نقرأ فيه ان الكاردينال حمل الى العاهل السعودي رسالة من البابا بول السادس ، يعبر له فيها عن « تقدير قداسته المشحون بايمان عميق بتوحيد العالمين الاسلامي والمسيحي اللذين يعبدان الها واحدا لجلالة الملك فيصل بصفته صاحب النفوذ الاسمى في العالم الاسلامي » .

وعقب ستة اشهر ، وفي تشرين الاول سنة ١٩٧٤ ، استقبل البابا بصورة رسمية في الفاتيكان كبار علماء الجزيرة العربية السعودية ، حيث تهيأت الفرصة لحوار بين المسيحيين والمسلمين عن « حقوق الانسان الثقافية في العالم » . وقد فصلت الحديث عن هذا الحدث التاريخي صحيفة «اوبزرفاتور رومانو» في السادس والعشرين من تشرين الاول سنة ١٩٧٤ ، في اولى صفحاتها في مساحة افسح بكثير من العرض الذي نشر عن يوم ختام مجمع الاساقفة المنعقد في روما .

ثم استقبل المجلس المسكوني لكنائس جنيف علماء الجزيرة ، كما استقبلهم المطران « الشنجر » اسقف استراسبورغ ، ودعاهم الى اقامة صلاة الظهر في كاتدرائيته وامامه . ولئن كان الامر قد اعلن عنه فمن قبيل المظاهرة اكثر منه من قبيل تقدير معناه الديني العظيم . وعلى كل حال فقد كانوا قلائل اولئك الذين سألتهم عن هذه المظاهر واجابوا بانهم علموا بها ! !

هذا وسيكون انفتاح البابا بول السادس على الاسلام باعلانه شخصيا « انه مشحون بايمان عميق بتوحيد العالمين الاسلامي والمسيحي اللذين يعبدان الها واحداً » مبدأ تاريخ العلاقات بين الدينين . ولقد بدا لي ضروريا هذا التذكير بمشاعر رئيس الكنيسة الكاثوليكية تجاه المسلمين ، لان كثيرين من المسيحيين المطبوعين على العداوة للاسلام ، كما اسفت له الوثيقة الصادرة عن الفاتيكان المشار اليها سابقا ، هم في الاساس اعداء لكل تفكير يصدر عنه . ومن هنا بقوا في جهل واقعه ، وبقي تصورهم للوحي الاسلامي في ضلال مبين .

ومهما يكن فانه يبدو من الحق انه عندما نريد درس وجه من وجوه الوحي لدى دين موحد ، ان ندخل اليه بالمقابلة مع ما يكون للدينين الاخرين

من نظرة في النقطة نفسها ، لان الدراسة الشاملة في مسألة ما تكون اكثر فائدة من دراسة منفصلة . ومقابلة بعض الموضوعات المعالجة في الكتب المقدسة مع معطيات العلم في القرن العشرين ، تهم بالتالي الاديان الثلاثة دونما استثناء . ثم الا تشكل هذه ، بل الا ينبغي لها ان تشكل كتلة اكثر تماسكا في تقاربها ، فيما هي جميعها مهددة في ايامنا بالاكتساح المادي ؟ ! في حين تستوي البلاد المتاثرة باليهودية — المسيحية مع البلاد الاسلامية في القول — وبخاصة في الاوساط العلمية — بأن الدين والعلم لا يلتقيان . ولكي تعالج المسألة بمجموعها تتطلب توسعات مهمة . وهدفي هنا الا اتناول سوى وجه من الموضوع وهو اختبار الكتب المقدسة في ضوء المعارف العلمية الحديثة .

ان هذا الهدف يفرض اول الامر ، طرح سؤال اساسي هو : ما هي اصالة النصوص التي نملكها في هذه الايام ؟ وهذا السؤال يستلزم اختبار الظروف التي تحكمت في كتابتها ثم في نقلها الينا .

على ان دراسة الكتب المقدسة ، من خلال نقد النصوص شيء جديد في بلادنا . وقد خلت قرون ، بالنسبة الى التوراة في عهديها القديم والجديد ، والناس عبرها يكتفون بقبولها على حالها . وقراءتها لم تكن تسمح الا بتمجيدها بتأملات مبررة ، لان اي اتجاه الى انتقادها كان يعتبر اثما . ورجال الدين كانوا وحدهم المختصين الذين يمكنهم بيسر الحصول على المعرفة الشاملة فيها . اما اكثر العلمانيين فما كانوا يتلقون الا بعض المقطوعات المختارة في الاحتفالات الدينية او خلال المواعظ .

لقد تمكن نقد النص — وقد اصبح اختصاصا علميا — من كشف واذاعة مسائل ذات اهمية تطرح نفسها . ولكن كم هي مخيبة للآمال تلك المؤلفات التي تدعي انها ناقدة ، في حين لا تقدم ازاء صعوبات الترجمة الا بعض التوسعات التقريظية الهادفة الى تغطية ارتباك المؤلف . وفي هذه الاحوال ، وبالنسبة الى الذين يحتفظون بكامل مقدرتهم الفكرية وادراكهم لمعنى الموضوعية تبقى المستحيلات والتناقضات ثابتة، ولا يمكن الا التأسف — تجاه وضد كل منطق — على الموقف الهادف الى تبرير الاحتفاظ في نصوص الكتب التوراتية ببعض الفقرات الملطخة بالعيوب . ان هذا الموقف قد يضحى ضارا كل الضرر بعقيدة بعض المثقفين في الايمان بالله . غير ان التجربة تثبت انه اذا كان البعض قادرين على كشف بعض نقائص من هذا النوع ، فان الاكثرية الغالبة من المسيحيين غافلة عنها ، وتجهل هذه التناقضات مع المعارف الدينوية التي غالبا ما تكون اولية .

ان الاسلام يملك في « الاحاديث » ما يعادل الاناجيل . اذ الحديث مجموعة اقوال وروايات افعال محمد . والاناجيل ليست الا كذلك بالنسبة الى عيسى . وقد كتبت المجموعات الاولى من الحديث بعد موت محمد

بعشرات السنين ، تماما كما كتبت الاناجيل بعـــد موت عيسى بعشرات السنين (١) وفي الحالتين لم تكن الاحاديث والاناجيل سوى شهادات بشرية عن وقائع ماضيه . وسنرى خلافا لما يفكر فيه الكثيرون ، ان مؤلفي الاناجيل الاربعة المعترف بها لم يكونوا شهود عيان للاحداث التي يروونها ، وكذلك بالنسبة الى اكثر مجموعات الحديث جدية . وينبغي ان تتوقــف المقارنة عند هذا الحد ، لانه ان جاز نقاش اصالة هذا الحديث او ذاك ، فلقد كان بالنسبة الى الاناجيل موقف الكنيسة الحاسم في عصورها الاولى في امر العديد منها اذ اعلنت اعتماد أربعة منها فقط رغم وجود التناقضات فيما بينها في كثير من النقاط ، وامرت باخفاء الاخرى التي وصفت بأنها مشكوك فيها .

وثمة فرق اساسي اخر بين المسيحية والاسلام فيما يتعلق بالكتـــب المقدسة ، ذلك هو غياب النص الموحى به ـــ والمحدد في الوقت نفسه ـــ عند المسيحية ، بينما يملك الاسلام القرآن الذي يحقق هذا التعريف .

ان القرآن هو نص الوحي المنزل على محمد من سيد الملائكة جبريل . وقد كتب في الحال . ثم حفظه المؤمنون عن ظهر قلب ، رددوه اثناء صلواتهم ، وبخاصة طيلة شهر رمضان . وقد رتب محمد آياتـــه في سور ، جمعت مباشرة عقب وفاته ، والفت في عهد الخليفة عثمان (٢٣ ـــ ٣٥ هـ) الكتاب الذي هو بين ايدينا . وخلافا لما جرى في الاسلام ، فان الوحي المسيحي ابتنى على شهادات انسانية متعددة وغير مباشرة ، لاننا لا نملك اية شهادة من شاهد عاين حياة المسيح ، خلافا لما يتصوره كثير من المسيحيين ... وهكذا تجدها مطروحة مسالة اصالة نصوص الوحي المسيحي والوحي الاسلامي .

لقد كانت مقابلة نصوص الكتب المقدس بمعطيات العلم طوال الزمن موضع تفكير الإنسان . وتوافق الكتب والعلم كان عنصرا ضروريا لاصالـــة النصوص المقدسة . وقد رسخ القديس آوغسطين فيما بعد هذه القاعدة في رسالته رقم ٨٢ التي سنوردها فيما بعد . وقد لوحظ ، مع تطور المعرفة ، وجود اختلافات بين نص التوراة والعلم . فتقرر عدم المقابلة بينهما . ويجب الأعتراف انه بهذه الطريقة برز في ايامنا وضع خطير ، هو تصادم العلمـــاء وشراح التوراة ، لانه لا يمكن القبول في الواقع ، بأن يكون الوحي الالهـــي متكلما عن شيء غير صحيح .

ولم يكن بد من التوفيق المنطقي ، وابطال كل مقطع من الكتاب التوراتي

---

(١) الذي ندين به نحن المسلمين ان عيسى قد رفعه الله اليه وانه ما قتل ولم يصلب يقول تعالى في سورة النساء ١٥٦ ـــ ١٥٧ (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفـــوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله اليـــه وكـــان الله عزيزا حكيما) . وعند هذا النص يحسن الوقوف وعدم الضرب في الاراء والظنون . المترجم

يتحدث عن امر غيرمقبول علميا . وقد رفض البعض مثل هذا الحل ، واندفع على العكس في الاحتفاظ بكامل النص ، الامر الذي جعل شراح التوراة يتخذون بالنسبة لصحة الكتابات التوراتية مواقف مرفوضة من الفكر العلمي.

بيد ان الاسلام ، يرى كالقديس اوغسطين بالنسبة للتوراة ، بأن ثمة توافقا بين معطيات الكتب المقدسة ، وبين الحقائق العلمية . ولم تقم دراسة نص الوحي الاسلامي في العصر الحديث بتعديل هذا الموقف ، فالقرآن كما سنرى يذكر حقائق ، للعلم فيها كلمته وذلك في عدد ضخم . اذا ما قورن بما ورد منها في التوراة . وليس ثمة اي مقياس مشترك بين السمة المحددة للاخبار التوراتية المجابهة للعلم ، وكثرة الموضوعات ذات السمة العلمية الواردة في القرآن . ولا احد من هذه كلها يصطدم مع وجهة النظر العلمية . هذه هي الصورة الاساسية التي تنبثق عن هذه الدراسة . وسنرى آخر هذا الكتاب كيف انه بالنسبة لمجموعات اقوال النبي التي تقع خارج الوحي القرآني ، يوجد بعض الاحاديث التي هي غير مقبولة علميا . ومثل هذه الاحاديث خضعت لدراسة جدية ، تبعا لاصول القرآن الدقيقة التي تفرض دوما الرجوع الى العلم والعقل ، لتزيل عنها اذا لزم الامر ، صفة الاصالة .

هذه الاعتبارات للسمة العلمية — المقبولة او المرفوضة — لمقولة من الكتاب ، تتطلب الدقة ضرورة . ويجب ان نذكر هنا ، انه عندما نتكلم عن معطيات العلم ، نعني ما اعتمد منه بصورة نهائية . وهذا الاعتبار يحذف النظريات التوضيحية الصالحة في عصر ما ، لتبيان ظاهرة يمكن ابطالها او نسخها واستبدالها بالتالي بأخرى اكثر ملاءمة للتطور العلمي . وما نواجهه هنا ، هو الوقائع التي لا يمكن العودة عنها فيما بعد حتى ولو لم يحمل العلم الا المعطيا تغير الكاملة ، ولكنها من الثبوت بحيث يمكن ممارستها من دون خطر الوقوع في الخطأ .

اننا نجهل مثلا التاريخ التقريبي لظهور الانسان على الارض . ولكننا اكتشفنا اثار اعمال انسانية ترجع دونما ريب الى عشرة الاف سنة قبل الميلاد . فلا يجوز اذن اعتبار النص التوراتي لسفر التكوين كما لو كان صحيحا . اذ يذكر السلالات البشرية ، والتواريخ التي تحدد بداية الانسان (خلق آدم) . انها ترجع الى سبعة وثلاثين قرنا قبل المسيح . وبامكان العلم ان يقوم في المستقبل بتدقيقات في التأقيت اعظم من تقديراتنا الحالية . ولكنا نستطيع ان نكون واثقين بأننا لن نثبت ابدا ان الانسان ظهر على الارض منذ ٥٧٣٦ سنة كما شاء التقويم العبري سنة ١٩٧٥ . ان معطيات التوراة المتعلقة بالانسان القديم هي اذا خاطئة . هذه المقابلة مع العلم تبعد كل مسألة دينية بالمعنى الصحيح ؛ لان العلم مثلا لا يجد اي تفسير لكيفية تجلي الاله لموسى . او للسر الذي يحيط بمولد عيسى ومجيئه الى العالم من

دون ان يكون له اب طبيعي ؛ في حين ان الكتب المقدسة لا تقدم اي تفسير مادي عن وقائع من هذا النوع . ان هذه الدراسة تنصب على ما تعلمنا اياه الكتابات المقدسة من موضوع الظواهر الطبيعية الكثيرة التنوع التي تحيطها الى حد ما بتاويلات أو تفسيرات . وبهذا الخصوص ينبغي ان نقابل ثروة الوحي القرآني الضخمة بالنسبة للوحيين الاخرين في هذا الموضوع بالـذات .

ودون اية فكرة مسبقة ، وبموضوعية تامة اجدني اتوجـه أولا الى الوحى القرآني باحثا عن درجة التوافق بين نص القرآن ومعطيـات العلم الحديث . وقد كنت اعرف من بعض الترجمات ان القرآن يسوق كل انواع الظواهر الطبيعية . ولم اكن املك منها الا معرفة جزئية ، ولكن بعد تدقيق النص العربي بامعان شديد قمت بجردة شاملة استبان لي منها انه ليس في القرآن تأكيد يمكن ان ينتقد من الوجهة العلمية في هذا العصر الحديث .

وقد قمت بالتدقيق ذاته للعهد القديم والاناجيل بالموضوعية نفسها ، فلم يكن ثمة بالنسبة للاول ما يحوج الانتقال الى ابعد مـن سفر التكوين للوقوف على تأكيدات مناقضة لمعطيات العلم المعترف بها في هذا العصر .. ويغرق المرء دفعة واحدة عند فتح الاناجيل ، في نسب المسيح الذي يبدو من الصفحة الاولى في مشكلة مهمة ، هي ان نص متى هو في هذه النقطة متناقض صراحة مع نص لوقا ، وان هذا الاخير واضح التناقض مع المعارف الحديثة المتصلـة بقدم الانسان على الارض .

ان وجود هذه التضادات والاستحالات والتناقضات لا تخدش الايمان بالله مطلقا كما يبدو لي ، ولكنها تثير فقط موضوع مسؤولية البشر . اذ ليس من احد يملك قول ما كان يمكن ان تكون عليه النصوص الاصلية ، وما هو نصيب الكتابات التي املاها الهوى ، ومـا هو نصيب تصرف البشر بالنصوص ؛ كتلك التغيرات اللاشعورية للكتابات المقدسة . والذي يصدم في هذه الايام هو ان نرى بعض الاختصـاصيين في دراسـة النصوص يتجاهلون ، مثل هذه التضادات او التناقضات مع المعطيات العلمية الثابتة ، او يحددون عيوبها مع محاولة سترها بواسطة بهلوانيات جدلية . وفيما يخص انجيلي متى ويوحنا ، فساسوق امثلة على هذا الاستعمال البراق لنصيغ التبريرية من افاضل شراح التوراة . وكثيرا ما تنجح هذه المحاولة لتغطية احدى المستحيلات او التضادات التي نسميها بحياد « صعوبة » الامر الذي يوضح ان كثيرا من المسيحيين يجهلون العيوب الكبيرة لعديد من مقاطع العهد القديم والانجيل . وسيجد القارىء منها في الجزاين الاول والثاني من هذا الكتاب ، امثلة دقيقة . كما سيجد في الجزء الثالث منـه توضيحا لتطبيق غير منتظر للعلم في دراسة كتاب مقدس واسهام المعرفة الدنيوية الحديثة في سبيل فهم افضل لبعض آيات القرآن التي بقيت حتى

الان غامضة بل مستحيلة الفهم . فكيف ندهش من ذلك ونحن نعلم ان الاسلام ينظر الى العلم والدين كتوامين ، وان تهذيب العلم كان جزءا من التوجيهات الدينية منذ البداية . وان تطبيق هذه القاعدة ادى الى التقدم العلمي العجيب في عصر الحضارة الاسلامية العظمى التي استفاد منها الغرب قبل نهضته .

ان التقدم المنجز في ايامنا ، بفضل المعارف العلمية ، في تفسير بعض سور القرآن غير المفهومة والتي اسيء تفسيرها حتى هذا الوقت ، يشكل ذروة المجابهة بين الكتابات المقدسة والعلم .

العهد القديم

من هو مؤلف العهد القديم ؟

كم من قارىء للعهد القديم يلقى عليه هذا السؤال ، فلا يحير جوابا الا مرددا ما قراه في مدخل التوراة بأن مؤلف هذه الكتب المقدسة كلها هو الله . مع ان الذين كتبوها هم بشر من الذين اوحى الروح القدس اليهم .

ويقتصر كاتب مقدمة التوراة على اعلام القارىء احيانا بواسطة هذا المفهوم الموجز الذي يقطع الطريق على التساؤل ، بينما يضيف احيانا تصحيحا ، مفاده انه يمكن ان تكون بعض التفصيلات قد زيدت من قبل البعض على النص الاصلي . ولكن انصباب النزاع على مقطع ما ، لا يخدش جوهر « الحقيقة » العامة فيه . ومن هنا الالحاح الذي تضمنه الكنيسة المعلمة ، المؤيدة بالروح القدس ، القادرة وحدها على تنوير المؤمنين في هذه النقاط . الم تعلن الكنيسة ابتداء ، من مجامع القرن الرابع قائمة بالكتب المقدسة ؟ . هذه القائمة التي صدقت لتشكل ما نسميه القانون في مجامع فلورنس (١٤٤١) وترانت (١٥٤٦) وفاتيكان اول (١٨٧٠) وحديثا جدا مجمع الفاتيكان الثاني الاخير ؟ الم تنشر بعد كثير من البراءات نصا عن الوحي على جانب كبير من الاهمية ، استغرق وضعه ثلاث سنوات من العمل المضني (١٩٦٢ — ١٩٦٥) ؟ ان غالبية قارئي التوراة ، تجد هذه المعلومات مشجعة في استهلاك الطبعات المعاصرة فتكتفي بضمانات الاصالة المعطاة على مر القرون من دون ان تفكر مطلقا في امكان مناقشتها .

ولكن عندما نرجع الى مؤلفات مكتوبة من رجال دين ليسوا مهيئين لتبسيط الفكرة الى العامة ، نرى مسالة اصالة اسفار التوراة اكثر تعقيدا مما كان متصورا في البدء . واذا استوضحنا مثلا الطبعة المعاصرة المجزاة للتوراة ، والمترجمة الى اللغة الفرنسية باشراف مدرسة القدس (1) للتوراة

---

(1) Edétion du cerf parie.

فان اللهجة تبدو كثيرة الاختلاف . ويلاحظ بان العهد القديم يثير كالعهد الجديد مسائل لم يخف شارحو تفسيراتها بالنسبة الى الكثير ، العناصر التى تبتعث الجدال والمباحثة .

وفي ابحاث مجردة مكثفة كالتي كتبها الاستاذ ادموند جاكوب « العهد القديم » (٢) نجد ايضا معطيات دقيقة جدا . فانه في هذا الكتاب يقدم لنا نظرة مجملة وكاملة . .

ويجهل الكثيرون بانه كان في الاصل كما يذكر ادموند جاكوب كثرة من النصوص . وليس نص واحد . ولقد كانت هناك نحو القرن الثالث قبل المسيح ثلاثة اشكال لنص التوراة العبري على الاقل : نص الشارحين اليهود ، والذي استخدم على الاقل في جزء من الترجمة اليونانية والاسفار السامرية الخمسة . لقد كان الاتجاه في القرن الاول قبل المسيح الى تثبيت نص مفرد . ولكن كان لا بد من الانتظار قرنا اخر بعد المسيح ، لكي يصبح نص التوراة محددا .

ولو كنا نملك هذه الاشكال الثلاثة للنص ، لكان بالامكان عقد المقارنات والوصول الى راي فيما يمكن ان يكون عليه الاصل . ولكن سوء الحظ شاء الا تكون لنا ادنى فكرة عن هذه النصوص . واذا استثنينا لفافات مغارة « قمران » التي تعود الى ما قبيل المسيح ورقة بردى للوصايا العشر من القرن الثاني بعد المسيح تحتوي على تباينات في النص التقليدي الكلاسيكي ، وبعض الاجزاء التي تعود الى القرن الخامس بعد المسيح (جنيزا القاهرة) فان اقدم نصوص التوراة العبرية يعود الى القرن التاسع بعد المسيح .

اما اللغة اليونانية ، فالترجمة السبعينية كانت الاولى التي تعود الى القرن الثالث قبل المسيح . وقد قام بها يـ د الاسكندرية . وعلى نصها يستند مؤلفو العهد القديم . ومد س نفوذها حتى القرن السابع الميلادي . ان النصوص اليونانية الاساسية المتداولة على العموم في العالم المسيحي ، هي نصوص المخطوطات المحفوظة تحت اسم « محفوظات الفاتيكان » في مدينة الفاتيكان ، و « محفوظات سينا » في المتحف الانكليزي في لندرة والتي تعود الى القرن الرابع الميلادي .

وقد استطاع القديس جيروم في السنوات الاولى من القرن الخامس الميلادي ، وضع نص في اللاتينية انطلاقا من الوثائق العبرية نشرت في الطبعة المسماة Vulgat الترجمة اللاتينية للتوراة بسبب نشرتها العالمية بعد القرن السابع الميلادي .

---

(2) Presses universitaires de france coll « Que sais - je ».

كل هذه النصوص اتاحت للاختصاصيين الوصول الى صياغة « متوسطة » للتوفيق بين النصوص المختلفة . ولقد انجزت مجموعات متوازية متقاربة في لغات مختلفة تورد جنبا الى جنب النصوص العبرية واليونانية واللاتينية والسريانية والارامية حتي والعربية مثل توراة «والتون» الشهيرة . ولنكمل المطاف نضيف ان المدركات التوراتية المتباينة ، كانت بين مختلف الكنائس المسيحية سبب رفضها جميعها نفس الاسفار . كما انها حتى الان ليس لها في اللغة الواحدة الافكار الواحدة عن الترجمة . فمهمة التوحيد في طريق الانتهاء . والترجمة المسكونية للعهد القديم التي حققها عدد من الخبراء الكاثوليك والبروتستانت ستصل الى نص مركب

وهكذا يبدو اسهام الانسان في نص العهد القديم عظيما . واننا لنتحقق دونما عسر من نص الى اخر ، ومن ترجمة الى اخرى ، ومع التصحيحات المستخلصة حتميا ، ان النص الاصلي كان ممكنا تحريفه خلال اكثر من الفي سنة .

اصل التوارة

قبل ان تصبح مجموعة اسفار ، كانت تقليدا شعبيا يرتل عفويا من الذاكرة التي كانت في الاصل الوسيلة الوحيدة لتداول الافكار .

وفي المرحلة البدائية يسبق النظم النثر . ولذلك كان الانشاد داب كل شعب ، في اسرائيل كما في غيره . وشعب اسرائيل مدفوعا بظروف تاريخية انشد كثيرا واجاد ، فيذروة الحماس كما في هوة اليأس ، مساهما بقوة في كل ما يقع له . لان كل شيء كان له في نظره معنى ، فاضفى لذلك على انشاده تنوعا تعبيريا كبيرا .

انه كان ينشد لاسباب مختلفة ، يذكر منها ادموند جاكوب عددا وجدت اناشيد جوتاتها في العهد القديم ، كاناشيد الموائد ، وانشودة نهاية الحصاد ، واناشيد ترافق العمل ، مثل انشودة البئر الشهيرة (سفر العدد ٢١ — ٢٧) واناشيد الزواج مثل انشودة الاناشيد واناشيد الحداد واناشيد الحرب وهي كثيرة جدا في التوراة وفيها انشودة ديبورا (سفر القضاة ١ — ٣٢) التي تمجد نصر اسرائيل الذي اراده الرب في نهاية حرب مقدسة يقودها الرب بنفسه (عدد ١٠ — ٣٥) وعندما ذهب تابوت العهد قال موسى « قم يا رب ، وليتفرق اعداؤك وليهرب من وجهك الذين يكرهونك » .

ومنها ايضا الامثال والعبر (**سفر الامثال**) عبر وامثال (الاسفار التاريخية) وكلمات التبريك واللعن ، القوانين التي امر بها الرسل الناس بعد ان تلقوا الرسالة الالهية .

ويذكر ادموند جاكوب ان هذه الكلمات نقلت اما من الطريق العائلي ، واما من طريق الهياكل بشكل رواية تاريخ الشعب المختار من الله . وسرعان ما استحالت اسطورة شبيهة باسطورة يوائام (**سفر القضاة**

٩ ــ ٧ ــ ٢١) حيث « سارت الاشجار في الطريق لتدهن مليكها بالزيت وتحدث مرة بعد اخرى شجرة الزيتون والتين والكرمة والعليقة » وهذا ما جعل ادموند جاكوب يكتب « ... ان الرواية وقد انتعشت بالصناعة الاسطورية لم تلف نفسها حائرة في موضوعات وعصور مجهولة التاريخ » ثم يستخلص « ان من المرجح ان ما يقصه العهد القديم عن موسى والاباء ، لا يتفق الا قليلا مع السرد التاريخي للاحداث . غير ان الرواة عرفوا في مرحلة النقل الشفهي كيف يفرغون في العمل فيضا من الاناقة والخيال ، ليصلوا بينها بوقائع مختلفة وفقوا معها الى ابراز ما حدث لدى بداية العالم والبشرية ، كما لو كان قصة معقولة في النهاية عند بعض الناقدين .

على ان ثمة مجالا للتفكير بانه بعد استقرار الشعب اليهودي في ارض كنعان ، اي في نهاية القرن الثالث عشر قبل المسيح ، استعملت الكتابة ، دونما دقة ، لنقل العرف والمحافظة عليه ، حتى بالنسبة الى الشرائع التي يخيل للناس انها ذات ديمومة اطول . ومن بين هذه الشرائع التي قيل انها كتبت بيد الله ، الوصايا العشر التي نقلت في العهد القديم بمقتضى نصين « سفر الخروج ٢٠ ــ ١ ــ ٢١ » و « دوترونوم »
« ٥ ــ ١ ــ ٣٠ » . جوهرهما واحد . ولكن التلون والتغير فيهما باديان ولقد كان ثمة اهتمام بجمع محفوظات مهمة فيها : عقود ، ورسالات ولوائح شخصية (قضاة ، وموظفون كبار في المدن ولوائح سلالات) ولوائح قرابين ولوائح الغنائم بحيث تكونت محفوظات يسرت التوثيق اثناء التحرير النهائي للمؤلفات التي افضت الى الاسفار التي بين ايدينا . ففي كل سفر الوان ادبية مختلفة ممزوجة . وعلى الاختصاصيين بحث اسباب هذا التجميع المتباين بين انواع مختلفة من الوثائق .

والمهم ان نقرب هذه الطريقة بالتركيب بين مجموعة متخالفة هي العهد القديم ، على اساس مبدئي من الرواية الشفوية لما امكن وقوعه تحت سماوات اخرى وفي ازمنة اخرى لدى نشأة ادب بدائي .

ولنأخذ مثلا على ذلك ، نشأة الادب الفرنسي في عصر ملكية الفرنسيين حيث تصدرت الرواية الشفوية في البداية لتسجل الوقائع . فقد كانت في الغالب حروب لحماية المسيحية ، كما كانت مآس مختلفة لمع فيها ابطال ، وتأثر بهم بعد اجيال متأخرة شعراء القرون الوسطى ، ومؤرخون ، ومؤلفو « عهود » مختلفة . وابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي برزت تلك الاغاني الرمزية التي يختلط فيها الخيال بالحقيقة ، فبنت او الفت اول صرح للملحمة المنظومة . كان من اشهرها انشودة رولان . وهي اغنية تاريخية لواقعة مسلحة كبيرة لمع فيها رولان قائد مؤخرة الامبراطور شارلمان في رجعته من غزوة لاسبانية . ولم تكن تضحية رولان فيها حدثا منتزعا من الخيال لتغطية احتياجات القصة . لقد كانت الغزوة في الخامس عشر من

آب سنة ٧٧٨ . وكانت ردا على هجوم من الجبليين الباسك . ورغم ان العمل الادبي في هذه القصة يبرز في مجموعة من الاساطير لها سند تاريخي الا ان المؤرخين لم يأخذوا بها حرفيا .

والمقارنة المعقودة بين نشأة التوراة ومثل هذا الادب الدنيوي ، تبدو بصورة دقيقة مطابقة للحقيقة . انها لا تهدف مطلقا الى ان تلفظ نصوص التوراة في مجموعها كما يفعل كثير من الجاهدين تقليدا للعقيدة في الله وهي النصوص التي يحرزها البشر اليوم كمخزن لمجموعات الدين الوثني . انه يمكن الايمان في حقيقة الله ايمانا كاملا وفي تكليفه لموسى وتسليمه الوصايا العشر ، وفي تدخل العناية الالهية في شؤون العباد . وقد كان يمكن التفكير في عصر سليمان الملك مثلا بانه قد نقل الينا جوهر هذه الافعال مع الاعتبار، بانه ينبغي ان يخضع التفصيل بالاوصاف لنقد دقيق ما دامت المساهمات الانسانية كبيرة في كتابة تلك الروايات الشعرية الاصيلة .

أسفار العهد القديم

ان العهد القديم مجموعة مؤلفات غير متساوية الطول ، ومختلفة النوع ، كتبت خلال اكثر من تسعة قرون في لغات عدة اخذا بالسماع . وكثير من هذه المؤلفات صححت ثم اكملت تبعا للاحداث او للضرورات الخاصة . على مدى اجيال متباعدة احيانا بعضها عن بعض .

ومن المعقول ان يكون ازدهار هذا الادب الثري ، قد تم في مطلع عهد الملكية الاسرائيلية في القرن الحادي عشر قبل المسيح . وهو العصر الذي ظهر فيه في الحاشية الملكية سلك الكتبة . وهم شخصيات مثقفة لا ينحصر عملهم في الكتابة فقط . وترجع الى هذا العصر بدايات الكتابات الاولى المجزأة المذكورة في الفصل السابق . وهي كتابات من المفيد تثبيتها خطيا ؛ كبعض الاناشيد التي ذكرت آنفا ، وتنبؤات يعقوب وموسى ؛ والوصايا العشر . وعلى العموم النصوص التشريعية التي كانت قبل اكتمال القانون تشكل تقليدا دينيا . كل هذه النصوص تؤلف قطعا متناثرة هنا وهناك في مجموعات مختلفة من العهد القديم .

وفي وقت متأخر قليلا ، ولعله في مجرى القرن العاشر قبل الميلاد ، كان قد وضع النص اليهودي للاسفار الخمسة التي شكلت فيما بعد هيكل الاسفار الخمسة المنسوبة الى موسى . وزيد عليها فيما بعد المقطع الالهي والمقطع الكهنوتي . ويعالج النص اليهوي الاصلي الذي صدر عن مملكة يهوذا في الجنوب مرحلة اصول الخلق حتى موت يعقوب .

وفي آخر القرن التاسع ، منتصف القرن الثامن قبل المسيح في مملكة الشمال (اسرائيل) ، ازدهرت النبوة ، وانتشر تأثيرها مع ايليا واليسع اللذين نملك اسفارهما . وكان هذا العصر ، عصر النص الالهي للاسفار الخمسة التى تغطي عهدا اضيق من عهد اليهوية الذي يتحدد بالاحداث المتعلقة بابراهيم ويعقوب ويوسف وترجع الى هذا العهد كتب يوشع والقضاة .

والقرن الثامن قبل المسيح هو قرن الكتبة عاموس وهوشع في اسرائيل ، واشعيا ، وميخا في مملكة يهوذا سنة ٧٢١ قبل المسيح الذي ختم بسقوط السامرة عهد مملكة اسرائيل لتتسلم مملكة يهوذا ميراثها الديني .

وترجع مجموعة الامثال الى هذا العهد الذي عرف على الاخص باتحاد النصوص اليهوية والالهية من الاسفار الخمسة في كتاب واحد ، بحيث تألفت التوراة . كما تم تحرير سفر التثنية في هذه الفترة تقريبا .

هذا ويلتقي حكم جوزياس في الشطر الثاني من القرن السابع قبل الميلاد ، مع بدايات النبي ارميا الذي لم يأخذ عمله شكله النهائي الا بعد قرن .

وقبل النفي الاول الى بابل (سنة ٥٩٨) قبل الميلاد كانت بشارة صفنيا وناحوم وحبقوق . اما خلال هذا النفي الاول فقد تنبأ حزقيل ثم كان سقوط القدس (سنة ٥٨٥) قبل الميلاد الذي كان بداية للنفي الثاني الممتد حتى (٥٣٨) قبل الميلاد .

ولم يحرر سفر حزقيل اخر نبي كبير ، ونبي المنفى ، في شكله الحاضر من مجموعة الكتبة الذين حملوا ميراثه الروحي الا بعد موته . وهؤلاء الكتبة هم الذين نشروا في طبعة ثالثة مسماة (كهنوتية) سفر التكوين في جزئهما الممتد من الخلق حتى موت يعقوب . وبهذا ادرج في النصين اليهوي الالهي من التوراة نص ثالث سنرى فيما بعد صورة من انبثاثه في الاسفار المحررة بعد اربعة قرون وقرنين تقريبا . وفي هذا العصر ظهر كتاب المراثي .

وقد ختمت مأساة النفي الى بابل سنة (٥٣٨) بأمر سيروس : وعاد اليهود الى فلسطين . واعادوا بناء الهيكل . وعاد نشاط النبوة ، فكان منها كتب حجي وزكريا واشعيا الثالث وملاخي ودانيال وباروخ (وقد كتب هذا باليونانية) .

والفترة اللاحقة على المنفى هي ايضا فترة اسفار الحكمة ، فقد حررت الامثال نهائيا سنة ٤٨٠ قبل المسيح ، وسفر ايوب وسط القرن الخامس قبل المسيح . ويعود سفر الجامعة او الى القرن الثالث قبل المسيح ، وهو ايضا تاريخ تحرير نشيد الاناشيد ، وكتابي التاريخ الاسقرائي لعزرا ونحميا . وقد ظهر سفر الجامعة او سيراخ في القرن الثاني قبل المسيح . اما كتاب حكمة سليمان ، وكتابا مكابي فقد حررت قبل قرن من ميلاد المسيح . هذا ويصعب تأريخ كتب راغوث واستير ويونان . كما يصعب تأريخ كتابي طوبيا ويودث . كل هذه الدلالات قد كتبت احتياطا من التعديلات اللاحقة ، لان كتابات العهد القديم لم تعط شكلها الاولى الا قبل المسيح بقرن واحد . ولم يصبح هذا الشكل بالنسبة الى الكثيرين نهائيا الا في القرن الاول بعد الميلاد .

وهكذا ظهر العهد القديم كصرح لادب الشعب اليهودي من اصوله حتى العصر المسيحي وقد حررت الاجزاء التي يتألف منها . وتمت ورروجعت فيما بين القرنين العاشر والاول قبل المسيح . وليست هذه وجهة نظر شخصية ندلي بها هنا عن تأريخ تحريرها ، بل لقد اخذت معطياتها التاريخية

الاساسية من فصل (التوراة) المكتوب لدائرة المعارف العالمية (١) من قبل سندروز وهو استاذ في جامعة الدمينيكان في سولشوار . ولا بد لكي نفهم ما هو العهد القديم ، من ان نتذكر هذه المعلومات المثبتة تماما في ايامنا هـذه من اختصاصيين ذوي خبرة رفيعة .

فقد اختلط الوحي بكل هذه الكتابات . ولا نعرف اليوم الا ما تركـه لنا منه الذين عالجوا نصوصه حسب هواهم وفقا للظروف التي وجدوا فيها، والضرورات التي واجهوها (٢) .

وعندما نقارن هذه المعطيات الموضوعية مع تلك الموجودة في مقدمات التوراة المختلفة والهادفة في ايامنا الى تبسيطها للناس ، نتأكد من ان الوقائع مسوقة فيها بطريقة متغايرة جدا . اننا بغض النظر عن الوقائع الاساسية المتعلقة بتحرير الاجزاء ، لا نزال نجد التباسات تضلل القارىء وتخفض اهمية الوقائع ، حتى يصل بها الامر الى حد تشويه الحقيقة . وكثير من المقدمات او من المداخل وضعت للتوراة تخفي الحق على هذا النمط . فقد حرفت كتب بكاملها مرات متعددة (مثل الاسفار الخمسة) ثم اكتفى بالاشارة الى تفاصيل يمكن ان تكون قد زيدت فيما بعد . وفي الوقت الذي تفتـح فيه مناقشة في معرض مقطع مبهم من احد الكتب ، يلزم الصمت حول وقائع جوهرية تتطلب توسعا كبيرا . وانه لمن المؤسف ان نرى الابقاء على المفاهيم الخاطئة عن العهد القديم مبسطة بين ايدي الناس .

التوراة أو الاسفار الخمسة :

التوراة هو الاسم السامي . والعبارة اللاتينية التي اطلقت فـــي الفرنسية : الاسفار الخمسة تعني مؤلفا من خمسة اجزاء : سفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر الاحبار : وسفر العدد ، وسفر التثنية ، التـــي تشكل العناصر الخمسة الاولى من مجموعة التسعة والثلاثين كتابا مـــن العهد القديم .

هذه المجموعة من النصوص تتناول اصول العالم حتى دخول الشعب اليهودي الى ارض كنعان ، ارض الميعاد بعد المنفى في مصر . اي بدقـــة حتى موت موسى . ولقد كانت رواية هذه الوقائع اطارا عامـــا لعرض

---

(١) طبعة ١٩٧٢ جزء ٢ صفحة ٢٢٦ — ٢٥٣

(٢) ان هذا الكلام من الاهمية بمكان . وان على الذين يقرأون هذه الكلمات التي يكتبهـا فرنسي في اواخر القرن العشرين ان يروا فيها شهادة مشاهدة على اعجاز القرآن ، وانه كلام الله الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلى صدق دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وان يعترفوا بالحق . وصدق الله تبارك وتعالى اذ يقول : « فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثـم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون » البقـــرة ٧٨ « المترجم »

الاوضاع التي تخفي الحياة الدينية والحياة الاجتماعية للشعب اليهودي التي انبثق عنها اسم الشريعة او التوراة .

وقد ذهبت اليهودية والمسيحية عبر قرون طويلة الى ان مؤلفها هو موسى نفسه . ولعلهم استندوا لاثبات ذلك على قول الله لموسى (سفر الخروج ١٧ ، ١٤) « اكتب هذا (هزيمة عمالق) في الكتاب للذكرى » او بمناسبة سفر الخروج من مصر ان « موسى سجل الاماكن التي خرجوا منها » (سفر العدد ٢ ، ٣٣) او ان « موسى كتب هذه الشريعة » (سفر التثنية ٩ ، ٣١) ؛ وقد شرع الناس ابتداء من القرن الاول قبل المسيح يدافعون عن هذه النظرية ، وايدها « فلافيوس جوزيف ، وفيلون الاسكندري » .

اما اليوم فقد اهملت نهائيا باتفاق الجميع . ولكن هذا لا يمنع ان ينسب العهد الجديد الى موسى ابوته للاسفار الخمسة . وبولس في فصل من رسالته الى اهل روميه (٥ ، ١٠) وهو يورد عبارة من سفر الاحبار تؤكد ان « موسى بذاته كتب عن العدالة التي تاتي من الشريعة » بينما يقول يوحنا على لسان عيسى في انجيله (٥ ، ٤٦ ، ٤٧) هذه الجملة «لو كنتم تصدقون موسى لصدقتموني لانه اخبر عني فيما كتب . واذا كنتم لا تصدقون كتبه فكيف تصدقون كلامي ؟ » ويقصد هنا الكتابة . والعبارة اليونانية الموجودة في النص الاصلي هي Epistente والواقع ان هذا تاكيد خاطىء تماما وضعه الانجيلي على لسان المسيح كما سيثبت ذلك فيما يلي :

اني استعير عناصر هذا التدليل من الاب دوفو مدير المدرسة التوراتية في القدس الذي قدم لترجمته سفر التكوين ١٩٦٢ بمدخل عام للاسفار الخمسة ، وساق براهين قيمة جدا تتجه ضد التاكيدات الانجيلية في ابوة موسى للاسفار الخمسة .

ويذكر الاب دوفو « بان العرف اليهودي الذي تبعه المسيح والرسل » بقي مقبولا حتى نهاية القرون الوسطى . وقد كان « ابن عزرا » في القرن الثاني عشر المعارض الوحيد لهذه النظرية . وفي القرن السادس عشر نبه كارلستادت الى ان موسى لم يستطع كتابة خبر موته في سفر التثنية (٣٤ ، ٥ — ١٢) . ويذكر المؤلف فيما بعد انتقادات اخرى انكرت نسبة جزء على الاقل من الاسفار الى موسى ، وبخاصة كتاب ريشار سيمون في (الاوروتوار) « تاريخ العهد القديم النقدي ١٦٦٨ » الذي اورد الصعوبات الزمنية، والتكرارات، وفوضى النصوص، واختلافات الاسلوب في الاسفار الخمسة . لقد احدث الكتاب فضيحة حتى ولو لم يعد احد يتبع حجج ريشار سيمون ، وان الاشارات الى القدم في بعض كتب تاريخ بداية القرن الثامن عشر لتنبثق غالبا مما « كان قد كتب موسى » .

اننا نتصور كما راينا كم كان عسيرا مغالبة اسطورة تستمد قوتها من تاييد يقال ان المسيح ذاته قد منحها اياه في العهد الجديد . واننا لمدينون الى جان استريك طبيب لويس الخامس عشر الذي قدم البرهان القاطع .

انه عند نشره سنة ١٧٥٣ مصادفاته عن المذكرات الاصلية التي يبدو ان موسى استعان بها لتاليف كتاب (سفر التكوين) اكد تعدد المصادر . ولم يكن هو الاول الذي ابدى هذه الملاحظة . ولكن كانت له على كل حال الشجاعة بنشر تحقيق على غاية من الاهمية : نصان مختص كل واحد منهما بخاصة تسميه الله (يهوه) و (الوهيم) كانا جنبا الى جنب موجودين في سفر التكوين . فهذا الاخير كان يحوي اذا نصين متجاورين . ولقد اجرى ايشورون (١٧٨٠ — ١٧٨٣) نفس الاكتشاف للكتب الاربعة الاخرى . وقد لاحظ بعده الجان (١٧٩٨) بان احد النصين اللذين شخصهما استريك والذي كان يدعى فيه الله « الوهيم » هو ايضا ينقسم الى قسمين . فالاسفار الخمسة كانت تتفجر تفجرا مطلقا .

ولقد اعتنى القرن التاسع عشر بدقة اكثر ، في البحث عن المصادر . فقد كان المعتمد منها سنة ١٨٥٤ اربعة ، اعطيت لها الاسماء التالية : الوثيقة اليهوية ، الوثيقة الالوهية ، سفر التثنية ، والشريعة الكهنوتية ، كما امكن تحديد ازمانها :

الاولى في القرن التاسع قبل المسيح (حررت في بلاد يهوذا) والثانية اكثر حداثة (حررت في اسرائيل) والثالثة التي هي سفر التثنية تعود في راي ادموند يعقوب الى القرن الثامن قبل المسيح ، وفي راي الاب دوفو الى عصر جوزياس (القرن السابع قبل المسيح) . اما الرابعة فتعود الى عصر المنفى ، او بعده في القرن السادس قبل المسيح .

وهكذا يكون تنظيم نصوص الاسفار الخمسة قد امتد على الاقل على مدى ثلاثة قرون . ولكن الموضوع يبقى اكثر تعقيدا اذ قد ابرز « أ. لودس » سنة ١٩٤١ ثلاثة مصادر في الوثيقة اليهوية ، واربعة في الالوهية وستة في سفر الاستثناء ، وتسعة في الشريعة الكهنوتية « ما عدا الزيادات الموزعة بين ثمانية مؤلفين كما كتب الاب دوفو » وقد توصل البعض في تاريخ اكثر حداثة الى التفكير بانه «كان لكثير من الانظمة او من شرائع الأسفار الخمسة ما يوازيها خارج التوراة مما هو اسبق بكثير من التواريخ التي قد تنسب الى الوثائق » ، وان « عددا من روايات الاسفار الخمسة يفترض بيئة اخرى اقدم من التي ظهرت فيها هذه الوثائق » وهذا ما يوصلنا الى الاهتمام « بتكوين التقاليد » فالمسالة تبدو اذن على مستوى من التعقيد بحيث لا يهتدي معه احد للتعرف اليها .

ان تعدد المصادر يستدعي الخلافات والتكرارات الكثيرة . ويعطي الاب دوفو امثلة على تداخل التقاليد المختلفة المتعلقة بالخلق وذريات

قايين ، والطوفان ، وخطف يوسف ومغامراته في مصر ، واختلافات الاسماء المتعلقة بنفس الشخصية والعروض المختلفة للاحداث المهمة .

وهكذا ظهرت الاسفار الخمسة مشكلة من التقاليد المختلفة المجموعة بمهارة من بعض الكتاب الذين وضعوا مراجعهم تارة بعضها الى جانب بعض ، وطورا غيروا الروايات بهدف تلخيصها مع الابقاء على المستحيلات والتخالفات التي ساقت المعاصرين الى البحث الموضوعي عن المصادر .

ودونما ريب ، فان الاسفار الخمسة ، هي في مجال النقد للنص ، المثل الاكثر وضوحا للتعديلات التي اجراها الناس في مختلف عهود تاريخ الشعب اليهودي ، وللروايات الشفوية وللنصوص المأخوذة عن الاجيال الماضية ، هذا ، وقد بدأ في القرن العاشر او التاسع قبل المسيح مع الرواية اليهوية ، التي اخذت الخبر من اصوله ، لم يكن الا ليرسم المعالم الاولية للمصير الخاص لاسرائيل كما كتبه الاب دوفو « ليعيدها الى موضعها في المرتسم الكبير لله عن الإنسانية » وقد انتهى في القرن السادس قبل المسيح بالرواية الكهنوتية المهتمة بالتدقيق في ذكر التواريخ والانساب (٣) .

ولقد كتب الاب دوفو بان الاخبار النادرة التي تختص هذه الرواية ، تشهد لاهتماماتها الشرعية كالراحة السبتية بعد نهاية الخلق . والميثاق مع نوح ومع ابراهيم ، والختان ، وشراء مغارة مقبلا التي تكسب البطاركة « صك ملكية » في كنعان . ولنذكر بان الرواية الكهنوتية كانت عند الرجوع من المنفى في بابل للاستيطان في فلسطين ابتداء من سنة ٥٣٨ قبل المسيح . لقد كان اذن خلط وتداخل بين المواضيع الدينية والمواضيع السياسية الخالصة .

ان تقسيم الكتاب الى ثلاثة مصادر اساسية بالنسبة الى سفر التكوين امر مثبت . وان الاب دوفو يورد في شروح ترجمته لكل واحد منها مقاطع متعلقة به من النص الحالي لسفر التكوين . وبناء على هذه المعطيات يمكننا ان نحدد لاي فصل مساهمات المصادر المختلفة . وفيما يخص الخلق مثلا والطوفان ، والمرحلة الزمنية الممتدة من الطوفان حتى ابراهيم التي شغلت الاحد عشر فصلا الاوائل من سفر التكوين ، نرى بالدور في الخبر التوراتي ، تتابع جزء من النص اليهوي مع جزء من النص الكهنوتي اما النص الالهي فهو غير موجود في الاحد عشر فصلا الاوائل . ويبدو هنا تداخل المساهمات اليهوية والكهنوتية جليا جدا . اما بالنسبة للخلق حتى نوح (الفصول الخمسة الاولى) فان التنظيم بسيط . مقطع من اليهوي

---

(٣) سنرى في الفصل اللاحق اخطاء كتاب النص الكهنوتي فيما يتصل بقدم الانسان على الارض ومكانته في الزمن وتقلب الخلق . والاخطاء ناتجة بوضوح من تدخل أيدي الناس في النصوص .

يعقب مقطعا من الكهنوتي من البداية حتى نهاية الرواية . ولكن بالنسبة الى الطوفان ، وبخاصة بالنسبة الى الفصلين ٧ و ٨ فان تقطيع النص حسب المصادر يعزل فقرات قصيرة قد تنتهي الى أن تكون جملة واحدة . ولاكثر بقليل من مئة بسطر من النص الفرنسي ننتقل سبع عشرة مرة من نص الى اخر . ومن هنا الاستحالات والتضادات في قراءة الرواية الحالية . (ينظر الجدول الآتي فيما بعد المفصل لتوزيع المصادر) .

تفصيل توزيع النص اليهوي والنص الكهنوتي في الفصول من ١ الى ١١ من سفر التكوين :

ـ الرقم الاول يشير الى الفصل .
ـ الرقم الثاني بين قوسين يشير الى ارقام الجمل المقسمة احيانا الى قسمين متمايزين بالحرف أ و ب .
ـ الحرف ي يمثل النص اليهوي .
ـ الحرف ك يمثل النص الكهنوتي .
فمثلا ، السطر الاول من الجدول :
من الفصل ١ جملة ١ الى فصل ٢ جملة ١٤ النص الحالي المنشور في التوراة هو النص الكهنوتي .

فصل	جملة	الى
١	١	—
٢	٤ ب	—
٥	١	
٦	١	
٦	٩	
٧	١	
٧	٦	
٧	٧	
٧	١١	
٧	١٢	
٧	١٣	
٧	١٦ ب	
٧	١٨	
٧	٢٢	
٧	٢٤	
٨	٢ ب	—
٨	٣	—
٨	٦	
٨	١٣ أ	
٨	١٣ ب	
٨	١٤	
٨	٢٠	
٩	١	
٩	١٨	
٩	٢٨	
١٠	٨	
١٠	٢٠	
١٠	٢٤	
١٠	٣١	
١١	١	
١١	١٠	

فصل	جملة	نص
٢	١٤ أ.	ك
٤	٢٦	ي
٥	٣٢	ك
٦	٨	ي
٦	٢٢	ك
٧	٥	ي
—	١٠	ك
—	—	معدل
—	—	ك
		ي
٧	١٦ أ	ك
٧	١٧	ي
٧	٢١	ك
٧	٢٣	ي
٨	٢ أ	ك
—	—	ي
٨	٥	ك
٨	١٢	ي
—	—	ك
—	—	ي
٨	١٩	ك
٨	٢٢	ي
٩	١٧	ك
٩	٢٧	ي
١٠	٧	ك
١٠	١٩	ي
١٠	٢٣	ك
١٠	٣٠	ي
١٠	٣٢	ك
١١	٩	ي
١١	٣٢	ك

اية طبعة اوضح يمكن ان تعبر عن تدخل البشر في كتابة التوراة !

نطالع فيها تاريخ الشعب اليهودي من يوم دخوله ارض الميعاد (المحدد في الارجح في اخر القرن الثالث عشر قبل المسيح) حتى النفي الى بابل ، في القرن السادس قبل المسيح .

والالحاح هنا منصب على ما يمكن تسميته « الواقع الوطني » المبرز كأنه تحقيق للكلمة الالهية . وفي الرواية بعض الاستهانة بالدقة التاريخية ، فكتاب مثل سفر يشوع خاضع قبل كل شيء لاسباب لاهوتية . وبهذه المناسبة يبرز الاستاذ ادموند جاكوب التناقض المنكشف ، بين علم الاثار والنصوص الواردة في معرض ادعاءات تخريب أريحا وعي .

ان كتاب القضاة يدور حول دفاع الشعب المختار بمساعدة الله ضد الاعداء المحيطين به . وقد عدل هذا الكتاب اكثر من مرة . وهو ما يلفت اليه النظر الاب دوليفيير في مقدمات توراة كراميون . ويشهد لهذا الاستدلالات المتداخلة والزيادات . وتاريخ روث يرتبط بأخبار القضاة هذه .

ان سفر صموئيل ، واسفار الملوك ، هي على الخصوص مجموعات سير صموئيل وشاؤول وداود وسليمان . وقيمتها التاريخية مشكوك فيها . ويرى ادموند جاكوب من هذه الجهة اخطاء كثيرة . اذ يمكن ان تكون الرواية فيها للحادث الواحد روايتين او ثلاثا . وللانبياء ، الياس واليسع واشعيا فيها مكانهم الذي تختلط فيه السمة التاريخية مع السمة الاسطورية ، بينما يرى شراح اخرون مثل الاب ليفيير أن « قيمتها التاريخية اساسية » .

يقول المؤرخ بأن كاتب السفر الاول والثاني من التاريخات ، وأسفار اسدراس ونخميا واحد ، كان يعيش في اخر القرن الرابع قبل الميلاد . انها تحوي تاريخ الخلق برمته حتى ذاك العصر . اما انسابها فلا تمتد الا الى داوود . وبالفعل فانه يستخدم بالخصوص سفر صموئيل واسفار الملوك « وينسخها آليا دون أن يهتم بالتناقضات » (ادموند جاكوب) ولكنه يضيف ايضا كثيرا من الوقائع الدقيقة التي تؤيدها الاثار . في هذه المؤلفات يبرز الاهتمام بتطويع التاريخ للضرورات اللاهوتية . فالكاتب كما يقول ادموند جاكوب « يصنع التاريخ احيانا انطلاقا من اللاهوت » « وهكذا ليشرح بأن الملك منسى الظالم خارق المقدسات ومدنسها كان ذا حكم طويل مزدهر ، يتلمس ارتدادا له في فترة اقامته في اشوريا (تاريخات الكتاب الثاني ٣٣ — ١٠) وهو ما ليس واردا في اي مصدر توراتي او غير توراتي » وقد انتقدت اسفار اسدراس ونخميا كثيرا لانتشار الغموض فيها ، ولتعلقها بمرحلة بقيت هي ذاتها معروفة معرفة

سيئة جدا ، للنقص في الوثـــائق غير التوراتية العـــائدة الى القرن الرابع قبل المسيـــح .

ومن بين الكتـــب التاريخية كتـــب طوبيا وجـــوديث واستر ، التي اتخذت فيها الحرية كاملة تجـــاه التاريخ ، حيث كان فيها تبديل اسمـــاء اعلام ، واختراع شخصيات ، واحداث ، كل ذلك في سبيل ابدع الاهـــداف الدينيـــة . انها في الواقع اخبار ذات مقاصد اخلاقية مخلوطة بالمستحيلات التاريخيـــة والاخطاء ..

وعلى العكس من ذلك كتـــابا مكابي اللـــذان يعكسان على احـــداث القرن الثاني قبل المسيـــح صورة اقرب ما تكـــون الى حقيقة تاريـــخ هذه المرحلة ، فيؤلفان بهذا شهادة ذات قيمة كبـــيرة .

اما مجموعة الكتب المسماة تاريخية فهي متنـــاثرة ، لان التاريخ فيها معروض بطريقـــة يسيطر عليها العلم بقدر ما يسيطر عليها الهوى .

كتـــب النبـــوة

تفرز تحت هذا الاسم مواعظ الانبياء على اختلافهم ، المرتبين في العهـــد القديم ، خارج كبار الانبياء الاوائل الذين ذكرت تعاليمهم في كتـــب اخرى مثل موسى وصموئيل وايليا او اليسع .

وكتـــب النبوة تغطي الفترة الممتدة بين القرن الثامن والثـــاني قبل المسيح . وفي القرن الثامن قبل المسيح كانت كتب عاموس واوزيـــه واشعيا وميخا . والاول مشهور بذمه الانحرافات الاجتماعية . اما الثاني فمشهور بذمه الفساد الديني الذي كلفه العذاب حتى في بدنه (بعد ان اضطـــر للزواج من زانية تدسها احد اصحاب المذاهب الوثنية) على صورة اللـــه الذي يتعذب من انحطاط شعبـــه في الوقت الذي يستمر في منحه حبه (٤) واشعيا صورة من صور التاريخ السياسي لانه قـــد سيطر على الاحداث من خلال استشارة الملوك له . فهو نبي العظمة ، يضاف الى اعماله الشخصية نشر نبواته بواسطة تلاميذه حتى القرن الثالث قبل المسيح ، منها احتجاجات ضد البغاة ، وخوف من محاسبة الله ، ونبأ التحرر وقت المنفى ونبأ في فترة اكثر تأخرا عن عودة اليهود الى فلسطين .

وانـــه لمن المؤكد بانه في كتابي اشعيا الثاني والثالث هذين ظهـــر بجـــلاء تضاعـــف الجهد السياسي . وقد انطلق وعظ ميخا المعاصر لاشعيا من نفـــس هذه الاصول الفكرية العامة .

---

(٤) هذا الكلام يعبر عن المفهوم الديني لدى المسيحية فقط وليس له اي وجود في مفاهيمنـــا الدينية الاسلامية ((المترجم)) .

وقد اشتهر في الوعظ في القرن السابع قبل المسيح كل من صنيا وارميا وناحوم وحبقوق . وقد استشهد أرميا الذي ربما كان مؤلف المراثي .

وفي مطلع القرن السادس قبل المسيح ، بعث النفي الى بابل نشاطا نبويا عظيما . ويعتبر حزقيل الذي زرع في اخوته الرجاء ، وجها عظيما للمعزي . ورؤاه مشهورة ، وكتاب عبيدياس متصل بمآسي القدس المحتلة .

وقد عاد النشاط النبوي بعد المنفى الذي انتهى سنة ٥٣٨ قبل الميلاد.مع عجي وزكريا للحث على اعادة بناء الهيكل . وما ان انتهى البناء وهو ما كتب تحت اسم ملخيا حتى احتوى التنبؤات الروحية المختلفة .

ولماذا اندمج كتاب يونان في كتب النبوة في حين ان العهد القديم لم ينسب اليه نصوصا في المعنى الحرفي للكلمة . ان يونان قصة يستخلص منها مبدأ اساسي هو ضرورة الخضوع للارادة الالهية .

وفي راي الشراح المسيحيين أن دانيال رؤيا مشوشة تاريخيا مكتوبة في لغات ثلاث (العبرية والارامية واليونانية) انه مؤلف يعود الى القرن الثامن قبل المسيح في عصر مكابي ، اراد فيه الكاتب حفاظا على ايمان مواطنيه اقناعهم (في فترة الحزن الكريه) بأن زمن الخلاص قريب .

كتب الشعر والحكمة

انها تشكل مجاميع ذات وحدة ادبية غير منازع فيها . في مقدمتها المزامير التي هي صرح الشعر العبري . مؤلفة اكثرها من داود . والباقي بعضه من احبار والبعض الاخر من الكهنة اللاويين . دورها طقسي . وموضوعها التثنية والابتهالات والتأملات .

وكتاب ايوب ، كتاب حكمة وتقوى يعود الى ٤٠٠ او ٥٠٠ قبل المسيح . ويمكن ان يكون ارميا هو كاتب مراثي سقوط بيت المقدس في مطلع القرن السادس قبل المسيح .

وينبغي أن نذكر ايضا انشودة الاناشيد التي هي تراتيل رمزية في الحب الالهي . وكتاب الامثال وهو مجموعة اقوال سليمان ، وغيره من حكماء البلاط ، وسفر الجامعة الذي يعالج مشاكل السعاده الارضية ، والحكمة .

وكيف امكن لهذه المجموعة المتباينة المضمون ، من رسائل مكتوبة خلال فترة سبعة قرون على الاقل ، صادرة عن مصادر متغايرة جدا ، ان تمزج كلها فيما بعد في مؤلف واحد وتصبح على تقلب القرون ، ومع بعض الفروق حسب الطوائف ، كلا لا يتجزأ ، وكتاب الوحي في اليهودية — المسيحية و « القانون » الذي لا يمس كما يفهم من اليونانية .

ولا يعود تاريـــخ هذا المزج الى بداية المسيحية ، بل الى العهد اليهودي نفسه. وقد اضيفــت الكتب المتأخرة الى السابقة المحفوظة دونما شـــك في فترة اولى في القرن السابع قبل المسيــح . ومع ذلك فانه لا بد مـــن الانتباه الى المكانـــة المفضلة التي تتمتع بها في كل زمن الكتب الخمســـة الاولى المؤلفة للتوراة او الاسفار الخمسة .

ولم يكن عسيرا اضافة نصوص اخبار الانبياء بعد ان اكملت (الوعيد بالعقاب على عمل الاخطاء) الى الكتـــب المعتمدة سابقا . فقد كان فيهـــا ايضا وعود بالامل مطروحة بسخاء من الوعاظ انفسهم ... وقد ثبــــت « قانـــون » الانبياء هذا في القرن الثاني قبـــل المسيـــح .

والكتب الاخـــرى كالمزامـــير وفقا لاهدافهـــا الدينية الطقسية قـــد ادمجـــت في غيرها من الكتابات ، مثل المراثي ، وكتابات حكمة سليمـــان او كتابـــي ايـــوب .

وسنرى بعيدا ان المسيحية المدروسة جيدا من الكتاب المعاصريـــن مثل الكاردينال دانييلو ، وقـــد كانت في اول الامر اليهودية ـــ المسيحية ، قد تلقـــت بصورة طبيعية هذا الميراث من العهد القديـــم الذي ارتبط بـــه كتاب الاناجيـــل الى حد بعيد ، قبـــل ان تخضع للتحول بتاثير بولس ..

ولو شذبـــت الاناجيـــل فحذف منها غير الصحيح ، لما أمكن الظـــن بوجوب تحقيق نفـــس عملية الفرز للعهد القديـــم ، ولقبل الكل او مـــا هو قريـــب منـــه . (٥)

ومن كان يجرؤ على المعارضة ايا كانت لهذا الخليط الذي يعـــوزه الانسجام حتى نهاية القرون الوسطى ، وفي الغرب على الاقل . ومع ذلـــك فقد ظهرت مع نهاية القرون الوسطى حتى بداية الازمان المعاصرة بعـــض الانتقادات كما راينا فيما سبق . بيد ان الكنائس كانت تنجح دائما في فرض نفوذها . ولقد ظهر حقا في ايامنا نقد اصيـــل للنص . ولكن المختصين بـــه من الاكليركيين رصدوا كثيرا من الجهود لفحص خليط مـــن النقاط التفصيلية وفضلوا عدم الامعان فيما يسمونه بلياقة صعوبات . انهم لم يظهروا ابدا مندفعين لدراستها في ضوء المعارف المعاصرة . واننا اذا شئنا عقد مقارنات تاريخية ـــ ولا سيما ـــ عندما يظهر التوافق بينها وبين الروايات .. التوراتية ـــ لا نلتزم بعد خطة مقارنة صريحة ـــ ومعمقة مع الافكار العلميـــة التي

---

(٥) هذا القول وان كان يؤكد المعنى السابق . الا انه بالنسبة الينا كمسلمين نؤمن بـــان رسالة الاسلام هي خاتمة الرسالات وانها ناسخة لما قبلها لما اعتراه من تبديل وتحريف، وانها جاءت بالقول الفصل لتخرج الناس من الظلمات الى النور ، مهم جدا فليفتح العقلاء قلوبهم وليبصروا الحـــق !! « المترجم » .

نرى انها تفضي الى الاعتراض على الفكرة التي لم تزل مسلمة في حقيقـة الكتابات اليهودية ـــ المسيحية . (٦)

(٦) اليس مثل هذا القول يدعو الى اعادة النظر في كثير مما ينسب اليوم الى انه حقائق ؟ اليس يشكل خطوة بصيرة ورشيدة الى الحق ؟! وهل ستزيل كثيرا من الغشاوات التي طمسـت العيون لنبصر بجلاء ونرى بوضوح ؟! « المترجم » .

ملاحظات في العهد القديم

في العهد القديم كما في الانجيل قليل من الموضوعات تفسح المجال للمجابهة مع معطيات المعارف المعاصرة ولكن عندما يقع التناقض بين النص التوراتي والعلم ، فيكون ذلك بالنسبة الى مسائل مهمة .

لقد راينا في التوراة في الفصل السابق ، اخطاء في السياق التاريخي . وذكرنا بعضا منها مرقومة من بعض الشراح اليهود والمسيحيين . ولهؤلاء بالذات ، ميل طبيعي للتصغير من اهميتها ، لان من الطبيعي في رايهم ، ان يقدم الكاتب الديني الوقائع التاريخية ، بحيث تكون متفقة واللاهوت ، وهم يكتبون التاريخ اذن وفق مقتضيات القضية . وسنرى فيما بعد ، عندما نتحدث عن انجيل متى ، هذه التصرفات المتحررة مع الحقيقة ، والتعليقات نفسها ، هادفة الى ان تجعل صحيحا ما هو باطل . ولا يمكن ان يرضى عن هذه الطريقة في التصرف اي فكر منطقي مجرد .

ولذلك فانه يمكننا من زاوية المنطق استخراج عدد مهم من التناقضات والمستحيلات من التوراة . ووجود المصادر المختلفة التي ساهمت في صنع الخبر ، يمكن ان يكون في اصل الرواية للواقعة الواحدة في صورتين . ولكن يوجد زيادة على ذلك ، التحريفات المختلفة ، والزيادات الملحقة بالنص نفسه ! كالشروح المضافة فيما بعد ، ثم المدرجة ايضا في الرواية بمناسبة اصدار نسخة جديدة . كل هذا معروف جيدا من الاختصاصيين في نقد النص ، ومشار اليه من بعضهم بأمانة . وقد فصل الاب « دوفو » في المدخل على ترجمته لسفر التكوين ،بالنسبة للاسفار الخمسة فقط ، (صفحة ١٣،١٤) الحديث عن عدد ضخم من التناقضات التي لا خير في ايرادها هنا ، لانه سياتي الحديث عنها . ولكننا نستخلص منها فكرتها العامة بانه لا ينبغي تناول النص حرفيا .

وهاك مثلا بارزا :

يعزم الله كما في سفر التكوين ، قبل الطوفان تماما ، بأن يحدد منذ ذلك الزمن عمر الانسان حتى ١٢٠ سنة « عمره لن يكون الا مئة وعشرين سنة » كما هو مكتوب . ثم يرد بعد ذلك في سفر التكوين ايضا (١١ — ١٠

ـــ ٣٢) طول عمر الواحـــد من العشرة المنحــدرين من نـــوح يتراوح بين (٤٠٠ ـــ ٦٠٠) انظر اللائحة التي صورت فيها في هذا الفصل (ذرية نوح حتى ابراهيم) . وتفسير هذا التناقض الجلي بين هذين النصين بسيط ، لان النص الاول من سفر التكوين (٦،٣) نص يهوي يعود دونما شك كما سبق ورأينا الى القرن العاشر قبل المسيح ، بينما النص الثاني من سفر التكوين (١١،١٠ ـــ ٣٢) نص اكثر حداثة (القرن السادس قبل المسيح) هو مـــن الرواية الكهنوتية التي هي اصل هذه الانساب التي هي الي الدقة عند السرد لمدد الاعمار بمثل ما هي عليه من الاستحالة عندما ناخذها جملة واحدة .

ففي سفر التكوين تناقضات صريحة مع العلم المعاصر ، وهي تقع في ثلاث نقـــاط اساسيـــة .

ا ـــ خلق العالـــم ومراحلـــه

ب ـــ تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الانسان على الارض .

ج ـــ روايـــة الطوفـــان .

خلـــق العالـــم

ان سفر التكوين كما نبه الاب دوفو « يبدأ بروايتين متقاربتين عن الخلق » وينبغي اذا شئنا اختبار مطابقتهما للمعطيات العلمية اختبار كـــل واحدة منهمـــا على حدة .

الروايـــة الاولى للخلـــق :

تشغل الرواية الاولى الفصل الاول والآيات الاولى من الفصل الثاني : انها صرح من الاخطـــاء من وجهة النظر العلمية.. ولذلك فانه ينبغـــي مواجهة نقدها مقطعا بعد مقطع . مع العلم بـــأن النص المسوق هنا هو من ترجمة المدرسة التوراتية في القدس .

الفصـــل الاول آية ١ ـــ ٢ .

« في البدء خلق الله السموات والارض . وكانت الارض خربة وخالية . وعلى وجه الغمر ظلام وروح (١) الله يرف على وجه المياه » .

يمكننا الاعتقاد بانه في المرحلة التي لم تكن فيها الارض بعد قد خلقت كان ، ما سيصبح كونـــا ، مغمورا بالظلمات . وذكر وجود الميـــاه في هذه المرحلة هو رمز خالص ، وبسيط ، ولعله ترجمة أسطورة وثنية (٢) . بيد

---

(١) يرفض الاسلام مثل هذا التعبير (المترجم) .

(٢) يرد هذا القول قوله تعالى في سورة هود آية ٧ : « ... وكان عرشه على الماء .. » . (المترجم) .

اننا سنرى في الجزء الثالث من هذا الكتاب ، ان كل شيء يسمح بالتفكير بانه كان يوجد في المرحلة البدائية لتكوين العالم ، طبقة غازية ، وان من الخطا وضع الماء مكانها .

الآيات : ٣ — ٥

« وقال الله ليكن نور فكان نور . وراى الله النور انه حسن . وفصل الله بين النور والظلام . وسمى الله النور نهارا والظلام سماه ليلا. وكان مساء وكان صباح يوم واحد » .

ان النور الذي يملأ الكون هو نتيجة التفاعلات المركبة التي تجري على سطح النجوم التي سنعود اليها في الجزء الثالث من هذا الكتاب . اذن في هذه المرحلة من الخلق ، لم تكن النجوم قد كونت بعد ، حسب افادة التوراة، لان « الاجرام المضيئة » في الفلك لم تذكر في سفر التكوين الا في الاية ١٤ كمخلوق في اليوم الرابع « لفصل النهار عن الليل » « لانارة الارض » وهو دقيق جدا . غير انه من غير المنطقي ذكر الاثر الحاصل « النور » في اليوم الاول ، في الوقت الذي جعل فيه خلق السبب الفاعل لهذا النور « الاجرام المضيئة » بعد ثلاثة ايام . وفوق ذلك جعل وجود المساء والصباح في اليوم الاول هو امر رمزي خالص فالمساء والصباح كعناصر لليوم غير قابلي الادراك الا بعد وجود الارض ودورانها تحت اضاءة نجمها الخاص الشمس .

الآيات ٦ — ٨

« وقال الله ليكن جلد في وسط المياه . وليكن فاصلا بين مياه ومياه . فصنع الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد فكان كذلك . وسمى الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح يوم ثان » .

واسطورة المياه تتتابع هنا مع فصلها الى طبقتين بواسطة جلد يسمح بتسرب المياه كما هي رواية الطوفان من فوق الجلد لتنصب على الارض . ان هذه الصورة لانشطار المياه الى كتلتين غير مقبولة عمليا .

الايات ٩ — ١٣

« وقال الله لتجتمع المياه التي تحت السماء الى موضع واحد ، وليظهر اليبس فكان كذلك . وسمى الله اليبس ارضا ومجتمع المياه بحارا وراى الله ذلك انه حسن » .

وقال الله « لتنبت الارض نباتا عشبا يبزر بزرا وشجرا مثمرا يخرج ثمرا بحسب صنفه بزره فيه على الارض فكان كذلك . فاخرجت الارض نباتا عشبا يبزر بزرا بحسب صنفه ، وشجرا يخرج ثمرا بزره فيه بحسب صنفه وراى الله ذلك انه حسن . . وكان مساء وكان صباح يوم ثالث » .

وكون الارض في عصر ما من تاريخها مغمورة بالماء ، ثم ظهور اليبس منها ، مقبول تماما علميا . . بيد أن ظهور وجود نباتي شديد التنظيم ، مع

تكون من الحب قبل وجود الشمس « وهكذا سيكون كما يقول سفر التكوين في اليوم الرابع » وكذلك تحقق تعاقب النهار مع الليل فشـــيء ليس له اساســ .

الايـــات من ١٤ — ١٩

« وقال الله لتكن نيرات في جلد السماء لتفصل بين النهار والليـل وتكون لآيات واوقات وايام وسنين ، وتكون نيرات في جلد السماء لتضيء على الارض . فكـــان كذلـــك . وضع الله النـــيرين العظيمين ، النـــير الاكبر لحكم النهار . والنير الاصغر لحكم الليـــل والكواكب . وجعلها الله في جلد السماء لتضيء على الارض ، ولتحكم على النهار والليل ، وتفصل بين النور والظلام . وراى اللـــه ذلك انه حسن . وكان مساء وكان صباح يـــوم رابع » . .

ان وصف الكاتـــب التوراتي مقبول هنا . والنقد الوحيد الذي يمكن توجيهه الى هذا المقطع هو تحديد المكان الذي يشغله في مجموع الرواية . فالارض والقمر قد انفتقا — وهذا معروف — من نجمهما الام الا وهـــو الشمس . فوضع خلق الشمس والقمر بعد خلق الارض هو في غايـــة المناقضة لاوثق المفاهيم المعتمدة في تكوين عناصر المجموعة الشمسية .

الايـــات ٢٠ — ٣٠

« قال الله لتفض المياه زحافات ذات انفس حية وطيورا تطير فوق الارض على وجه جلد السماء . فخلق اللـــه الحيتان العظام وكل داب من كل ذي نفس حية فاضت به المياه بحسب اصنافه . وكل طائر ذي جناح بحسب اصنافه . وراى الله ذلـــك انه حسن وباركها الله قائلا : انمـــي واكثري واملئي المياه في البحار . وليكثر الطير على الارض . وكان مســـاء وكان صباح يوم خامس » .

يحوى هذا المقطع مزاعم غير مقبولة ، لان ظهـــور النوع الحيواني بدا كما يقول سفر التكوين اولا من الحيوانات البحرية والطيور . ولكن روايـــة التوراة تفيدنـــا بان الارض ستكون في اليوم التالي . وسنراه في الايـــات التالية — مقر الحيوانـــات .

لا شك ان اصل الحياة بحري ، وسنواجه المسالة في الجزء الثالث من الكتاب ومن هنا اصبحت الارض مستعمـــرة — اذا جاز التعبير — للحيوان ومن هذه الحيوانـــات الحية على وجه الارض صنف خـــاص من الزواحف تسمى Pscudosuchiens كانت تعيش في العصر الثاني الذي ظهرت فيه — كما يفكر البعض — الطيور . ويجيز هـــذا الاستنتاج ، الخصائص الحيوانية المشتركة الكثيرة بين هذين الصنفين . والحيوانات الارضية لـــم تذكر في سفر التكوين الا في اليوم السادس بعـــد ظهور

الطيور . وهذا النظام لظهور الحيوانات الارضية والطيور ليس مقبولا .

الايـــات ٢٤ — ٣١ .

« وقال الله لتخرج الارض ذوات انفس حية بحسب اصنافها بهائم ودبابات ووحوش ارض بحسب اصنافها فكان كذلك ، فصنع الله وحوش الارض بحسب اصنافها والبهائم بحسب اصنافها وكل دبابات الارضـــ بحسب اصنافها . وراى الله ذلك انه حسن » « وقال الله لنصنع الانسان على صورتنا كمثالنا وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائـــم وجميع الارض وكل الدبابات الدابة على الارض . فخلق الله الانسان على صورتـــه . على صورة الله خلقه (٣) ذكرا وانثى خلقهم . وباركهم اللـــه وقال لهم انموا واكثروا واملأوا الارض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وطير السماء وجميع الحيوان الداب على الارض ، وقال الله ها قد اعطيتكم كل عشب يبزر بزرا على وجه الارض كلها وكل شجر فيه ثمـــر يبزر بزرا يكون لكم طعامـــا . ولجميع وحش الارض وجميع طير السماء وجميع ما يدب على الارض مما فيه نفس حية جميع بقول العشب جعلتها ماكلا . فكان كذلك . وراى الله جميع ما صنعه فاذا هو حسن جدا . وكان مساء وكان صباح يوم سادس .

هذا وصف لانهاء الخلق الذي عدد فيه الكاتب كل الخلائق الحية غير المذكورة سابقا ، وعرض للمواد المختلفة التي سخرت للناس والحيوانات .

والخطأ — وقد سبق ورأيناه — وهو بذكر ظهور الحيوانات الارضية بعد الطيور . بيد أن ظهور الانسان على الارض بعد ظهور اصناف اخرى من الكائنات الحية كان في موضعه الصحيح . ورواية الخلق تنتهي بالايات الثلاث الاولى من الفصل الثانـــي .

« فاكملت السموات والارض وجميع جيشها . وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل وبـــارك الله اليوم السابع وقدسه ، لانـــه فيه استراح من جميع عمله الذي خلقه اللـــه ليصنعه هذه مبادىء السموات والارض اذ خلقت يوم صنع الرب الالـــه الارض والسموات » .

هذه الرواية لليوم السابع تتطلب توضيحات .

اولا : في معنى الكلمـــات . فالنص هو لتـــرجمة مدرســـة القـــدس للتوراة . و « جيش » تعني هنا كثرة الكائنات المخلوقة على الارجح . بينما عبارة « **استراح** » فهي من طريقة مدير مدرسة القدس للتوراة في ترجمـــة الكلمة العبرية Chabbat التي تعني بدقة « **استراح** » وهو المصـــدر لنقل نهار الراحة اليهودي الى الفرنسية لكلمة Sabbat اي السبت .

---

(٣) هذا يخالف ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى : « ليس كمثله شيء .. » ويخالف ما عليه جمهور المسلمين قديما وحديثا .

وانه لمن الجلي ان « الاستراحة » (٤) التي اخذها الله بعد عمل دام ستة ايام هي اسطورة . ولكن لها تفسيرها . ولا يجوز أن ننسى بأن رواية الخلق المدروسة هنا هي من الرواية المسماة كهنوتية المكتوبة من الاحبار ، والكتاب الذين هم الورثة الروحيون لحزقيل نبي المنفى في بابل في القرن السادس قبل المسيح . والمعروف ان هؤلاء الاحبار راجعوا الايات اليهوية والالهية ثم عدلوها على هواهم حسب اهتماماتهم الخاصة التي كتب عنها الاب « دوفو » بأن سمتها « الشرعية » اساسية ولقد أوضحنا ذلك سابقا .

ولما كان النص اليهوي للخلق الذي يسبق قرونا عدة النص الكهنوتي : لا يتعرض بأي ذكر لراحة الله المتعب من عمله طوال اسبوع ، فقد ادخلها الكاتب الكهنوتي في روايته ، وقسم هذا الاسبوع الى ايام بالمعنى الدقيق لها ، ومحورها على هذه الراحة السبتية ، التي كان ينبغي احترامها في نظر المؤمنين للفت النظر الى ان الله كان اول من عمل بها . وانطلاقا من هذه الضرورة العملية ، كانت رواية الخلق مسوقة بمظهر منطقي ديني بارز ، ولكن بطريقة ، تسمح لمعطيات العلم بوصفها بأنها مسوقة حسب الهوى .

هذا الانجاز : في اطار اسبوع ، لمراحل متلاحقة للخلق الذي يقصد به الكاتب الكهنوتي استثارة الممارسة الدينية ، غير مقبول من وجهة النظر العلمية .

واننا لنعلم تماما . في ايامنا . بأن تكوين العالم والارض ، الذي سنتكلم عنه فيما بعد في الجزء الثالث من هذا الكتاب ، بمناسبة ذكر معطيات القرآن المتعلقة بالخلق ، قد انجز في مراحل ممتدة في عهود زمنية متطاولة جدا ، لا تسمح المعطيات المعاصرة بتحديد مداها حتى التقريبي . بل ولو انتهت الرواية في مساء اليوم السادس . . . ولم تذكر اليوم السابع يوم

---

(٤) ليس لهذا المفهوم اصل في الاسلام . فلم يذكر القرآن ولا الحديث شيئا منه . والراحة في الاساس هي لمن يصيبه التعب ويلم به العجز والله تعالى منزه عن هذا كله . ولا يجوز نسبة هذا المفهوم اليه حتى ولا مجازا لما قد يترتب عليه من معنى يسيء الى كماله . وقد اوضح علماؤنا مفهوم الايام الستة في الخلق على انه لتعليم الناس التدرج في عملهم مع الايمان المطلق بان امر الله اذا اراد شيئا قال له كن فيكون . وان عدد الايام ليس بالمعنى الذي نعطيه لهما في حاضرنا الزماني بل هو للتشبيه والتمثيل لتقريب المعنى الى فكرنا . والحقيقة ان المراد من ذلك المراحل الزمنية وهو ما يتفق مع المعنى المشار اليه سابقا بدليل الايات الواردة في القرآن والمفيدة بان اليوم في نظر الله مختلف المقدار فهو الف سنة او خمسون الفا وغير ذلك مما نعد : (المترجم) .

السبت الذي استراح فيه الله ، (٥) بل حتى ولو كان كما هو الحال بالنسبة للرواية القرآنية ، قد سمح بالاعتبار بأن المراد في الواقع ، فترات غير محددة ، لا ايام بمعناها الحرفي ، فان ذلك كله لا ينقص من ضرورة رفض الرواية الكهنوتية ، لان تتابع هذه الاحداث هو في تناقض صريح مع القيم العلمية الاولية .

وهكذا تبدو الرواية الكهنوتية للخلق ، وكانها البناء الخيالي الحاذق ، هدفه شيء اخر غير التعريف بالحقيقة .

الرواية الثانية :

والرواية الثانية للخلق الموجودة في سفر التكوين ، التي هي بمثابة التكملة للرواية السابقة من دون تعليق لا توحي بالانتقادات نفسها .

ولنذكر ، بان هذه الرواية هي من تاريخ اقدم بثلاثة قرون تقريبا . وهي مسافة زمنية قصيرة جدا . انها اكثر امتدادا على خلق الانسان وجنة الارض ، من امتدادها على خلق الارض والسماء التي نذكرها باختصار شديد : « في الوقت الذي صنع يهواه الاله الارض والسماء ، لم تكن بعد نبتت شجرة حقل على الارض ، ولا عشبة حقل ، لان يهوه الاله لم ينزل المطر عليها ولم يكن فيها الانسان ليفلحها . وفجاة ظهرت موجة ماء من الارض نسقت كل سطحها ، وجبل يهوه الانسان من طينها ، ونفخ في منخريه نفسا من الحياة . وكان الانسان » .

هذه هي الرواية اليهويه التي بين ايدينا من نصوص التوراة التي الحقت بها فيما بعد الرواية الكهنوتية . فهل كانت على مثل هذا القصر اول الامر ؟! لا احد يستطيع ان يعرف ما اذا كان النص اليهودي قد بتر على مر الزمن ، او يقول ما اذا كانت السطور القليلة التي بين ايدينا ، تمثل منها كل ما كان يحويه نص التوراة الاقدم عن الخلق .

ان هذه الرواية اليهوية لا تذكر تكون الارض بالمعنى الدقيق ، ولا تكون السماء . بل قد تركت المجال للتفكير بانه في اللحظة التي خلق الله فيها الانسان ، لم يكن نبات ارضي (اذ لم تكن السماء قد أمطرت بعد) مع ان المياه الخارجة من الارض كانت قد غمرت كل سطح البر . وبقية النص تثبت ذلك :

---

(٥) جل الله وتعالى عن ذلك (المترجم) .

« زرع الله بستانا في الوقت الذي خلق فيه الانسان » .

وهكذا كان ظهور النبات في الوقت ذاته الذي ظهر فيه الانسان على الارض . وهو ما ليس بصحيح علميا ، فقد ظهر الانسان على الارض بعد وقت طويل جدا من حملها النبات . مع العلم بأننا لا نعرف كم من مئـــات الملايين من السنين كانت قد مضت بين ظهور الحدثين .

هذا هو النقد الوحيد الذي يمكننا توجيهه الى النص اليهوي . لقد استطاع حين لم يحدد زمنيا ، وقت خلق الانسان بالنسبة الى تكوين العالم والارض ، بينما يجعله النص الكهنـوتي في الاسبـوع نفسه ، يفلت مـن نقد شديد موجه الى هذا الاخير .

تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الانسان على الارض

يحدد التقويم العبري المنسجم مع معطيات العهد القديم هذين التاريخين بدقـــة . ويطابق الجزء الثاني من سنة ١٩٧٥ بداية سنة ٥٧٣٦ من خلـــق العالم ، وهكذا فان الانسان الذي تاخر خلقه عن العالم ببضعة ايام يملـــك القدم ذاتـــه المرقوم بالسنين من قبل التقويـــم اليهردي .

ولا ريب في انـــه يطلب تصحيح حسابـــات الزمن التي تحـــددت اصلا بسنوات قمرية في الوقت الذي كان فيه التقويم الغربي مرتكزا على السنوات الشمسية . ولكن التصحيح المطلوب اجراؤه اذا ما اردنا ان نكون في غاية الدقة ، والذي هو ٣ بالمئة ليس ذا اهمية . بل من الافضل كي لا نعقـــد الحسابات ، الامساك عنه ، خصوصا وان الذي يعتد به هنا ، هو المقياس التقريبي . ولا يهم اذا كان عدد ملايين السنين محسوبا بحساب تقـــديري يخطىء في ثلاثين سنة . ولنقل ، حتى نكون اشد قربـــا من الحقيقة ، اننا نحدد وضع خلق العالم في هذا التقدير العبري بنحو سبعة وثلاثين قرنا تقريبا قبل المسيح .

فماذا يعلمنا العلم الحديث ؟! انه لمن الصعوبة بمكان الاجابة عمـــا يتعلق بتكوين العالم . وكل ما يمكننا تحديده هو عصر تكوين النظـــــــام الشمسي القابل بأن يوضع في الزمن بصورة تقريبية مقنعة . والمقدر أن الزمن الذي يفصلنا عنه هو اربعة مليارات ونصف من السنين . وهكـــذا نقيس اذن الخط الذي يفصل الحقيقة المؤكدة اليوم (والتي سنتوسع فيها في الجزء الثالث من هذا الكتاب) . عن المعطيات المستخلصة من العهد القديم ، والتي تنطلق من الاختبار الدقيق للتوراة . وقد جمع سفر التكوين معلومات دقيقـــة جدا عن الزمن الممتد ما بين آدم وابراهيم . ولكـــــن المعلومات المستخلصة عن الفترة الممتدة ما بين ابراهيم والعصر المسيحي غير كافية ، وينبغـــي اكمالها بمصادر اخرى .

١ ـ من آدم حتى ابراهيم

يقدم سفر التكوين في انسابه من الفصل (٤،٥،١١،٢١،٢٥) معطيات دقيقة جدا عن كل اجداد ابراهيم في خط مستقيم حتى آدم ، مقدما عمر كل واحد ، عمر الاب عند ولادة الابن . وتسمح بيسر بتأكيد تواريخ ولادة ووفاة كل جد بالنسبة الى خلق آدم كما هو مبين في اللائحة التالية :

نسب ابراهيم			
الاسم	تاريخ الولادة بعد تاريخ آدم	مدة الحياة	تاريخ الوفاة بعد خلق آدم
ادم		٩٣٠	٩٣٠
شيت	١٣٠	٩١٢	١٠٤٢
انوش	٢٣٥	٩٠٥	١١٤٠
قنين	٣٢٥	٩١٠	١٢٣٥
مهلاييل	٣٩٥	٨٩٥	١٢٩٠
يرد	٤٦٠	٩٦٢	١٤٢٢
خنوخ	٦٢٢	٣٦٥	٩٧٨
متوشلح	٦٨٧	٩٦٩	١٦٥٦
لامك	٨٧٤	٧٧٧	١٦٥١
نوح	١٠٥٦	٩٥٠	٢٠٠٦
سام	١٥٥٦	٦٠٠	٢١٥٦
ارفخشد	١٦٥٨	٤٣٨	٢٠٩٦
شالح	١٦٩٣	٤٣٣	٢١٢٢
عابر	١٧٢٣	٤٦٤	٢١٨٧
فالغ	١٧٥٧	٢٣٩	١٩٩٦
راعو	١٧٨٧	٢٣٩	٢٠٢٦
شاروغ	١٨١٩	٢٣٠	٢٠٤٩
ناحور	١٨٤٩	١٤٨	١٩٩٧
تسارخ	١٨٧٨	٢٠٥	٢٠٨٣
ابراهيم	١٩٤٨	١٧٥	٢١٢٣

وقد وضعت هذه اللائحة (٦) حسب المعطيات الصادرة كلها عن النص الكهنوتي من سفر التكوين . وهو النص الوحيد الذي يعطي تدقيقات

(٦) ينبغي الانتباه الى ان هذا التحقيق الزمني لا اصل له بالنسبة الى المعتقد الاسلامي اللهم الا فيما يتعلق بسيدنا نوح فقد ثبت بالقرآن انه لبث في قومه الف سنة الا خمسين عاما . (المترجم) .

من هذا النوع . ونستخلص منه ان مولد ابراهيم هو حسب التوراة بعد آدم بـ ١٩٤٨ سنة .

من ابراهيم حتى العصر المسيحي

لا تقدم التوراة لهذه الفترة اي خبر مرقوم ، قابل لان يؤدي الى تقويم دقيق مثل الذي قدمه سفر التكوين عن أسلاف ابراهيم . ولتقدير الزمن الذي يفصل ابراهيم عن المسيح ، ينبغي الرجوع الى منابع اخرى ويوضع عصر ابراهيم حاليا ، قبل المسيح بثمانية عشر قرنا تقريبا مع التساهل في بعض الخطأ . ولو حسب هذا التقدير على اساس تعليمات سفر التكوين ، عن الزمن الذي يفصل ابراهيم عن آدم ، لكان ثمانية وثلاثين قرنا قبل المسيح ، وهو خطأ دونما جدال ، آت من الخطأ الوارد في التوراة عن دوام الفترة بين آدم وابراهيم ، التي يعتمد عليها التقليد اليهودي لتثبيت تقويمه . ويمكن اليوم، مجابهة المدافعين التقليديين عن الحقيقة التوراتية ، بتناقضها مع المعطيات العصرية لهذه التقديرات المبنية على هوى الاحبار اليهود في القرن السادس قبل المسيح . هذه التقديرات التي اتخذت اساسا خلال قرون طويلة لموقع الاحداث الزمني القديم بالنسبة الى المسيح .

لقد طبع قبل العصر الحديث، العديد من نسخ التوراة التي قدمت الى القراء ، مع مقدمات توضيحية لتواريخ الاحداث التي تسلسلت منذ خلق العالم حتى العصر الذي طبعت فيه ، فكانت الارقام تختلف قليلا تبعا للعصور . فالترجمة اللاتينية لعام ١٦٢١ مثلا ، تقدم امثال هذه التعليمات ، واضعة ابراهيم قبل بقليل ، وواضعة الخلق في القرن الاربعين قبل المسيح تقريبا . وتوراة والتون المتعددة اللغات ، والمطبوعة في القرن الثامن عشر ، تقدم للقارىء زيادة عن نصوص التوراة في لغات عدة ، لوائح مماثلة لما هو مثبت هنا لاسلاف ابراهيم . وكل التقديرات تكاد تتفق مع كل الأرقام المقدمة هنا . وعندما اطل العصر الحديث لم يعد بمقدور الناشرين التمسك بمثل هذه التاريخات الخاضعة للهوى ، من دون التصادم مع الاكتشافات العلمية ، التي تضع الخلق في عصر سابق كثيرا . ولذلك فقد اكتفوا بحذف مثل هذه اللوائح والمقدمات ، وامتنعوا عن لفت نظر القارىء الى تقادم نصوص التوراة التي اعتمد عليها قديما في كتابة مثل هذه التاريخات ، وانه ليس في الاستطاعة اعتبارها معبرة عن الحقيقة .

لقد فضلوا سترها بأسلوب حكيم ، والبحث عن صيغ ذات منطق عليم لتسيغ قبول النص كما كان من قبل دون اي حذف . وهكذا بقيت الانساب الواردة في نص التوراة الكهنوتي في وضعها المكرم ، مع العلم بانه لم يعد بالامكان عقليا في القرن العشرين تقدير الزمن استنادا لمثل هذا الوهم.

هذا وان معطيات العلم الحـديث ، لا تسمح فيما يتعلق بتاريخ ظهور الانسان على الارض بتحديده الا بعد حد ما . ويمكن الاقتناع بـأن الانسان وجد على الارض مع كفايته الذهنية والعملية التي تميزه على الكائنات الحية المشابهة له بعد تاريخ يمكن تقديره . ولكن احدا لا يملك ان يحدد تاريخ ظهوره بدقة . ويمكن التاكيد بأنه وجدت في هذه الايام اثار انسانية مفكـرة فاعلة بحسب قدمها في وحدات زمنية ، توام كل منها عشرات الالاف مـن السنيـن .

هذا التاريخ التقريبي ينسب الى الكائن البشري من النوع الذي يرجع الى مـا قبل التاريخ المكتشف ، على انه الاحدث من النوع الانتروبي الحديث انسان مانيون) . ولا ريب ان غيره من بقايا المكتشفات الانسانيـة ، التى رات النور ، قـد عثر عليها في اماكن مختلفة من الارض تتعلق بنماذج اقل تطورا مما قبل الانتروبية التي يمكن ان يكـون نسق قدمها البعيد عائدا الى مئات الالاف من السنين . ولكن هل هم بشر حقيقيون ؟!

مهما يكن ، فـان المعطيات العلمية كافية ودقيقة فيما يخص الانتروبية الجديدة ، فتضعها بعيدة جدا عن العصر الذي يضع فيه سفر التكوين الانسان الاول . فهنـاك اذن تناقض واضح بين مـا يمكن استنتاجه من المعطيات الرقمية من سفر التكوين فيما يتعلق بتاريخ ظهـور الانسان على الارض ، والمعارف العلمية الاكثر ثبوتـا في هذا الزمان . .

الطّوفَــان

خصصت الفصول ٦، ٧، ٨ من سفر التكوين لرواية الطوفان . وبصورة ادق ، هناك روايتان غير موضوعتين الواحدة الى جانب الاخرى ، بل البعض الاخر في تلاحم ظاهري خلال تتابع مختلف المراحل . والحق انها مفرقة في مقاطع متداخل بعضها وفي هذه الفصول الثلاثة تناقضات جلية يمكن تفسيرها بانها ناتجة عن وجود مصدرين متمايزين :

المصدر اليهوي ، والمصدر الكهنوتي ، وقد راينا سابقا انهما يشكلان خليطا متناثرا . فكل نص اصلي قــد قطع الى فقرات او الى جمل . وعناصر احد المصدرين تتوالى مع عناصر المصدر الاخر ، حتى ان المرء ليضطر خــلال مئة سطر تقريبا من النص الفرنسي ، الى الانتقال في الرواية من مصدر الــى آخر سبع عشرة مرة . والرواية في مجملها هي ما يلي :

لمــا كان فساد الناس قــد عم ، فقد عزم الله على افنائهم مع جميع الخلائق الاخرى . . فاخبر نوحــا وأمره بأن يصنع فلكــا ، وأن يحمل فيه زوجته واولاده الثلاثة مع زوجــاتهم الثلاث وغيرهم من المخلوقــات الحية الاخرى . والمصدران يختلفان بالنسبة الى هذه الاخيرات . فبينما يشير في مقطع من الرواية (هو من اصل كهنوتي) ان نوحا قــد اخذ معه زوجا من كل نوع ، يثبت في مقطع آخر (من اصل يهوي) ان الله أمره بــأن يحمل معه من الحيوانــات الطاهرة فقط سبعة من كل نوع ذكرا وانثى ، ومن الحيوانات النجسة زوجا واحدا . ولكن بعــد ذلك بقليل يثبت أن نوحا لم يدخل معه في الفلك الا زوجا واحدا من كل واحــد من الحيوانات . والاختصاصيون مثل الاب « دوفو » ، يؤكدون بأن المعنى هو مقطع من الرواية اليهودية المحرفة (٧) .

ثم ان فقرة (من مصدر يهوي) تذكر ان عامل الطوفان كان ماء المطر . ولكن فقرة اخرى (من أصل كهنوتي) تظهــر ان سببه ماء المطــر وينابيع الارض معــا .

---

(٧) انا كمسلمين نعتقد بما ورد في القرآن ولا نزيد وهو قوله تعالى : « قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون » واما هذه الاخبار فيمكن الاستفادة منها استئناسا لا على انها حقائق (المترجم) .

وقد غمرت المياه الارض كلها حتى أصابت ذرى الجبال ، وانعدمت بها كل حياة . وبعد آن غيض المـــاء خرج نوح بعـــد سنة من فلكه التي استوت على جبل أرارات .

ولنضف هنا ايضا ان الطوفـــان ، بحسب المصادر ، كان ذا مـــدة مختلفة . هي اربعون يوما حتى غاض الماء حسب الرواية اليهوية ، ومئة وخمسون يوما حسب الرواية الكهنوتية .

هذا وان الرواية اليهوية ، لا تحدد الوقت الذي جرى فيه هذا الحادث في حياة نوح . ولكن الرواية الكهنوتية تذكر بانه وقع ، ولنوح مـــن العمر ستمئة سنة . وهذه الرواية بالذات توحي ببعض الملاحظات على اقلمتها في انسابها بالنسبة الى آدم وابراهيم . فلما كان نوح قـــد ولد حسب الحسابات المجراة في افادات سفر التكـــوين بعـــد ١٠٥٦ سنة مـــن آدم (انظر لائحة اجداد ابراهيم) فيكون الطوفان قـــد حصل بعد ١٦٥٦ سنة من خلق آدم . هذا وان سفر التكوين يذكر بأن الطوفان قد حصل قبل ٢٩٢ سنة مـــن ولادة ابراهيم .

هذا وقد اصاب الطوفان حسبما هو وارد في سفر التكوين ، كل النوع البشري ، واعـــدم جميع الكائنات الحية التي خلقها الله على الارض . ثـــم اعيد بناء الانسانية انحدارا من ابناء نوح الثلاثة ونسائهم ، بحيث انه لمـــا ولد ابراهيم بعد ثلاثة قرون تقريبا وجد الانسانية وقد تشكلت في مجتمعات . فكيف امكن في قليل من الزمـــن حصول هذا التجدد للبـــناء الانساني ؟! هذه الملاحظة البسيطة تنزع عن هذه الرواية كل سمة من سمات الحق .

وبالاضافة الى ما سبق ، فان المعطيات التاريخية تبرهن على تناقضها مع المعارف الحديثة . فهي تضع ابراهيم فيما بين سنة ١٨٠٠ و ١٨٥٠ قبل المسيح . واذا كان الطوفان كما يوحي به سفر التكوين في انسابه ، يقع قبل ثلاثة قرون تقريبا من ابراهيم ، فينبغي ان يقع في القرن الواحد والعشرين او الثاني والعشرين قبل المسيح . وهذا الزمن (الذي تسمح المعارف العلمية بتاكيده) ازدهرت فيه في عديد من المناطق على الارض مدنيات انتقلت آثارها الى الاجيال اللاحقة .

وللتمثيل على ذلك نسوق الفترة التي سبقت المملكة الوسطى (٢١٠٠ قبل المسيح) تقريبا في مصر . وهي تاريـــخ المـــرحلة الاولى المتوسطة قبل الاسرة الحادية عشـرة ، بينما كانت في بابل الاسرة الثالثة لأور . ونحن نعرف تماما بأنه لم يكن ثمة من انقطاع في هذه المدنيات ، وبالتالي ليس من فناء عام اصاب الانسانية جمعاء كما ارادته التوراة .

وعلى هذا فانه لا يمكن اعتبار الروايـــات الثلاث للتوراة كما لو كانت حاملة للناس سردا للوقائع مطابقا للحقيقة ، لاننا لا يسـعنا اذا كنا موضوعيين الا التقرير بـــأن النصوص التي هي موضع الحديث ، والتي وصلت الينا لا

تعبر عن الحقيقة . وهل يمكن ان يكـــون الله قد أوصى بشيء غير الحقيقة ؟! انه لا يمكننا تصور أنه يعلم الناس بواسطة الاوهام ، بل الاوهام المتناقضة فوق ذلك !! الامر الذي ينتهي بنا الى الوصول بصورة طبيعية الى اشــارة افتراض تشويه حصل بواسطة الناس ، او تقاليد نقلت حرفيا من جيل الــى جيل ، او نصوص بعد تثبيت هذه التقاليد .

وعندما نعلم ان مؤلفا مثل سفر التكوين قد حرف مرتين على الاقل في مدى ثلاثة قرون ، فكيف ندهش بــأن نجد فيه مستحيلات او روايـــات غير متفقة مع حقيقة الاشياء منذ أن امكن ان يسمح تقــدم المعارف الانسانية بأن نحصل على الاقل ، اذا لــم نعرف كل شيء ، من خــلال بعض الاحــداث على معرفة كافيةلنقدر على الحكم بدرجة ما عليه الروايات القديمة المختصـــة بهـــا من التوافق معها .

وماذا ثمة اكثر منطقا من ان نبقي على هذا التفسير لاخطاء النصوص التوراتية التي لا تقحم الا الانســان . انه لمن المؤسف الا يتبناه اغلبية المفسرين يهـــودا كانـــوا أو مسيحيين . وعلى كل فـــان الادلة المسوقة جديرة بـــأن تستوقف الانتباه .

موقف المسيحيين من الاخطاء العلمية لنصوص التوراة ومناقشتها

انا لندهش من اختلاف ردات الفعل لـــدى الشراح المسيحيين امـــام كثافة الاخطاء والاستحالات والتناقضات . فقد تبنى بعضهم عددا منها ، ولم يترددوا في مؤلفاتهم في الدخول في مسائل شائكة . وانزلق آخرون بخفة في تأكيدات مرفوضة ، وتعلقوا بالدفاع عن النص كلمة كلمة ، وحاولوا اقناع مخالفيهم بتصريحات تبريرية معززة بحجج غير منتظرة غالبا ، آملين في أن يحملوا الناس على نسيان مـــا يرفضه المنطق .

ويتبنى الاب « دوفو » في المدخل الى ترجمته لسفر التكوين وجود هذه الانتقادات ، ويتوسع في الحديث عـــن صحتها ، ولكنه يرى عـــدم جدوى تصحيح احداث الماضي موضوعيا ، عندما تورد التوراة كما كتب في مذكراته « ان ذكـــرى فيضان او فيضانـــات عدة جائحة في وادي دجلة والفـــرات ضخمتها الرواية حتى جعلتها بحجم الطوفان العالمي » « والكاتب الديني فقط، وهذا هو المهم ، قـــد حمل هذه الذكرى تعليما خالدا عن عدالة ورحمة الله ، وعن خبث الانســان والخلاص الممنوح لمن هو مستقيم » .

وهكذا يبرر تحويل اسطورة شعبية الى حـــدث في المعراج الالهي (مع نية عرضه على ايمان الناس) منذ اللحظة التي يستخدمها كاتب ما ليستعين بها في نشر تعليم ديني . ومثل هذا الموقف التبريري يحقق كل الافراط البشري

في صناعة الكتب التي يدعي انها مقدسة وانها تتضمن كلام الله . وتبنــي مثل هذه التدخلات البشرية في مــا هو الهي ، يعني اخفاء كل المعالجــات البشرية لنصوص توراتية . فلو كان هناك لاهوتي لاصبحت كل التدخلات مشروعة . وهكذا تسوغ افعال الكتاب الكهنوتيين في القرن السادس قبل الميــلاد ذوي الاهتمامات الحــرفية التي تمخضت عن الروايــات المعروفة والمشوبة بالهــوى .

وان عددا مهما من الشراح المسيحيين ، استحسنوا تأويل اخطــاء وتناقضات ومستحيلات الروايــات التوراتية مقدمين العذر الذي برر للكتاب التوراتيين بأن يتخذوا لانفسهم صفة العوامل الاجتماعية لثقافة او فكــر مختلفيــن وهو ما انتهى الى تعريف « الاساليب الادبية » الخاصة . وادخال هذا الاسلوب يغطي بمنطق الشراح الفطن كل الصعوبات . اذ يعلل كــل تناقض بين نصين باختلاف طريقة التعبيرلدى كل كاتب « واسلوبه الادبي » الخاص . ولا ريــب ان الحجة غير متبناة من الجميع لافتقارها الى الجدية . ولكن مع ذلك لم يوقــف العمل بها في ايامنا . وسنرى عند الكلام على العهد الجديد ، كيف سيكون تعسف البعض في تأويل التناقضات الموجودة في الاناجيل .

على ان ثمة طريقة اخرى ، لو طبقت على النص المجادل فيه ، تحمل على قبول ما يرفضه المنطق ، وهي بــأن يحــاط هذا النص باعتبارات تبريرية ، فيصرف انتباه القــارىء عن الموضوع الجوهري لحقيقة الروايــة بالذات لينصب على مسائل اخرى .

وتنتمي الى هذا الاسلوب في التعبير ، افكار الكاردينال « دانييلو » في الطوفان التي نشرت في مجلة « الله الحي »(1) تحت عنوان : « طوفــان ، معمودية ، حساب » . فقــد كتب « ان اقــدم تقليد لدى الكنيسة راى في لاهوتية الطوفان صورة للمسيح وللكنيسة » وهذا « فصل ذو معنى سام » « حكم يصيب الجنس البشري بــأسره » وبعــد ان ذكر « اوريجين » الذي يتكلم في عظاته عن « حزقيل » عن « غرق العالم كله الذي نجــا بالفلك » يعرض لقيمة العدد ثمانية « بأنه يفسر عدد الاشخاص الذين نجوا بالفلك — نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجــاتهم — » انه يتبنى مــا قــد كتبه مسيحنا بعــد أن بعث من الاموات » . ويكتب بــأن « نوحــا المولود الاول في خلق جديد ، صورة للمسيح الذي حقق مــا كان نوح قد رمز اليه » ويتابع المقارنة بين نوح الذي انجــاه خشب الفلك ، والماء الذي جعله يعوم مــن ناحية ، وبين مــاء العمادة من ناحية اخرى : « ماء الطوفان الذي ولــدت منه انسانية جديدة » وخشب الصليب . لقــد الح على قيمة هذه الرمزية ، وختم وهو يبرز « ثروة سر الطوفان الروحية والتعليمية » .

---

(1) رقم ٣٨ ، ١٩٤٧ ص ٩٥ — ١١٢

وثمة كلام كثير يقال في هذا التقريب التبريري . انهم يؤولون — لنذكر — حادثـا مشكوكا في صحته على المستوى العـالمي في العصر الذي وضعته التوراة فيه . وبتأويل شبيه بتأويل الكاردينال « دانييلو » ، نعود به الى فترة القرون الوسطى التي كان ينبغي فيها تلقي النص كما هو ، وكان ممنوعـا كل بحث خلاف مـا هو متفق عليه .

ومع ذلك فـان مما يعزي ان نؤكد بانه كان بالامكان ، قبل هذا العصر الذي غمرته الجهالة ، العثور على مواقف منطقية كالتي اتخـذها القديس « اوغسطين » الذي انطلق من تفكير فريد سـابق على زمنه . وقد كان لا بد في عصر آبـاء الكنيسة من ان تكـون قد طرحت مسائل في نقد النص ، لأن القديس « اوغسطين » أثار واحـدة منها في ربسالته الـرقم ٨٢ التي ابرز مـا ورد فيها هو التالي :

« لقـد تعلمت ان اعير الاهتمام والاحترام فقط الى هذه الكتب المقدسة المسماة قانونية ، حتى اني اعتقد جازمـا بأنه ما من احـد من كتابها قـد اخطأ في الكتابة . ولا اشك عندما اصادف فيها تـاكيدا يبدو مخالفا للحقيقة ، بـأن الخطأ هو في نص (نسختي) او ان المترجم لم ينقل النص الاصلي نقلا صحيحا ، او ان ادراكي هو دون مستواه » .

ولم يكن مقبولا لدى القديس « اوغسطين » ان يحوي نص مقدس خطأ مـا . انه يحدد بوضوح نظرية العصمة . وامـام مقطع بدا أنه يناقض الحقيقة ، كان يواجه البحث عن سبب ، ولم يكن يستبعد افتراض الخطأ من مصدر انساني . ومثل هذا الموقف هو موقف مؤمن يملك حسا نقـديا . ولم تكن قائمة في عصر القـديس « اوغسطين » ، امكانية المقـابلة بين النص التوراتي والعلم . وان نظرة موسعة شبيهة بنظرة القديس « اوغسطين » تسمح بتذليل كثير من الصعوبـات الناشئة في عصرنا من جراء المقابلة بين بعض نصوص التوراة والمعارف العلمية .

وعلى العكس نرى اختصاصيي زماننا يبذلون وسعهم للدفـاع عن اي خطأ يتهم به نص التوراة . ويقـدم لنا الاب « دوفو » في مقـدمته لسفر التكوين الاسباب التي تحدو به الى هذا الدفـاع لمصلحة النص ، ولو كان غير مقبول شكلا وتاريخا او علما . فيطلب منا ان لا تنظر الى تاريخ التوراة « حسب اصول النوع التاريخي الذي يمارسه المعاصرون » كما لو كان قادرا على ايجاد طرق عدة في كتابة التاريخ . فرواية التاريخ بطريقة غير صحيحة تصبح — وكل الناس يعرفون ذلـك — قصة تاريخية . ولكنها هنا تفلت من الاقيسة المتحدرة من افكارنـا ، فيرفض شراح التوراة كل تدقيق لنصوص التوراة مـن علم الجيولوجيا او علم الباليونتولوجيا(٢) ومعطيات مـا قبل

---

(٢) علم اثار القطع الحيوانية او النباتية القديمة .

التاريخ . فقد كتب يقول بـــأن « التوراة لا تخضـع لأي من هذه القوانين . واذا أريد مقابلتها مع معطيات هذه العلوم فلا يمكننا الوصول الا الى مجابهة غير حقيقية أو الى توافق مصطنع »(٣) وينبغي أن يلاحظ بـــأن سبب هذه الافكار هو ان ما في سفر التكوين غير متفق مطلقا مع معطيات العلم المعاصر وبخاصة الاحد عشر فصلا الاوائل . ولكن اذا كانت بعض الروايات قد حققت تماما في ايامنا ولا سيما بعض روايات عهد الاباء ، فان الكاتب لا يقصر على استدعاء المعارف الحديثة لمساندة الحقيقة التوراتية . وقد كتب (٤) «ينبغي ان تخضع الشكوك التي تناولت هذه الروايات للشهاده المناسبة التي قدمها التاريخ وعلم الاثـــار الشرقيان » ، وايضا « إنا نستعين بالعلم اذا كـــان نافعا في تثبيت رواية التوراة، أما اذا كان يدحضها فانا نرفض الرجوع اليه ».

ولكي يوفق بين المختلف ، أعني نظرية صحة التوراة مع سمة عـــدم صحة بعض الوقائع المسوقة في روايات العهد القديم ، عكف علماء اللاهوت المحدثون على مراجعة المفهومات الكلاسيكية للصحة . واننا نخرج عن اطار هذا الكتاب لو قدمنا عرضا مفصلا للاعتبارات الدقيقة المـــوسعة طويلا في مؤلفات باحثة في صحة التوراة كما في « أو. لوريتز » سنة ١٩٧٢ « مـــا هي حقيقة التوراة » . فلنكتف اذن بذكر هذا الحكم المتعلق بالعلم .

لقد ذكر الكاتب بـــأن مجمع الفاتيكان الثاني « امتنع عن تقديم القواعد التي يمكن التفريق بها بين الخطأ والصواب في التـــوراة . وأن اعتبارات اساسية تظهر ان هذا غير ممكن ، لان الكنيسة لا تستطيع ان تقرر صحة أو بطلان الطرائق العلمية فتحل مبدئيا وبوجه عـــام مشكلة الحقيقة في الكتب المقـــدسة » .

وانه لواضح جدا ، ان الكنيسة لا تملك ان تقـــوم « طريقة » علمية بالذات كمدخل الى المعرفة . والمراد هنا شيء آخر، ليس مناقشة النظريات، بل حقائق مثبتة . فهل من الضرورة ان يكون المرء فقيها كبيرا في هذا العصر ، ليعلم ان العالم لـــم يخلق ، وان الانسان لـــم يظهر على الارض منذ سبعة وثلاثين أو ثمانية وثلاثين قرنـــا ، وأن هذا التقويم المستخرج من تسلسل النسل في التوراة يمكن تأكيد ضلاله من دون خطر الخطأ ؟ ان المؤلف المشار اليه لا يجهله . وتأكيداته على العلم ليس لها من هدف الا تجنب المسألة حتى لا يعالجها كما ينبغي .

ان ذكر كل هذه المواقف من الكتاب المسيحيين تجاه الاخطاء العلمية في نصوص التوراة ، يوضح جيدا الاستياء الذي تجلبه ، واستحالة تحديد موقف

---

(٣) مدخل سفر التكوين صفحة ٣٥ .

(٤) صفحة ٣٤ .

منطقي غير موقف الاعتراف بمصدرها البشري ، واستحالة قبولها على انها جزء من الوحي .

ان هذا الاستياء المسيطر على الاوســاط المسيحية بخصوص الوحي ، قد بدأ اثناء مجمع الفاتيكان الثاني (١٩٦٢ — ١٩٦٥) حيث لم يتطلب اقل من خمسة تحريرات حتى يتم الاتفاق على النص النهائي بعــد ثلاث سنوات من النقاش . وقد حسمت « تلك الحال المؤلمة التي كانت تهدد المجمع بالشلل » حسب تعبير المطران « ويبر » في مقدمته على الوثيقة المجمعية الرقم ٤ عن الوحي .

في هذه الوثيقة المتعلقة بالعهد القديم عبارتان (الفصل الرابع صفحة ٥٣) تبرزان نواقص وعجز بعض النصوص، بحيث لا يمكن معهما اي اعتراض:

« مع اعتبار الحالة الإنسانية التي سبقت السلام المؤسس من المسيح ، فان كتب العهد القديم تسمح للكل بأن يعرف من هو الله، ومن هو الانسان . فضلا عن الطريقة التي يتصرف بها الله مع الناس بعدالته ورحمته .. هذه الكتب رغم كونها تحــوي النقص والعجــز ، هي ايضا الشواهد على تربية الهية حقيقية » .

ولا نعرف من بين الاوصاف احسن من « نقص » و « عجز » المنطبقين على بعض النصوص التي يمكن تركها أو نقدها . والقاعدة واضحة القبول .

ان هذا النص يكون جزءا من اعلان اجمالي تبناه المجمع باكثرية ٢٣٤٤ صوتــا ضد ٦ اصوات . وهو مع ذلك لا يترجم شبه الاجماع الظاهري . وانا نجد في الواقع في شروح الوثيقة الرسمية بتوقيع المطران « ويبـــر » جملة تصحح بوضوح تاكيد عجز بعض النصوص المحتواة في الاعلان الرسمي للمجمع « بعض كتب التوراة الاسرائيلية هي دونما شك ذات طابع مؤقــت وفيها بعض النقص » .

« العجز » عبارة من الاعلان الرسمي ليست مرادفة بالتاكيد « للطابع المؤقــت » وهي عبارة الشارح . واما صفة الاسرائيلية المزادة بصـــورة عجيبة من هذا الاخير فتوحي بان النص المجمعي انتقد النصوص العبريـــة الوحيدة ، في حين ان العهد القديم هو في الواقع الذي كان وقت المجمـــع هدف المناقشة في نقص وعجز بعض اجزائه .

خــلاصة

لا يجوز النظر الـــى الكتب المقدسة من خلال تجميلها بقيم نصطنعهـــا لها . بل ينبغي ان نختبرها موضوعيا . وهذا لا يستلزم فقط معرفة النصوص بل معرفة تاريخها ايضا . هذه المعرفة التي تسمح في الحقيقة بتكوين فكرة عن الظروف التي ادت الـــى تحريفات النصوص على مر العصور على بطء تكوين المجموعة التي بين ايدينا مع حذوفات واضافات عديدة .

هذه المفاهيم تجعل من الممكن ان نجد في العهد القديم نصوصا مختلفة في الرواية الواحدة ، وتضادات ، واخطاء تاريخية ، ومستحيلات ، وتناقضات مع معطيات علمية قوية الثبوت . وهذه الامور الاخيرة طبيعية في الاعمال الانسانية القديمة ، فكيف لم نعثر على مثلها في الكتب المحررة التي لهـــا الظروف نفسها التي وضع فيها النص التوراتي ؟!

وقبل ان تتمكن المسائل العلمية من ان تفرض نفسها في عصر لم يكـــن مقدورا فيــــه الا الحكـــم بالإستحالات او التضادات ، فان رجلا ذا فكر سليم كالقديس اوغسطين ، معتبرا ان الله لا يمكن ان يعلـــم الناس ما لا يتفق مع الحقيقة ، وضع في الاصل قاعدة استحالة الاصل الالهي لما يضاد الحـــق . لقد كان مستعدا لان يحذف من كل نص مقدس ما كان يبدو له واجـــــب الحذف لهـــذا السبب .

وفي عصر متأخر رفض البعض عندما تحققوا من تناقض بعض فقـــرات التوراة مع المعارف الحديثة ، الانقياد لمثل هذا الموقف ، فقد شاهدوا تفتـــح ادبٍ هادف الى تصويب الاحتفاظ في التوراة ـــ وبرغم كل شيء ـــ بالنصوص التي لم يعد لها مكانها .

ان مجمع الفاتيكان الثاني ١٩٦٢ ـــ ١٩٦٥ خفف هذه الحملة كثيـــرا بايراده تحفظا على « اجزاء العهد القديم » التي «تتضمن النقص والعجز» فهل سيبقى لهذه الرغبة تقاها او ستتبع بتغيير الموقف ازاء ما ليس مقبولا ابـــدا في القرن العشرين في الكتـــب ، التي كانت معدة لكي لا تكون ـــ خارج الممارسة الانسانية ـــ الا « الشهود لتربية الهية حقة » .

يحتار كثير من قراء الانجيـــل ، بل ويقلقون عندما يتأملون معنـــى بعض القصص ، او عندما يقارنون بين مختلف الروايات للحادث الواحد الذي يجدونه في عـــدد من الاناجيل ، وهو ما لاحظه الاب روغيه في كتابه (مدخل الى الانجيـــل) الذي استطاع فيه ان يقيس لدى مراسليـــه اهميـــة القلق المثـــار من تلاميذهم بحكم تجربته الكبرى التي افـــاده بها عمله الذي شغله مدى سنين طويلة ، مكلفا بالاجـــابة في مجلة اسبوعية كاثوليكية على

قراء الانجيــل ، هؤلاء الذين اقلقتهم النصوص . لقد لاحــظ ان طلبــات الاستيضاح من محــاوريه الذين ينتمون الى اوســاط اجتمــاعية وثقــافية متغايرة جداً تنصــب على نصوص « وجدت غامضة غير مفهومة ، بــل متضادة ومستحيلة ومضطربة » فما من شك اذن ان قراءة النصوص الكاملة للاناجيــل قابلة بان تحدث لدى المسيحيين اضطرابا عميقا .

ان مثل هذه الملاحظة هو حديــث الزمن فقد نشر كتاب الاب روغيــه في سنة ١٩٧٣ ، وفي أوقات ليست بعيدة جدا ، وقد كانت غالبية المسيحيين لا تعرف من الاناجيــل سوى مختارات تقرأ عند الصلوات ، او مشروحــة عند الوعظ . وباستثناء حالة البروتستانتيين الخاصة ، لم تكن قراءة الاناجيل في جملتها خــارج هذه المنــاسبات أمــرا متداولا . ولــم تكن كتب التعليم الديني تحوى منهــا الا مقتطفات ، والنص الكامل لم يكن متداولا ابــدا . وفي مجرى دراساتي الثانويــة في معهد كاثــوليكي ، وضعت بين يدي كتب « فيرجيل ، وافلاطون » ولكن لــم يوضع بين يدي العهد الجديد مطلقا ، رغم ان النص اليوناني له كان مفيدا جــدا . وقــد أدركت متأخرا لــم لم نكلف بترجمة الكتب المقــدسة المسيحية ، فقــد كان يمكن ان تسوقنا الى طرح اسئلة على اساتذتنا تحيرهم الاجابة عليها .

لقد كان بالامكان لو كان ثمة فكر ناقد عند القراءة الكاملة للاناجيل ، ان تدفع هذه الامور التيتنكشف لنا، الكنيسة للتوسط ولمساعدة القراء لتخطي ما يحيرهم . فقد قــال الاب روغيه « كثير مــن المسيحيين يفتقرون لتعلم كيفية قراءة الانجيــل » . وسواء كنا متفقين مع التأويلات المعطاة او لم نكن ، فان فضــل الكاتــب عظيـــم عند مجابهة هذه المسائل الدقيقة . ولكن الامــر للاسف ليس كذلــك في العديد من الكتابات عن الوحي المسيحي .

في طبعات التوراة المعدة لانتشار واسع ، تعرض تعلماتها المدخلية في الغالب ، مجموعة من الاعتبارات الهادفة الى اقناع القارىء بــان الاناجيل لا تطرح مطلقا مشكلات تمس شخصية كتاب مختلف الاسفــار ، ولا اصالة النصوص ، ولا سمة الصحة في الاخبار ، في حين ان ثمة كثيرا مــن العناصر المجهولة عن الكتاب الذين لا يسعنا التحقق مــن شخصياتهم ، وكثــير من التوضيحات نجدها في هذا النوع من التعليمات التي تجعل في الغالب كاليقيني ما هو مجرد افتراض ، مؤكدة ان انجيليا ما كان شاهد عيان على الوقائع بينما مؤلفات اختصاصية تدعى النقيض ، فيبالغون في اخضاع المسافــات الزمنية بين فترة وجود عيسى وفترة ظهور النصوص ، وهادفين الى فرض الاعتقاد بكتابة واحدة اخذا عن رواية شفوية حيث كانتالتحريفات للنصوص قــد كشفت من الاختصاصيين . وتنطلق الاحــاديث من هنا ومن هناك عن بعض صعوبات التفسير . ولكن يمرون متساهلين امام التناقضات الضخمة

التي تقفز امام اعين كل من يفكر . ونلاحظ في بعض المعاجـم الصغيـرة الموضحة الموضوعة كملحق متمم للافتتاحيات المطمئنة ان بعض المستحيلات والتضادات أو الاخطاء البارزة يلعب عليها ، أو تخفت ببرهنة اطرائية فائقة . ومثل واقع الاشياء هذا يفجع ، عندما يفضح سمة الخداع في هذه الشروح .

والاعتبارات الموسعة هنا ستدهش دونما شك من قرائي هؤلاء الذيـن لم ينبهوا الى هذه المسائل . على اني قبل الدخول في المهم من الموضوع اتمنى ابراز فكرتي من الان بمثل يخيل الي انه كامل البيان .

فكل من متى ويوحنا ، لم يتكلما عن صعود المسيـح . اما لوقا فانه يحدد زمنه في انجيله بانه يوم البعث من الموت ، وبعد اربعين يوما من اعمال الرسل التي قد يكون مؤلفها . بينما يذكر مرقس (دون تثبيت تاريخه) فـي ختام معتبر حاليا بانه غير صحيـح . فليس للصعود اذن اصل ثابت فـي الكتابات المقدسة . ومع ذلك فان الشراح يتناولون هذه المسألة الهامـة باستهتار مذهـل .

وان أ. تريكو في معجمه الصغير عن العهد الجديد من توراة كراميون « مؤلف ذو انتشار واسع طبعة ١٩٦٠ » (١) لم يخصص مادة للصعود . ان لائحة الاناجيـل الاربعة للابوين بونوا وبواسمار الاستاذين في المعهـد التوراتي للقدس « طبعة ١٩٧٢ (٢) تعرفنا في جزئها الثاني صفحة « ٤٥١ ـ ٤٥٢ » بأن التناقض بين ما لدى انجيل لوقا واعمال الرسل يفسر « بمهارة ادبيـة » وليفـهم من يسعه الفـهم !!

ومن المـرجح كثيرا أن الاب روغيه لـم يتبن في مدخله الى الانجيل سنة ١٩٧٣ صفحة ١٨٧ مثل هذه الحجة . غير ان التفسير الذي قدمه لنا هو على الاقـل ـ فريد .

« هنا كما في حالات كثيرة مماثلة ، لا تبدو المسالة مستعصية الا اذا تناولنا حرفيا تاكيدات الكتابات المقدسة ناسين معناها الديني . وليس المراد تذويب حقيقة الوقائع في رمزية مائعة ، بل بحث الفكر اللاهوتي الذي لدى اولئك الذين يوحون الينا بالاسرار وهم يكشفون لنا وقائـع محسوسة ، واشارات تخص الجذور المحسوسة لفكرنا » .

كيف يمكن الاكتفاء بمثل هذا الشرح ؟ ان عبارات تمجيد من هذا النوع لا توصـل الا الى العموميات .

وفائدة تحقيق الاب روغيه هي في رأيـه ان ثمة « كثيرا من الحالات المشابهة » للصعود في الاناجيـل . فمن الضروري تناول المسالة بشكـل عام في العمق وبموضوعية تامة . ويبدو من الحكمة البحث عن تفسيـرات

1- Deseieéctele

2- Editunde Cerf

بدراسة الظروف التي كتبت فيها الاناجيل ، والمناخ الديني الذي هيمن في هذا العصر . وكشف تحريفات المؤلفات الاولى المحققة اعتبارا من الروايات الشفوية ، وتغييرات النصوص اثناء نقلها الينا ، تخفض من دهشة وجود الفقرات الغامضة ، وغير المفهومة والمتضادة وغير الحقيقية التي تصل احيانا الى حد الاستحالة ، او المتناقضة مع الحقائق التي يثبتها في ايامنا التقدم العلمي . وشبيه هذه الملاحظات هو علامة المشاركة البشرية في التحرير ثم في التحريف اللاحق بالنصوص ...

كان الناس منذ بضع عشرات من السنين يهتمون بدراسة الكتابات المقدسة بروح من البحث الموضوعي . وفي كتاب « الايمان بالبعث وبعث الايمان (١) » الحديث قدم الاب كننغسر الاستاذ في المعهد الكاثوليكي في باريس مطالعة عن هذا التبدل العميق بهذه الكلمات « ان شعب المؤمنين يعرف بالكاد ان ثورة قد جرت في اساليب التفسير التوراتية منذ عصر البابا بيوس الثاني عشر (٢) » « فالثورة » التي يتكلم عنها الكاتب هي اذن حديثه . لقد بدا يكون لها امتدادات في تعليم المؤمنين على الاقل من جهة بعض الاختصاصيين المحركين بهذه الروح المتجددة « وانقلاب في الرؤى الاكثر تاكيدا للرواية الرعائية كما يقول الكاتب ، يوجد قليلا او كثيرا على الطريق ، بهذه الثورة في المناهج التفسيرية » .

ولقد حذر الاب كننغسر « بانه لا ينبغي الاخذ بالحرفية » تلك الوقائع المذكورة عن عيسى في الاناجيل « المكتوبة في المناسبات » او « من المعركة » والتي « اورد كتابها خطيا روايات جماعاتهم عن عيسى » بمناسبة قيامة عيسى ، موضوع كتابه ، واكد بانه ما من كاتب للاناجيل يقدر أدعاء الشهادة العيانية ، تاركا الناس يفهمون فيما يتعلق ببقية حياة عيسى العامة بانه ينبغي ان تكون كذلك لان احدا من الرسل — باستثناء يهوذا — حسب افادة الاناجيل لم ينفصل عن السيد اعتبارا من لحظة التحاقه به الى اخر ظهوره على هذه الارض .

وها نحن اذن بعيدون جدا عن الاوضاع التقليدية المعلنة رسميا من المجمع الفاتيكاني الثاني منذ عشر سنوات فقط ، والتي تناولتها المؤلفات الحديثة المنتشرة المخصصة للمؤمنين . غير ان الحقيقة تاخذ طريقها الى الضياء شيئا فشيئا .

وليس من السهل ادراكها ما دام التقليد عميقا ، والدفاع عنه شديدا . واذا شئنا التحرر منه ، فينبغي تناول المسألة من جذورها ، بمعنى انه ينبغي اولا بحث الظروف التي سجلت ولادة المسيحية .

1- Besuchesmecoll

٢ — كان بابا روما بين ١٩٣٩ — ١٩٥٨

عودة تاريخية اليهودية ــ المسيحية والقديس بولس

يعتقد غالبيــة المسيحيين ان الاناجيــل الاربعة كتبــت من الشهود المعايشين لحياة المسيح الذين رتبوا من هذا الواقــع شهــادات لا ريــب فيها عن الاحداث التي شغلت وجوده ووعظــه . كيف يمكن مناقشــة المعلومات المستخرجة منها مع مثل هذه الضمانات لاصالتها ؟

وكيــف يمكن ان نضــع موضع الشك صلاحية مؤسســة الكنيسة بتطبيق تعليمات عامة معطــاة لها من المسيح نفســه ؟ ان طبعات الاناجيل الحالية الموضوعة بين يدي العموم ، تحتوي على شروح مخصصة لنشــر هذه المفاهيم عليهم .

لقــد كانــت تقدم الــى المؤمنيــن ، صفة الشهود العيان لمؤلفــي الاناجيل ، على انها امر مسلم به . الم يصف القديس جوستين الاناجيل ، في منتصف القرن الثاني بانها مذكرات الرسل ؟ ثم تعلن التدقيقات العديدة عن الكتاب الذين يتســاءل كيف يمكن الشك بانضباطهم ؟ لقــد كــان متى شخصية معروفة جــدا . وكان « مستخدما في مكتب المكوس او الجمارك في كفرناحوم » وكان مشهورا بمعرفته الآرامية واليونانية . كمــا كان مرقس معروفا جدا كمساعد لبطرس . فلا شك في انه كان شاهد عيان له . وقد كان لوقا « الطبيب العــزيز » الــذي يتحدث عنــه بولــس . والمعلومــــات عنه دقيقة جدا . ويوحنــا هو الرسول الدائم القرب من المسيح . انــه ابن ززبدا صياد بحيرة جينيزيرت Génésereth

على ان الدراسات الحديثــة عن بدايات المسيحية توضح ان هــذا الاسلوب لابراز الاشياء لا يتفــق مع الواقع ابدا . وسنرى ما كــان من مؤلفي الاناجيــل . وينبغي ان يعرف فيما يخص عشرات السنين التي تلت رســالة المسيح بان الاحداث لم تجر مطلقــا كما قيل ، وان مجيء بطرس الى رومــا لم يركز ابدا الكنيســة على اسسها ، بل على العكس لقد شاهدنا خــلال اكثر من قرن ، بين الفترة التي ترك فيهــا المسيــح هذه الارض وحتى منتصف القرن الثاني ، معركة بين اتجاهين . بين ما يمكن ان نسميه المسيحية البولسية ، واليهودية ــ المسيحية .

وقــد اخذت الاولى بكثــير من التدرج مكــانة الثانيــة . فانتصرت البولسيــة على اليهودية ــ المسيحية .

لقــد سمح عدد كبــير من الاعمــال يعود الى عشــرات السنين الاخيرة ، ويرتكز على اكتشافات زماننا بالوصول الى هذه المفاهيم الحديثة التي يرتبط بها اسم الكاردينال دانييلو . ان البحث الذي نشــره في كانون الاول سنة ١٩٦٧ في مجلة « دراســـات » « رؤية جــديدة في اصول

المسيحية التي هي اليهودية ــ المسيحية » متناولا اعمالا سابقة وموضحا تاريخها ، ويسمح لنا بأن نضع ظهور الاناجيل في ظرف مختلف جدا عما يفهم من الابحاث المخصصة للنشر الواسع . وسنجد فيما يلي ملخصا للنقاط الاساسية لمقاله مع مقتطفات واسعة .

تشكل « جماعة الرسل الصغيرة » بعد المسيح « مذهبا يهوديا امينا على الممارسات ومراسم المعبد . ولكن كان يطرح عليهم نظام خاص ، كلما تتصل بهم مجموعات المرتدين من الوثنيين.ــ ان صح هذا التعبير ــ فلقد اعفاهم مجمع القدس لسنة ٤٩ من الختان ، ومن ممارسات اليهود « كثير من اليهود ــ المسيحيين رفض هذا التنازل » وقد انفصلت هذه الجماعة عن بولس تماما . وبالاضافة الى انه ، بالنسبة الى المرتدين ، من الوثنيين ، فان بولس واليهود ــ المسيحيين قد تصادموا « حادث انطاكية ٤٩ » « فقد اسقط بولس الختان ، والسبت ، ومراسم المعبد حتى بالنسبة الى اليهود . وقد كان على المسيحية ان تتحرر من انتمائها السياسي الديني الى اليهودية لتنفتح على الوثنيين » .

واما بالنسبة الى اليهود المسيحيين ، وقد بقوا « اسرائيليين امناء » فقد كان بولس خائنا . ولدى اليهود ــ المسيحيين وثائق تصفه « بالعدو » وتتهمه « بالازدواجية المداهنة » ولكن « اليهودية ــ المسيحية » كانت تمثل حتى سنة ٧٠ غالبية الكنيسة و « ظل بولس معزولا » . وكان رئيس الجماعة اذ ذاك يعقوب الذي كان معه في البداية بطرس ، ويوحنا . « يمكن أن يكون يعقوب معتبرا كعمود لليهودية ــ المسيحية التي ظلت بقصد مندمجة في اليهودية في مواجهة المسيحية البولسية » وقد اخذت اسرة المسيح مكانة عظمى في كنيسة القدس اليهودية ــ المسيحية هذه « وخلف يعقوب سيكون سمعان ابن كليوفاس ابن خالة السيد المسيح » .

وهنا يذكر الكاردينال دانييلو كتابات يهودية ــ مسيحية مترجمة الرؤى عن مسيح هذه الطائفة التي شكلت ابتداء حول الرسل ، انجيل اليهود [منقولا عن طائفة يهودية ــ مسيحية مصرية] ورسامو كليمان ، والمعارف الكليمنتية ورؤيا يعقوب الثانية وانجيل توما والى هؤلاء اليهود ــ المسيحيين يجب من دون ريب ربط اقدم آثار الادب المسيحي التي يذكرها بالتفصيل الكاردينال دانييلو .

« ولم تكن هيمنة اليهودية ــ المسيحية طيلة القرن الاول للكنيسة فقط في القدس وفلسطين ، بل كانت رسالتها منتشرة في كل مكان سابقة على الرسالة البولسية . وهذا ما يفسر ، لماذا شكلت رسائل بولس دونما **انقطاع حضا على نزاع** » اولئك كانوا الخصوم انفسهم الذين كانوا يرون في كل مكان من جالاتيا ، وكورنثيا وكولوسيكا وروما وانطاكية .

والساحل السوري الفلسطيني من غزة حتى انطاكية هو يهودي ــ مسيحي « كما تشهد به أعمال الرسل وكتابات كليمنتين » أما في آسيا الصغرى ، فقد ثبت وجود اليهود ــ المسيحيين في الرسائل الى الكالات والكولوسيين لبولس . وقد عرفت كتابات بابياس باليهودية ــ المسيحية لفريجي واول رسالة من بولس للكورنثيين نوهت في اليونان بوجود يهود ــ مسيحيين في أبولوس على الخصوص . ان روما « مركز مهم » كما تفيد رسالة كليمان راعي هرمياس . ويشكل المسيحيون في راي سيباتون وتاسيت مذهبا يهوديا . ويذهب الكاردينال دانييلو الى أن أول انجلة لافرقيا كانت يهودية ــ مسيحية . وان انجيل العبرانيين وكتابات كليمان الاسكندري يرتبطان بها .

من المهم ان نعرف هذه الوقائع لندرك في اي جو من النزاع بين الطوائف كتبت الاناجيل ، ولتوضيح أن النصوص التي بين ايدينا اليوم بدأت بعد كثير من تعديلات المصادر ، حوالي سنة ٧٠ ، في العصر الذي كانت فيه الطائفتان المتنافستان في ألد الخصام ، وان اليهود ــ المسيحيين ، كانوا ما برحوا هم المسيطرين ، ولكن في سنة ٧٠ انقلب الوضع مع الحرب اليهودية وسقوط القدس . والكاردينال دانييلو يوضح السقوط كما يلي :

لما كانت مكانة اليهود قد ضعفت في الامبراطورية ، فقد اتجه المسيحيون الى الانفصال عنهم ، فهيمن المسيحيون اليونان ، وحقق بولس نصرا بعد موته ، وتخلصت المسيحية اجتماعيا وسياسيا من اليهودية واصبح الشعب الثالث بينما ظلت اليهودية ــ المسيحية المهيمنة ثقافيا حتى الثورة اليهودية الاخيرة سنة ١٤٠ .

ومنذ سنة ٧٠ حتى مرحلة هي قبيل سنة ١١٠ كما نحددها ، ظهرت أناجيل مرقس ومتى ــ ولوقا ويوحنا . فهي لا تمثل الوثائق الثابتة الاولى للمسيحية ، لان رسائل بولس سابقة جدا عليها . اذ يرى كولمان ان بولس قد حرر رسالته الى اهل تسالونيك عام ٥٠ ولكنها اختفت على الارجح قبل بضع سنوات من انتهاء أنجيل مرقس .

ولما كان بولس لم يعرف المسيح حيا ، فقد برر شرعية مهمته ، بالتاكيد على ان المسيح قد ظهر له بعد قيامته ، على طريق دمشق ، في الوقت نفسه الذي كان يمثل فيه الوجه الاكثر مناقشة في المسيحية ، وينظر اليه على انه خائن فكرة المسيح من قبل اسرته ، ومن قبل الرسل الذين بقوا في القدس حول يعقوب . لقد صنع بولس المسيحية على حساب هؤلاء الذين احاط بهم المسيح نفسه لينشر تعاليمه .

وانه لمن الحق التساؤل ماذا كان مصير المسيحية لولا وجود بولس ؟ ويمكن في هذا المجال وضع العديد من الافتراضات . غير انه يمكن

المراهنة فيما يتعلق بالاناجيل ، بانه لو لم يكن جو الخصومة المثارة من انقسام الفكر البولسي ، لما وصلت الينا هذه الكتابات التي بين ايدينا اليوم « كتابات القتال هذه » التي ظهرت في مرحلة الخلاف والنزاع بين الطائفتين كما وصف ذلك الاب كننغسر . فقد برزت هذه الكثرة من الكتابات التي ظهرت عن المسيح ، عندما كانت المسيحية ذات الاسلوب البولسي ، بعد ان انتصرت نهائيا ، قد كونت مجموعة نصوصها الرسمية « القانون » الذي ابعد كل الوثائق الاخرى التي لا تتفق مع الخط المختار من الكنيسة ، وحكم بانها معادية للارثوذكسية .

وهكذا اختفى اليهود المسيحيون ، كطائفة مؤثرة ، وظل يسمع الحديث عنهم في ظل تسمية عامة هي « المتهودين » ويعرض الكاردينال دانييلو نهايتهم كما يلي :

« بمجرد أن فصلوا من الكنيسة الكبرى التي تحررت تدريجيا من ارتباطاتها اليهودية ، تضي عليهم في الغرب سريعا . وتتبعت آثارهم في الشرق من القرن الثالث حتى الرابع ، وبخاصة في فلسطين والجزيرة العربية وشرق الاردن وسوريا ، وبلاد ما بين النهرين ، واندمج بعضهم في الاسلام الذي كان وريث قسم من تعاليمهم ، بينما ارتبط البعض الاخر بارثوذكسية الكنيسة الكبرى محتفظين بترسب ثقافي سامي . ولا يزال شيء منها موجودا في الكنيسة الاثيوبية والكلدانية » .

الأناجيل الأربعة - مصادرها - تاريخها

لم تذكر الاناجيل الاولى في كتابات المسيحية في الازمان الاولى الا بعد اعمال بولس . وفي منتصف القرن الثاني فقط ، وبعد سنة ١٤٠ بالضبط ظهرت شهادات متصلة بمجموعة من الكتابات الانجيلية التي « افاد فيها بوضوح عدد من الكتاب المسيحيين انهم يعرفون عددا ضخما من الرسائل البولسية » . وتستحق هذه الملاحظات المطروحة في « المدخل الى الترجمة المسكونية للتوراة والعهد الجديد » المطبوعة سنة ١٩٧٢ (١) ان تذكر جملة واحدة ، في الوقت الذي يجدر ان يذكر فيه بأن المؤلف المنوه عنه هو ثمرة عمل جماعي ضم أكثر من مئة اختصاصي كاثوليكي وبروتستانتي .

ان الاناجيل التي اصبحت فيما بعد رسمية — اي قانونية — عرفت في وقت متأخر جدا رغم أن تحريرها قد انجز في مطلع القرن الثاني . وقد بدىء حسب الترجمة المسكونية بذكر الاقاصيص التي تخصها حوالي منتصف القرن الثاني . ولكن « من الصعب بصورة شبه دائمة تقرير ما اذا كانت الافادات مبنية على النصوص المكتوبة التي كان الكتاب يشاهدونها ، او انهم اكتفوا بأن يسترجعوا من الذاكرة جزءا من الرواية الشفوية » .

« وعلى كل حال ، فانه لم يكن يوجد قبل سنة ١٤٠ كما نقرأ في الشروح لهذه الترجمة للتوراة اية شهادة يمكن معها معرفة مجموعة كتابات انجيلية » . ويتناقض هذا التاكيد مع ما كتبه أ. تريكو سنة ١٩٦٠ في شروح ترجمته للعهد الجديد حيث يقول : « لقد كان العمل في زمن مبكر ، وفي مطلع القرن الثاني ، يتركز على ذكر الانجيل للدلالة على الرسالات التي كان القديس جيستان نحو سنة ١٥٠ يسميها ايضا « مذكرات الرسل » . وتأكيدات من هذا النوع ، هي مع الاسف منتشرة

---

(1) Editions du cerf et les bergers et les mages.

بشكل يكفي ان تكون معه معلومات الجمهور الكبير عن تاريخ مجموعة الاناجيل خاطئة .

وقد ظلت الاناجيل تشكل وحدة اكثر من قرن - بعد نهاية رسالة المسيح ، وليس في وقت مبكر . والترجمة المسكونية للتوراة نحدد الوقت الذي منحت فيه الاناجيل الاربعة سمة النص القانوني بانه في حوالي سنة ١٧٠ .

وسنرى ايضا بان تأكيد جيستان الذي يصف كتابها بالرسل لم يعد مقبولا اليوم .

هذا ويؤكد ا. تريكو ، بالنسبة الى تاريخ تحرير اناجيل متى ومرقس ولوقا بانها قد كتبت قبل السنة السبعين . وهذا غير معقول ، اللهم الا فيما يخص مرقس . وهو يجتهد بعد كثيرين في ان يبرز كتاب الاناجيل كرسل او اصحاب للمسيح . وبهذا يقدم تاريخ تحريرها فيجعله قريبا جدا من العصر الذي عاش فيه المسيح . واما بالنسبة الى يوحنا الذي اخبر عنه ا. تريكو بانه عاش حتى سنة ١٠٠ تقريبا ، فقد اعتاد المسيحيون بمناسبات رسمية ، منذ القدم ، ان ينظروا اليه على انه قريب جدا من المسيح . غير انه من الصعب التاكيد بانه كاتب الانجيل الذي يحمل اسمه . فالرسول يوحنا [مثل متى] عند ا. تريكو ، وعند شراح اخرين ، هو الشاهد المعتمد المختص فيما قصه من الوقائع ، بينما غالبية النقاد لا يتبنون الافتراض الذي يعتبر بمقتضاه محرر الانجيل الرابع .

واذا لم يكن بالامكان اعتبار الاناجيل الاربعة ، موضوع البحث ، « كمذكرات » للرسل او لصحابة المسيح ، فما هو اصلها اذن ؟!

ذكر كولمان في كتابه « العهد الحديد » (١) في هذا الموضوع ، ان الانجيليين ما كانوا الا « المعبرين عن راي الجماعة المسيحية البدائية التي ثبتت الرواية الشفوية ... فقد ظل الانجيل خلال ثلاثين او اربعين سنة موجودا بشكل عام بصورة شفوية . وعليه فان الرواية الشفوية هي التي نقلت على الخصوص كلمات واخبارا مفردة ... وقد حاك الانجيليون الصلات بين الاخبار والكلمات التي تلقوها عن التقليد المحيط بهم كل بطريقته وبشخصيته الذاتية ومفاهيمه اللاهوتية الخاصة . وجمع كلمات المسيح مثل ربط الاخبار ، كان بواسطة صيغ على قدر من الابهام مثل « وبعد هذا » « ما لبث » الخ وباختصار فان اطار اللوائح هو اذن من الشكل الادبي الخالص ، وليس له اي اساس تاريخي » .

ويتابع الكاتب نفسه « ويجب الاشارة اخيرا الى ان حاجات الوعظ

---

(1) Presses universitaires de Frances 1967.

والتعليم والعبادة ساقت اكثر من المنفعة الحياتية ، المجموعة البدائية الى تثبيت هذه الرواية عن حياة المسيح . وقد كان الرسل يشهرون حقائق الابحاث الذي يعظون به ، وهم يسردون وقائع حياة المسيح . ومواعظهم هى التي افسحت المجال لتثبيت الاخبار . وقد بلغت كلمات المسيح بصورة خاصة في التعليم الديني المسيحي للكنيسة الاولى » .

وشرّاح الترجمة المسكونية للتوراة لا يثيرون بشكل اخر تاليف الاناجيل ، تشكيل رواية شفوية بتأثير وعظ تلاميذ المسيح ووعاظ اخرين والاحتفاظ بهذه المواد التي سنجدها فيما بعد في الاناجيل بالموعظة والطقس الديني ، وبتعليم المؤمنين وامكانية تجسيد مسبق ، بصورة مكتوبة لبعض الاقرارات بالابحاث ، ولبعض كلمات المسيح ، واقاصيص الآلام مثلا ، ولجوء الانجيليين الى هذه الصورة المكتوبة المختلفة كما الى معطيات الرواية الشفوية لاصطناع نصوص « تندمج في أوساط مختلفة ملبية لحاجات الكنيسة ، معبرة عن تفكير في الكتب المقدسة ، مصححة الاخطاء ، ومجيبة حتى في المناسبة على أدلة الخصوم . هكذا جمع الانجيليون كل ما نقل اليهم رواية وكتبوها حسب رؤيتهم الخاصة التي اعطتهم اياها الروايات الشفوية » .

ومثل هذا الموقف الجماعي الذي يصدر عن اكثر من مئة شارح للعهد الجديد ، من كاثوليك وبروتستانت ، يختلف بشكل بارز عن الخط الذي حدده مجمع الفاتيكان الثاني في دستوره الاعتقادي عن الوحي الذي وضع فيما بين سنة ١٩٦٢ و١٩٦٧ . وقد وجدنا سابقا اشارة أولى الى هذه الوثيقة المجمعية المتصلة بالعهد القديم . ولقد اعلن المجمع بموضوعها، أن الاسفار التي يتالف منها « تحتوي على النقص والعجز » ولكنه لم يدل بمثل هذه التحفظات بما يخص الاناجيل . مع اننا على العكس نستطيع قراءة ما يلي :

« انه لا يخفى على احد ، بأن بين الكتابات المقدسة حتى كتابات الجديد امتيازا بارزا مستحقا للاناجيل ، اذ يكون الشهادة العظمى على حياة وتعليم الكلمة المتجسدة منقذنا . وقد حفظت الكنيسة دوما وفى كل مكان الاصل الرسولي للاناجيل الاربعة ، الذي وعظ به الرسل في الواقع بناء على تعليمات المسيح هم انفسهم والناس الذين احاطوا بهم قد نقلوها الينا بالهام الهي من الروح في كتابات هي أساس الايمان أي الانجيل ذي الاشكال الاربعة في متى ومرقس ولوقا ويوحنا » .

« وقد اكدت أمنا الكنيسة المقدسة ، وتؤكد بحزم وبمثابرة عظمى أن الاناجيل الاربعة التي اكدت دونما تردد صفتها التاريخية ، تنقل بامانة

ما فعله وعلّمه المسيح ابن الله (١) طيلة حياته بين الناس من اجل السلام الخالد حتى اليـوم الذي رفع فيه الى السمـاء .. فالكتـاب المقدسـون

الفوا الاناجيل الاربعـة بحيث يكشفون لنا فيهـا دوما عن المسيح اشياء حقيقيـة وصادقة » .

هذا هو التاكيد دونما اشتباه لامانة النقـل بواسطة الاناجيل لافعال وكلمات المسيح .

ولا نجد مطلقـا من اتفـاق بين هذا التاكيد الصـادر عن المجمع والتـأكيد الصادر عن الكتاب المذكورين سابقا ، وعلى الخصـوص الاب كننفسر الـذي يقول :

« لا ينبغي الاخذ حرفيـا بالاناجيل ، وهي « مكتوبـة بالمناسبة » او « للنضال » والتي « أورد الكتاب خطيا روايات جماعاتهم عن المسيح » .

ان الاناجيـل نصوص « تندمج في أوسـاط مختلفة ، ملبية حاجات الكنائس معبرة عن تفكير في الكتب المقدسة ، مصححة الاخطاء ، ومجيبة حتى في المناسبة على حجج الخصوم . هكذا جمع الانجيليون كـل ما نقل اليهم رواية وكتبوها حسب رؤيتهم الخاصة » [ترجمة مسكونية للتوراة] .

وانه لواضح جدا باننا نجد انفسنا بين الاعلان المجمعي ، وهذه المواقف المتخـذة حديثا امـام تأكيدات متضادة . وليس من الممكن التـدقيق بين الاعلان الصادر عن مجمع الفاتيكان الثاني الذي يجب ان نجد بموجبه في الاناجيـل نقلا امينا لافعـال المسيح واقوالـه . وبين وجود المتضادات والاستحالات المادية ، والتاكيدات المتناقضة مع حقيقة الاشياء المثبتـة في النصـوص .

وعلى العكس ، فانا لا ندهش اذا نظرنا الى الاناجيل على انها تعبير عن الرؤى الذاتيـة للذين جمعوا الروايات الشفوية الخاصة بجمـاعات مختلفة ، وانها كتابات المناسبات ، او النضال ، بأن نجد فيهـا كل هذه العيوب التي هي علامـة صناعة البشر لهـا في مثل هذه الظروف . ويمكن أن يكـون هؤلاء صادقين جدا رغم أنهم يقصون وقائع لا يشكون في صحتها وهم ينقلون لنا اخبارا متناقضة مع تلك التي يرويها كتاب اخرون ، او ايضا لاسباب اختلافات دينية بين الطوائف ، وهم يقدمون اخبارا عن حياة المسيح حسب رؤيـة مختلفة جدا عن رؤية الخصم .

لقد سبق ورأينـا ان السياق التاريخي متفق مع هذه الطريقة الاخيرة

---

(١) تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا القائل : « ما اتخذ الله من ولد ، وما كـان معـه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » المؤمنون آية ٩١ — ٩٢ . (المترجمون) .

في فهم الاناجيل وان المعطيات التي نملكها عن النصوص نفسها متفقة معها تماما .

انجيل متى :

يشغل انجيل متى المكانة الاولى بين الاناجيل الاربعة ، في ترتيب تقديم كتب العهد الجديد . وهذا مثبت تماما لان هذا الانجيل ، في صورة ما ، ليس الا امتدادا للعهد القديم ، انه قد كتب ليعرف بأن « عيسى يكمل تاريخ اسرائيل » كما كما يفيد شراح الترجمة المسكونية للتوراة ، التي سنقتطف منها استعارات واسعة . ولذلك فان متى يذكر دوما بمقتبسات من العهد القديم ليظهر أن عيسى هو مسيح اليهود المنتظر .

يبدأ هذا الانجيل بنسب المسيح (١) ويرجعه الى ابراهيم بواسطة داود . وسنرى فيما بعد خطأ النص المسكوت عنه من عامة الشراح . على ان نية متى كانت واضحة بان يقوم دفعة واحدة ، بهذا السرد ، الاتجاه العام لكتابه . انه يتابع نفس الفكرة مبرزا دائما موقف عيسى من القانون اليهودي المرتكز على الاسس الكبرى التالية : صلاة ، صوم، صدقة .

يريد عيسى ان يوجه تعليمه أولا ، وبالافضلية ، الى شعبه ، فيقول الى الاثنى عشر رسولا : « لا تسلكوا طريقا الى الوثنيين ، ولا تدخلوا مدينة للسامريين (٢) ، بل اذهبوا نحو الخراف الضالة من آل اسرائيل » [متى ١٠ : ٥ — ٦] « لم ارسل الا الى الخراف الضالة من آل اسرائيل » [متى ١٥ : ٢٤] وفي ختام الانجيل يعرض متى لكل الاوطان رسالة تلاميذ المسيح الاوائل معطيا اياهم من هذا التوجيه « فاذهبوا وتلمذوا جميع الامم » [متى ٢٨ ، ١٩] ولكن ينبغي تفضيل الذهاب نحو « بيت اسرائيل » ويقول أ. تريكو عن هذا الانجيل « من تحت الكساء اليوناني فان الكتاب يهودي لحما وعظما وفكرا . له منه الرائحة والعلامات المميزة » .

هذه الاعتبارات وحدها تضع اصل انجيل متى في تقليد لجماعة يهودية مسيحية كما كتب كولمان :

« انه يجتهد ، وهو يحافظ على الاستمرارية للعهد القديم ، في قطع

---

(١) سنعالج التضاد مع النسب في انجيل لوقا في فصل خاص .

(٢) كانت التوراة والاسفار الخمسة مرجع قانون السامريين الديني . وكانوا ينتظرون ظهور المسيح . وكانوا امناء على اكثر ملاحظات اليهودية . ولكنهم اسسوا معبدا مضارا لمعبد القدس .

الحبال التي تربطه باليهودية وان نقاط الاهتمام في هذا الانجيل ، ولهجته العامة تعبران عن حال متوترة » .

وليست العوامل السياسية ، حسب الظن ، غريبة على النص ، لان الاحتلال الروماني لفلسطين يجعل رغبة البلد المحتل في التمرد قوية والدعاء الى الله مولاه الكبير القادر على كل شيء ، للتوسط لصالح الشعب الذي اختاره من بين الجميع ، والذي يملك كما فعل اكثر من مرة في التاريخ ، مساعدته مباشرة في الاعمال البشرية .

ما هي شخصية متى ؟ ولنقل جملة واحدة ، انه لم يعد مقبولا الآن بان يقال انه احد اصحاب عيسى . ومع ذلك فان أ. تريكو يظهره في شرحه لترجمة العهد الجديد سنة ١٩٦٠ على انه كذلك فيقول : « متى ، اي ليفي ، عشار ، او عامل اميري . كان مستخدما في مكتب الجمرك او المكوس في كفرناحوم عندما استدعاه عيسى ليكون احد تلاميذه » وهذا ما يقوله آباء الكنيسة ، امثال اوريجين ، جيروم ، ايبيفان . بيد ان هذا لم يعد ما نعتقده في ايامنا . ومما لا جدال فيه ان الكاتب يهودي . مفرداته فلسطينية . والانشاء يوناني . انه يتجه كما يقول كولمان « نحو اناس يعرفون مع تكلمهم اليونانية العادات اليهودية واللغة الآرامية » .

ويخيل الى شراح الترجمة المسكونية ان اصل هذا الانجيل هو ما يلي :

« يظن انه كان مكتوبا في سوريا . ويمكن أن يكون في انطاكية [...] او في فينيقيا لانه كان يعيش في هذه المناطق عدد كبير من اليهود [...] (١) ويمكن ان يستشف منه محاورة كتابية ضد اليهودية المعبدية الارثوذكسية للفريسيين كما يتم ظهورها في المجموعة اليهودية في جامينا حول السنوات ٨٠ في هذه الظروف كثير من الكتاب هم الذين يؤرخون الانجيل الاول للسنوات ٨٠ — ٩٠ او قبل ذلك بقليل . ولا يمكن الوصول الى وثوق كامل في هذا الموضوع . فهل يناسب ، نظرا لعدم التعرف بدقة الى اسم الكاتب ، الاكتفاء ببعض الخطوط المرسومة في الانجيل ذاته ؟ فالكاتب يعرف بمهنته ، وهو حال كونه ملما بالكتابات المقدسة والروايات اليهودية ، وعارفا وموقرا وسائلا بقسوة رؤساء شعبه الدينيين ، ومتجاوزا كخبير في فن التعليم وفي تعريف سامعيه بعيسى ، ملحا دوما على العواقب التطبيقية لتعليمه ، يجيب نوعا ما ببيان اديب يهودي ، اصبح مسيحيا وسيد بيت « الذي ينزح من كنزه الجديد والقديم » كما يذكر متى في [١٢ ، ٥٢] . اننا بعيدون جدا عن العامل في مكتب كفرناحوم المدعو ليفي من قبل مرقس ولوقا ، والذي اصبح احد الرسل الاثني عشر .

---

(١) تساءل البعض عما اذا كان يمكن ان تكون طائفة اليهود المسيحيين لمتى قد سكنت الاسكندرية . يذكر هذا الافتراض كولمان بين عديد ..

ان العـــالم كله متفق على أن متى كتب انجيله نقلا عن مصادر مشتركة مع مرقس ولوقـــا . ولكن روايته اختلفـــت ، وفي مســـائل اساسية كما سنراه فيما بعد . ومـــع ذلك فقد استخدم متى انجيل مرقس استخـــداما موسعا ، في الوقت الذي لم يكن فيه تلميذا لعيسى [كولمان] .

ويلاحظ بان متى تصرف بالنصـــوص بحرية جادة فيما يخص العهـــد القديم عند ذكر نسب عيسى الذي صـــدر به انجيله ، فادخل في كتـــابه روايات لا تصـــدق . كما وصفه الاب كننغسر في المؤلف المشـــار اليه سابقا في حادث قيامة عيسى بخصوص الحرس ، وذكر استحـــالة قصة الحراس العسكريين للقبر « هؤلاء الجنود الوثنيون » الذين « لم يذهبوا للتقرير الى رؤســـائهم في التسلسل التدريجي ، بل الى كبـــار الكهنة الذين دفعوا لهم الاجر ليفتروا الاكـــاذيب » وزاد أيضا « وينبغي الامتنـــاع عن الهزء . فقد كانت نية متى محترمـــة جدا لانه يدمج على طريقتـــه احدى المعطيات القديمة للرواية الشفوية في مؤلفه المكتوب . ولكن اخراجه يبقى لائقا « بعيسى المسيح النجم » (١) .

لقد صدر هذا الحكم على متى من عالم لاهوتي كبير هو الاستـــاذ في المعهد الكاثوليكي في باريس .

هذا ويضرب متى ، في روايته لاحداث رافقت موت عيسى ، مثلا اخر لتحرره اذ يقول : « واذا ستار الهيكل قد انشـــق شطرين من الاعلى الى الاسفل وزلزلت الارض وتصدعت الصخور وتفتحت القبور ، فقام كثير من اجســـاد القديسين الراقـــدين ، وخرجوا من القبور بعـــد قيامته فدخلوا المدينة المقدسة وتراءوا لاناس كثيرين » .

ان هذه الفقرة من متى [٢٧ ـــ ٥١ ، ٥٣] لا مثيل لها في الانـــاجيل الاخرى . انا لا نفهم كيف ان اجساد القديسين المعنيين بعثـــت من موتهـــا ساعة موت المسيح [ليلة السبت تقول الاناجيـــل] ولم تخرج من قبورها الا بعد قيامته [في اليوم التالي ليوم السبت حسب نفس المصادر] .

فعند متى نجد تقريبا ابرز المستحيلات التي تقل امكانية الجدال فيها عنها في الاناجيل الاخرى التي جعل أحد كتابها المسيح يقول قاصا في ١٢ ، ٣٨ ـــ ٤٠ حادث آية يونان : (٢)

عيسى وسط كتبة وفريسيين يحدثونه قائلين : « يا معلم نريد أن نرى منـــك آية » فأجابهم « جيل فاسد فاسق (هكذا) يطلب آية ، ولن يجعل له ســـوى آية النبي يونـــان . فكما بقي يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام

---

(١) فيلم اميركي عن عيسى متنكر لتاريخه .

(٢) هوذو النون ، أو يونس . « المترجمون » .

وثلاث ليال ، فكذلك يبقى ابن الانسان في جوف الارض ثلاثة ايـــام وثلاث لبـــال » . [نص الترجمة المسكونية]

وهكذا اخبر عيسى بانه سيبقى في جوف الارض ثلاثة ايام بلياليها . وعليه فقـــد حدد متى ومعه لوقا ومرقس موت ودفن عيسى ليلة السبت . وهو على التاكيـــد ما جعل الاقـــامة في بطن الارض ثلاثة ايام [حسب النص اليوناني] ولكن هذه الفترة الزمنيـــة لا تعني ، الا ليلتين وليس ثلاث ليـــال [حسب النص اليوناني] .

ويسكت شراح الاناجيل غالبا امام هذه الواقعة . امـــا الاب روغيه ، فيبرز الاستحالة لانه يقول بان عيسى « لم يبـــق في القبر » الا ثلاثة ايام [بينها يوم واحد كامل فقط] وليلتان . ولكنه يضيف « ان العبـــارة جامدة ولا تعني غير ثلاثة ايـــام » وانه لما يخيف ملاحظة اتجاه بعض الشراح لاستخدام مثل هذه الحجج التي لا تثبـــت شيئا في الوقت الذي يرضى الفكر فيه بالايعاز بانه يمكن ان تكون مثل هذه الفاجئة ثمرة غلطة كاتب !

وزيادة عما يختص به انجيـــل متى من الاستحالات فانه قبل كل شيء انجيل طائفـــة يهودية ـــ مسيحية ، هي على خلاف مع اليهودية ، وانفصـــال عنها مع بقائها في خط العهد القـــديم ، وله من وجهة نظر تاريخ اليهودية ـــ المسيحية اهميـــة معتبرة .

انجيـــل مرقس

انه اقصر الاناجيل الاربعة واقدمها ، ولكنه ليس كتاب رسول . وكل ما فيـــه انه كتـــاب محرر من تلميـــذ رسول .

لا يعتبر كولمان مرقسا تلميذا لعيسى . ولكنه ينبـــه مع ذلك اولئك الذين يبـــدو لهم ان نسبـــة هذا الانجيل الى الرسول مرقس امر مشكوك فيه فيقـــول : « ان متى ومرقس ما كان ليستخدما هذا الانجيل كمـــا فعلا لو لم يعلمـــا بانه مؤسس حقيقة على تعليم رســـول » . ولكن هذه حجة غير قاطعـــة . ويذكر كولمان ايضا في دعم تحفظه الذي يبديه الروايـــات المكررة في العهد الجـــديد « ليوحنا الملقب بمرقس » ولكن هذه الروايات لا تتضمن ذكر كاتب الانجيل . ونص مرقس ذاته لا يذكر الكاتب .

ولقـــد ساق فقر المعلومات في هذه النقطة بعض الشراح الى اعتماد ما يضحـــك من التفاصيل على انها عناصر ذات قيمة ، مثل هذا التفصيل ، بدعوى أن مرقس هو الانجيلي الوحيد الذي نقل في روايته للالام حـــادث شاب يلبس قطعة قماش ، ولا يلبس ســـواها ، فلما اوقف ترك القطعة وهرب عاريا [مرقس ١٤ ، ١٥ ـــ ٥٢] فقد استخلص البعض من هـــذا ان الشاب المعني ، يمكن ان يكون مرقس « التلميذ الامـــين الـــذي حاول

اللحاق بالمعلم » [الترجمة المسكونية] ويرى البعض الاخر « بهذه الذكرى الشخصية علامة اصالة توقيع مغفل » « مبرهنــا بأنه كان شاهد عيان » (كولمان) .

وفي راي هذا الكاتب « ان عددا من أساليب التعبير تعزز الافتراض بأن الكاتب يهودي الاصل » غير أن وجــود اللكنـــة اللاتينية يوحي بأنه كتب انجيلـــه في روما « انه يوجه الحديث الى مسيحيين لا يعيشون في فلسطين ، ويهتم بان يشرح لهم التعابير الآرامية التي يستعملها » .

والواقع ان الرواية أرادت مستندة الى ختام الرســالة الاولى لبطرس أن تظهر مرقس كرفيــق لبطرس في رومـــا . [هــذا اذا كان بطرس هو كاتبهـــا] لقد كان بطرس قد كتب الى الذين وجـــه اليهم رسالته يقــول : « تسلم عليكم الجماعة المختارة في بابل وكذلك مرقس ابني » (وبابل تعني افتراضا رومـــا) . اننا نقرأ شروح الترجمة المسكونية التي يخيل الينا فيها انه مسموح لنا الاستنتاج بأن الذي كان مع بطرس يمكن أن يكــون مرقس الانجيلي .. فهل مثل هذا التفكير هو الذي دفع بابياس مطران هيارابوليس نحو سنـــة ١٥٠ الى أن ينســـب الانجيل المعني الى مرقس مـــا ، يقول عنه انه كان « مترجم بطرس » وانه كان ايضا مساعد بولس ؟!

في هذه الرؤيـــة يكون توقيت تأليف انجيل مرقس بعد موت بطرس ، اي على اقرب تقـــدير ، ما بين سنة ٦٥ وسنـــة ٧٠ بحســـب الترجمة المسكونية ، وحوالي سنة ٧٠ في نظر كولمان .

ان ذات النص يفسح المجال لبروز عيب كبير لا جدال فيـــه ، انه محرر دون اقل اهتمـــام بالتسلســـل الزمني . وان مرقس يصدر روايته [١ ، ١٦ — ٢٠] بحادث الصيادين الاربعة الذين اغراهم عيسى بمتابعته وهو يقول لهم ببساطة « انكم ستصبحون صيادي بشر » في الوقـــت الذي لم يكونوا يعرفونه . ثم هو يبرز بالاضافة الى ذلك غيابا كاملا للمعقول .

ان مرقس كمـــا قال الاب روغيه « كـــاتب غير ماهر » « انه اسخف الانجيليين طرا » . انه لا يعرف مطلقـــا تأليف قصته ، ويدعم الشـــارح ملاحظته بذكر مقطع ، مخبرا عن مؤسسة الرسل الاثني عشر التي ترجمتها الحرفيـــة ما يلي :

« ثم صعد الجبل ودعـــا الذين ارادهم ، فاقبلوا عليه . فاقام منهم اثني عشر يصحبونه فيرسلهم مبشرين ولهم سلطان يطردون به الشياطين . واقام الاثني عشر وهم سمعان ودعاه صخرا » [مرقس ٣ ، ١٣ — ١٦] .

انه بالنسبة لبعض الوقائع على خلاف مع متى ولوقا كمـــا ذكرنا ذلك سابقـــا بمناسبة آية يونان . بل هو اكثر من ذلك بمناسبـــة آيات عيسى التي اعطاها للناس خلال رسالته يروي حادثة لا تصدق [٨، ١١ — ١٢] .

« فاقبل الفريسيون واخذوا يجادلونه طالبين آية من السماء ليجربوه .

فتنهــد من اعماق نفسه وقال : « ما بال هذا الجيل يطلــب آية ؟ الحق اقول لكـــم : لا يجعل لهــذا الجيل آية . وتركهم وعــاد الى السفينة فركبها وعبر الى الشاطىء المقابل » .

انه تأكيد آت من عيسى نفسه وبنيته بالا يأتــي اي عمــل يمكن ان يبدو خارقا للعادة . ولذلك فان شراح الترجمــة المسكونية للانجيل حين يندهشون من اعلان مرقس بان عيسى لن يعطي سوى آية واحدة هي آية يونان [انظر انجيل متى] يرون « من الغريب » ان يقول مرقس « ان هذا الجيــــل لن تكــون له آية » في الوقت الـــــذي لاحظوا فيه بعد ذلــك « المعجزات التي يقدمها عيسى نفسه كآيات » [لوقا : ٧، ٢٢–١١–٢٠].
ان مجمــل انجيل مرقس معتمد رسميــا بانه قانوني . ومــع ذلك فالقســم الاخير منــه [١٦ – ٩ ، ٢٠] يعتبره الكتــاب المحدثون عملا مضافا . وتشير الى هذا الترجمة المسكونية اشارة قاطعة .

ان هذا القسم الاخير غير موجود في المخطــوطين الكاملين للاناجيل واللذين همــا اكثر قدما [وهما مجموعة الفاتيكان ومجموعــة سينــاء] اللذين يرجعــان الى القرن الرابع . وقد كتب كولمان بهــذا الصدد يقول : « ان مخطوطات يونانية اكثر حداثة وبعض نصوص اضافت الى هذا القسم خلاصـــة رؤى ليست لمرقس ، بل هي مأخوذة من اناجيل اخرى » والواقع ان نصوص هذا القسم الاخير المضاف كثيرة . وفي النصوص مقطــع طويل تارة ، ومقطع قصير اخرى [الاثنان واردان في الترجمة المسكونية] وتارة يكون المقطع الطويــل مقترنا باضافة ، وطورا المقطعان ..

ويفسر الاب كننغسر هذه الخاتمــة بقوله : « لقــد صار الاضطرار الى حــذف هذه الايات الاخيرة اثنــاء التنــاول الرسمي [او في الطليعة العامة] لمؤلفه ، في الجماعة التي ضمنته . والغالب ان متى ولوقا ويوحنا لم يعرفوا يقينــا الجزء الناقص . ومع ذلك فالفراغ لم يكن مسموحا بــه .

ولقــد خلص بعد زمن متاخر ، وبعــد ان انتشرت الكتــابات المتقــاربة لمتى ولوقا ويوحنــا ، الى نتيجة هامة عن مرقس بانه ياخذ المواد من يمين وشمــال لدى الانجيليين الاخرين . وقد يصبح سهلا تجميع عناصر اللغز في تفصيل مرقس [١٦ ، ٩ – ٢٠] فيمكن تكوين فكرة اكثر واقعية عن الحرية التي كان يمارس بها الاسلــوب الادبي للسرد الانجيلي حتى بدايــة القرن الثــاني » .

فيــا له من اعتراف لا عوج فيه عن وجود الممارســة البشريــة في نصوص الكتابات المقدسة تقدمه لنا هذه الافكار من عالم كبير في اللاهوت !!

انجيـل لوقـا

ان لوقـا في نظر كولمان مؤرخ ، وفي نظر الاب كننفسر « قصاص بارع » انه يخبرنـا في افتتاحيته الموجهـة الى تيوفيـل بانه بعد اخرين جمعوا اخبـارا عن عيسى سيكتب بدوره سيرة عن نفس الوقائع مستعينا بهذه الاخبـار ، وبمعلومات الشهود المعـاينين [وهذا يعني انه لم يكن واحدا منهم] وكذلك المعلومات المأخوذة من مواعظ الرسل . فهـو عمل منظم اذن يقدمـه في هذه العبـارات :

« لمـا ان اخذ كثـير من الناس يدونون رواية الاحـداث التي جرت بيننا كما نقلهـا الينا من كانوا منذ البدء شهود عيـان للكلمة ثم صـاروا عاملين لهـا ، رايت انا ايضـا وقد تتبعتها كلها من اصولها غاية التتبع ، ان اكتبها لك مرتبة يا تاوفيلي المكرم لتتيقن صحة ما تلقيت من تعليم » .

ويمكننـا من الاسطر الاولى أن نتبين ما يميز لوقـا عن « الكـاتب السخيف » مرقس الذي سبـق وتحدثنا عن مؤلفـه . فلا خلاف أن انجيل لوقـا عمل ادبي مكتوب باليونانية الكلاسيكية التي لا لحن فيها ولا اخطاء . لقـد كان لوقـا اديبا وثنيا اهتدى الى المسيحية . ويظهر اتجـاهه ازاء اليهود بسرعة ، كمـا يشير الى ذلك كولمـان اذ يقول ان لوقـا يتجاهل الايات الاكثر يهودية لدى مرقس ، ويبرز كلمات عيسى ضد كفر اليهود ، وعلاقاته الحسنة بالسامريين الذين كـان يكرههم اليهود ، في حين ، كان متى يجعل المسيح ــ كما رأينا ــ يطلب من الرسل البعد عنهم . وهذا مثل رهيـب من كثير ، يوضـح لنا ان الانجيليين كـانوا يقولون المسيـح ما يناسب رؤاهم الشخصية فيقدمون لنا بحسن نية اكيدة وبقنـاعة شخصية من كلمات المسيـح ، النص المتفق مع وجهـة نظر الطائفة التي ينتمون اليها .. وكيف يمكن امام مثل هذه الواضحات الانكار بأن الاناجيل لم تكن « كتب النضال » أو « المناسبات » التي تثار ؟ وفي المقابلة بين السلـوك العام لكل من انجيل لوقا وانجيل متى كان الدليل على ذلك !

من هو لوقـا ؟ لقد اريد تعريفه بانه طبيـب حامل لهذا الاسم ذكره بولس في بعض رسالاته . والترجمة المسكونية تشير الى ان « الكثـيرين قد تاكدوا من المهنـة الطبية لكاتب الانجيل من دقة وصفـه للمرضى » . وهذا التقدير مبالغ فيـه ، لان لوقا لم يعط « وصفات » من هـذا النوع بالذات « والمفردات التي يستعملها هي ذاتها التي يستعملهـا كل انسان مثقف في زمـانه » . ولقـد كان يلازم بولس في سفره رفيق اسمه لوقا . فهل هو نفس هذه الشخصيـة ؟! هذا ما يراه كولمان .

هذا ويمكن تقويم تاريخ انجيـل لوقا بتأثير عوامل مختلفة . فهـو قد استعان بانجيل مرقس ومتى . ويبدو كما نقرا في الترجمة المسكونية ، انه

عرف حصـــار القدس وتهدمها من قبل جيش تيتوس سنـــة ٧٠ ، الامر الذي يجعلنا نقدر بان هذا الانجيل اذن متأخر عن هذا التاريخ . غـــير أن الدراسات الحالية تحـدد تحريره بانه كان غالبا ، ما بين سنتي ٨٠ و٩٠ ، وان كان كثيرون ينسـبونـــه الى تاريخ اقدم .

وروايات لوقـــا المتعددة تبرز اختلافات هامة مع روايات هـــامة مع روايات سابقتيـــه . وقد اشرنا سابقا الى بعضهـــا ، والترجمة المسكونية نشير اليها في الصفحة ١٨١ وما بعدهـــا . ويذكر كولمان في كتابه العهد الجـــديد صفحة ١٨ ، روايـــات من انجيل لوقا غير موجودة في غيره ولا يتصـــد بذلك النقاط التفصيلية .

على أن اخبـــار انجيل لوقا عن طفولة عيسى هي خاصة بـــه ، لان متى يختلف معه في سردها ، ولا يذكر مرقس كلمة واحدة عنها .

وهكـــذا فان انساب عيسى لدى كل من متى ولوقا مختلفة ، فالتضاد بـــارز والاستحالة ظاهرة جدا بالنسبة للنظرة العلمية ، حتى اننا سنفرد لذلك فصلا خاصا به ، وانه لواضح بان متى الذي يخاطب اليهـــود يعود بنســـب عيسى الى ابراهيم مرورا بداود . بينما يهتم لوقا الوثني الاصل والمهتدي الى المسيحيـــة ، بارجاعه الى اقدم من ابراهيم . وسنرى اعتبارا من داود ، بان النسبين متضـــادان . كما أن الاختلاف في ســـرد رسالة عيسى واقع في العديد من الموضوعات بين لوقا ومتى ومرقس .

هذا وان مؤسسة سر القربان المقدس [الافخارستيا] التي هي ذات اهمية اســـاسية ، هي ايضا موضـــوع خلافات بين لوقـــا والانجيليين الاخرين (١) . ويقول الاب روغيـــه في كتابه مدخل الى الانجيل [صفحة ٧٥] بان الكلمات التي تتم بها الافخارستيا ، في نفس الوقت الذي حملت الينا فيه من لوقـــا بصورة قريبة جدا من العبـــارة التي يستعملها بولس [الرسالة الاولى الى الكورنثيين ١١ ، ٢٣ — ٢٥] هي في شكل مختلف جـــدا عن شكلها الذي نجدها عليـــه لدى متى [٢٦ ، ٢١ — ٢٩] ومرقس [١٤ ، ٢٢ — ٢٤] شبه المتحدين .

ويسقط لوقـــا كما شهدنا من انجيله في قيامة عيسى حديثا متضادا مـــع ما يقولـــه عنه في اعمال الرسل المعروف بانه كاتبها والتي تشكـــل جزءا لا يتجزأ من العهـــد الجـــديد انه في انجيلـــه يجعل القيـــامة يوم الفصح (٢) وفي الاعمال بعد اربعين يوما . وندرك الى اي شروح غريبة لمفسرين مسيحيين اوصـــل هذا التضاد .

---

(١) ليس من الممكن المقارنة مع يوحنا لانه لا يتكلم عن مؤسسة الافخارستيا في مجـــرى المسرحية السابقة للعاطفة .

(٢) عيد ذكرى خروج اليهود من مصر .

ولكن الشراح الموضوعيين مضطرون لان يعترفوا مثل اصحاب الترجمة المسكونية للتوراة ، وبوجه عام جدا بالنسبة الى لوقا « ان الاهتمام الاول لم يكن لوصف الاعمال في حقيقتها المادية » وان الاب كننغسر مقارنا روايات وأعمال الرسل من عمل لوقا نفسه مع روايات وأعمال مماثلة لبولس عن عيسى القائم من الموت ، أعطى هذا الراي في لوقا فقال « لوقا اكثر الانجيليين الاربعة حساسية وادباً . انه يمثل كل صفات القصاص البارع » .

انجيل يوحنا

يختلف انجيل يوحنا في الاصل عن الثلاثة الاخر الى درجة أن الاب روغيه قال عنه في كتابه « مدخل الى الانجيل » بعد شرح الثلاثة الاوائل ، وبعبارة جامعة معبرة : « انه عالم اخر » انه في الحقيقة كتاب فريد جدا ، اختلاف في النظام العام ، في اختيار الموضوعات والاخبار والخطب ، اختلافات في الاسلوب ، في الجغرافية والتاريخ بل واختلاف في الرؤى اللاهوتية (كولمان) . وهكذا فان يوحنا ينقل كلمات عيسى اذن بشكل مختلف عن الانجيليين الاخرين . وينبه الاب روغيه بهذه المناسبة الى انه في الوقت الذي تنقل فيه اللوائح كلمات المسيح باسلوب « مؤثر اكثر قربا من الاسلوب الشفوي » فانها عند يوحنا في التأمل لدرجة « انا نستطيع أن نتساءل احيانا عما اذا كان عيسى هو الذي يتكلم ، او أن احاديثه قد وسعت دونما شعور من الانجيلي » .

من هو الكاتب ؟ انه سؤال موضوع جدال . اذ الاراء تختلف كثيرا في هذا الموضوع ، فيذهب ا. تريكو والاب روغيه مع الذين لا يداخلهم ادنى شك الى أن انجيل يوحنا هو عمل شاهد عيان . انه يوحنا بن زبدا ، واخو يعقوب الرسول المعروف عنه كثير من التفاصيل المنشورة في المؤلفات العامة . والصورة الشعبية تمثله قريبا من عيسى ، كما في زمن العشاء السري قبل الالام . ومن يتصور أن انجيل يوحنا ليس من عمل يوحنا الرسول الذي عمت صورته الجميع ؟

وكتابة هذا الانجيل الرابع في زمن متأخر ليس حجة مقبولة ضد هذا الموقف . ويظهر أن النص النهائي له ، وقد كتب نحو نهاية القرن الاول . وتحديد موعد الكتابة هذه بعد ستين سنة من المسيح ، يتفق مع وجود رسول في شرخ الشباب زمن عيسى عاش حوالي القرن .

وقد توصل الاب كننغسر في دراسته عن القيامة الى أن أي كاتب من كتاب العهد الجديد ما عدا بولس لا يمكنه أن يدعي انه شاهد عيان لقيامة المسيح . ومع ذلك فان يوحنا يروي الظهور للرسل المجتمعين .

وكان لا بد ان يكــون احدهــم باستثناء توما [٢٠ ، ٩ ــ ٢٤] كما يروي ثبوت الظهور بعد ثمــانية ايام للرسل جميعا [٢٠ ، ٢٥ ــ ٢٩] بينما لا يتخذ كولمان اي موقف في كتابه « العهد الجديد » .

هذا وتؤكد الترجمة المسكونيــة للتوراة ، بأن اغلبية الناقدين لا تتبنى فكرة التحرير من الرســول يوحنــا ، التي لا يمكن ان يكــون الشك فيها مستبعــدا كل الاستبعــاد .

ولكن كل شيء يوحي بأنه كان للنص المنتشر حاليا كتــاب عــديدون « وان من المرجــح ان الانجيل ، كما هو بين ايدينا ، نشره تلاميذ الكاتب الذين اضافوا الفصل [٢١] وبعض الحواشي ، [كما في ٤ ، ٢ . ويمكن، ٤ ، ١ ، ٤ ، ٤٤ ، ٧ ، ٣٧ ب ، ١١ ، ٢ ، ١٩ ، ٣٥] امــا خبر المراة الزانية [٧ ، ٥٣ ــ ٨ ، ١١] فكل الناس يتفقون على انه مقطــع مــن اصل مجهول مدرج فيها بعد [ولكنه مع ذلك جزء من الكتــــابة المقدسة القانونية] .» ان المقطع [١٩ ، ٣٥] يبدو كأنه « توقيع » من «شاهد عيان» (كولمان) ، وهو الشيء الواضح من كل انجيل يوحنــــا . ولكن الشراح يرون بأنه كان في الارجــح مضافا .

ويرى كولمان بان الاضافات اللاحقة جلية في هذا الانجيل مثل الفصل [٢١] الذي قــد يكون عمل [تلميــذ اجرى بعض التنقيحــات في جسم الانجيــل] .

هذا وان الملاحظــات الفريدة المعطــاة من اكبر الكتــاب المسيحيين المذكــورة هنا في مسالة كــاتب الانجيل الرابع تؤكــــد كلها دون مرض الافتراضات الصادرة عن الشراح غموض الامر حول هويته .

ان قيمة اخبــار يوحنا التاريخية كانت موضوع جدال . والخلافات مع الاناجيل الثلاثة الاخرى بارزة . وفي الوقت الذي يقدم « كولمــان » لها تفسيرا ، يعترف ليوحنا برؤى لاهوتية مختلفة عن تلك التي عند الانجيليين الاخرين ، وهذا الهدف « يوجه اختيار الاخبار والكلمات المذكورة ، وكذلك الطريقــة التي بها قد ذكرت . وهكذا فان الكاتب يوسع الاسطر غالبا ، ويقول عيسى تاريخا ما كــان الروح القدس قد اوحى اليه بالذات » وهو سبب الاختلاف في نظر هذا المفسر .

وقد ندرك ، انه كان بامكان يوحنا ، وقد كتب انجيله بعد الانجيليين الاخرين ، اختيار بعض الاخبار الجديرة بخدمة وجهــة نظره . ولا ينبغي الاندهاش بالا نرى عند يوحنا كل ما تحتويــه الروايات الاخرى . فالترجمة المسكونية تحوي عددا من الحــالات من هذا النوع [صفحة ٢٨٢] ولكن الذي يزيــد في الدهشــة هو بعض النواقص ، خصوصا وان البعض منها يبدو بالكــاد قابلا للتصــديق ، كخبر تأسيس الافخارستيا . وكيف يمكن التصــور بان حادثا جوهريــا بالنسبة للمسيحية ، سيصبح عامود الطقوس

الدينيــة ، وهو التداس ، لا يذكره يوحنــا الانجيلي التأملي البارع ؟! ثم هو يكتفي بان يضــف في قصة العشـــاء الذي سبق الالام غسيــل اقدام التلاميذ ، وخبر خيانة يهوذا ، وانكار بطرس له .

وعلى العكس فان هنــاك روايات خاصـــة بيوحنا ، وغير موجودة في الاناجيل الثلاثة الاخرى ، تذكرها الترجمة المسكونية في [صفحة ٢٨٣] . وهنا يمكننــا أن نستنتج ايضا بأن الكتاب الثلاثة لم يكن بامكانهم أن يكشفوا في هذه الوثائق الأهمية التي أمكن يوحنا أن يكشفها . ولكن كيف لا ندهش بأن نجد عند يوحنــا رواية ظهور عيسى القــائم من القبر ، لتلاميذه على صفحة طبريا [يوحنا ٢١ ، ١ — ١٤] التي هي ليست الا اعـــادة مع العديد من التفاصيــل المضافة لرواية الصيــد العجيب المقــدم من لوقا [٥ ، ١ — ١١] كحادث آت اثناء حياة عيسى الحي . وفي هذا الخبر ينوه لوقا بوجود الرسول يوحنا الذي سيصبح الانجيلي حسب التقليد . هــده الرواية من انجيل يوحنا تؤلف جزءا من الفصل [٢١] الذي اتفقنا علــى القول بانه اضافة لاحقة ، ونتصور بيسر ان ذكر اسم يوحنا في رواية لوقا ، كان يمكنها ان تدفع لادراجها بطريقة مصطنعة في الانجيل الرابع ، والضرورة لذلك بتحويل رواية عيسى الحي الى رواية يتيمة لم توقف العابث بالنص الانجيلي .

وثمة خلاف هام اخر بين انجيل يوحنا ، والاناجيل الثلاثة الاخــرى هو مدة مهمة عيسى . فبينما يحددها مرقس ومتى ولوقا بسنة ، فان يوحنا يطيلها الى اكثر من سنتين يذكر « كولمان » هذا الواقع . وتقول الترجمة المسكونية في هذا الموضوع ما يلي :

اما وان اللوائح تذكر فترة طويلة في الجليل ، ملحقة بخطوة اكثــر او اقل طولا نحو بلاد يهوذا ، ثم اخيرا اقامة مختصرة في القدس ، فــان يوحنا يذكر بالعكس عددا من التنقلات من منطقة الى اخرى ويواجه اقامة طويلة في بلاد يهوذا والقدس بخاصة . [١،١٩ — ٥١، ٢،١٣ — ٣،٣٦، ٥،١ — ٢٠،١٤،٤٧ — ٣١] انه يذكر عددا من الاحتفــالات الفصحيــة [٢،١٣،٥،١،٦،٤،١١،٥٥] فيوحى بذلك بمهمة تطول اكثر من سنتين .
فمن يجب علينا ان نصدق اذن ، مرقس او متى او لوقا او يوحنا ؟ !

مصادر الأناجيل

ان النبذة العامة التي قدمناها عن الاناجيل والمنبثقة عن التحليل النقدي للنصوص ، تكون لدينا صورة لادب « غير مترابط ، مفتقر هيكله الى حسن التتابع » كما « يبدو أن ما فيه من تضاد غير قابل للتذليل » وهي عبارات الحكم المتخذ من مفسري الترجمة المسكونية للتوراة ، والذي ينبغي الاستناد اليه ما دامت التقديرات فيهذا الموضوع ذات عواقب خطيرة.

ولقد راينا بان ثمة معلومات عن التاريخ الديني المعاصر لنشاة الاناجيل قد توضح للقارىء المفكر بعض خصائص هذا الادب المضطرب . ولكن لا بد من توسيع النظر ، والبحث فيما قد تعرفنا عليه المؤلفات المنشورة في الفترة المعاصرة عن المصادر التي استمد منها الانجيليون نصوصهم التي كتبوها . كما انه من المهم تحليل ما اذا كان تاريخ النصوص بعد تثبيتها قابلا لتوضيح بعض المشاهد التي تقدمها في هذه الايام .

ولقد عولج موضوع المصادر باسلوب مبسط جدا في عصر آباء الكنيسة . فكانت المخطوطات الكاملة تشهد لانجيل متى بأنه الاول . كما كان يعتبر بأنه المصدر الوحيد لتاريخ المسيحية في القرون الاولى .

وقد طرحت مسألة المصادر فقط بالنسبة لمرقس ولوقا . اما يوحنا فقد كانت له حالة خاصة . وقد كان القديس اوغسطين يرى بان مرقس ، وهو الثاني في الظهور في ترتيب العرف ، قد اقتبس من متى ولخصه ، وان لوقا وقد حل ثالثا في المخطوطات قد استعمل معطيات الاثنين كما هو واضح من مقدمته التي تحدثنا عنها سابقا .

على أن بامكان شراح هذا العصر ايضا أن يقوموا مثلنا درجة تطابق النصوص ، وان يعثروا على عدد كبير من الايات المشتركة بين اثنين او ثلاث من اللوائح . وان شراح الترجمة المسكونية للتوراة ليرقمونها في ايامنا كما يلي على وجه التقريب :

آيات مشتركة بين اللوائح الثلاث ٣٣٠

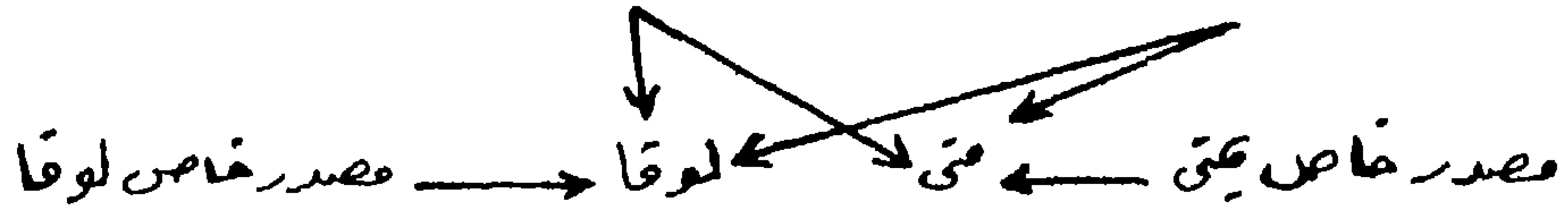
آيات، مشتركة بين مرقس ومتى ١٧٨

آيات مشتركة بين مرقس ولوقا ١٠٠

آيات مشتركة بين متى ولوقا ٢٣٠

بينما يجعلون الايات الخاصة بكل واحد من الانجيليين الثلاثة الاوائل هي ٣٣٠ لمتى و٥٣ لمرقس و٥٠٠ للوقا . وقد مضت الف وخمسمئة سنة منذ آباء الكنيسة حتى نهاية القزن الثامن عشر دون أن تثار أية مشكلة جديدة عن مصادر الانجيليين ، وذلك لانهم كانوا يخضعون للتقليد . وفي العصر الحديث فقط ، تيقن البعض أمام هذه المعطيات بان كل انجيلي ، بعد ان استفاد من المعلومات الموجودة لدى الاخرين . انشأ رواية على طريقته وحسب مرئياته الشخصية . وقد علقت عندئذ اهمية كبرى على مجموعة عناصر الرواية من جهة في العرف الشفوي للطوائف الاصلية ، ومن جهة اخرى من مصدر آخر آرامي عام مكتوب لم يعثر عليه ، كان يمكن أن يؤلف كتلة متماسكة او مركبة من عدة نتف من روايات متنوعة ساعدت كل انجيلي على انشاء كتابه الاصلي .

وقد انتهت منذ قرن تقريبا ، ابحاث معمقة ، الى نظريات اكثر دقة ستتشابك مع الزمن . واول النظريات الحديثة هي تلك المسماة « مصدر هوتزمان » ١٨٦٠ التي تفيد كما يحققه « كولمان » والترجمة المسكونية ان متى ولوقا قد تأثرا بمرقس من جهة ، وبوثيقة مشتركة فقدت اليوم من جهة اخرى . وزيادة على ذلك فقد كان بتصرف كل واحد منهما مصدر خاص ، بحيث ينتهي الامر الى الصورة التالية :



وينتقد « كولمان » هذه الصورة في النقطتين التاليتين :

١ — ان مرقس الذي اقتبس منه لوقا ومتى ليس هو انجيل مرقس بل هو كتاب سابق .

٢ — ليس في هذه الصورة اهتمام كاف بالرواية الشفوية التي تبدو اساسية ، لانها وحدها التي احتفظت خلال ثلاثين او اربعين سنة بكلمات عيسى واخبار رسالته ، في الوقت الذي لم يكن فيه كل انجيلي الا ناقل كلمة الطائفة المسيحية التي ضبطت العرف الشفوي .

وهكذا ندرك ان الاناجيل التي بين ايدينا ، نقلت الينا ما كانت الطوائف المسيحية الاولى تعرفه عن حياة ورسالة عيسى ، كما نقلت الينا اعتقاداتهم وافكارهم اللاهوتية ، وان الانجيليين ما كانوا الا وسائط نقل لذلك .

وقد اوضحت آخر الابحاث الحديثة في النقد النصي عن مصادر الانجيل امتدادا أكثر تعقيدا لتشكيـــل النصوص . وان لائحة الاناجيل الاربعـــة الموضوعة من الابوين « بنوا وبوامار » الاستاذين في المعهد التـــوراتي في القدس [١٩٧٢ — ١٩٧٣] تبرز تطور النصوص في عدة مراحل بالتوازي مع تطور العرف . وهو مـــا يؤدي الى نتائج عرضها « الاب بنـــوا » في هذه الكلمات معرفا بقسم من كتـــاب الاب بوامـــار « [...] ان اشكال الكلمات أو الروايات المستخلصـــة من تطور مديد للعرف ليس لهـــا نفس الصحة التي كانت لتلك التي هي في الاصل . وان بعض قراء هذا الكتاب سيندهشون او سينزعجون عندما يعلمون ان كلمة المسيح تلك أو ان ذلك الرمز ، او ذلك الخبر عن مصيره لم تكن ملفوظة كما نقرؤها نحن . بـــل انها قد نقحـــت ، ثم كيفت من الذين نقلوهـــا الينا . اما بالنسبة الى الذين لم يألفـــوا هذا النـــوع من البحث التاريخي فيمكن ان يكـــون هذا مصدرا للدهشـــة بل للفضيحـــة » .

هذه التنقيحات للنصوص وتكييفها من أولئك الذين نقلوها الينـــا ، قد اجريت باسلوب يقدم لنا « الاب بوامار » صورته المعقـــدة التي هي تطوير للنظرية المسماة ذات المصدرين . وقد وضعت هذه الصورة بعد عمـــل من التحليل والمقـــارنة للنصوص يستحيل تلخيصه . وعلى القارىء الحريص ، للحصول على تفاصيل اكثر ، ان يرجع الى الكتاب الاصلي المنشـــور في باريس من طبعات « دوسرف » .

ان ثمة أربع وثائق اصيلة تسمى أ — ب — ث — ك ؛ تمثل المصادر الاصيلة للاناجيل [انظر اللائحة العامة] .

فالوثيقة أ : ناشئة في وسط يهودي — مسيحي وقد اثرت في متـــى ومرقس .

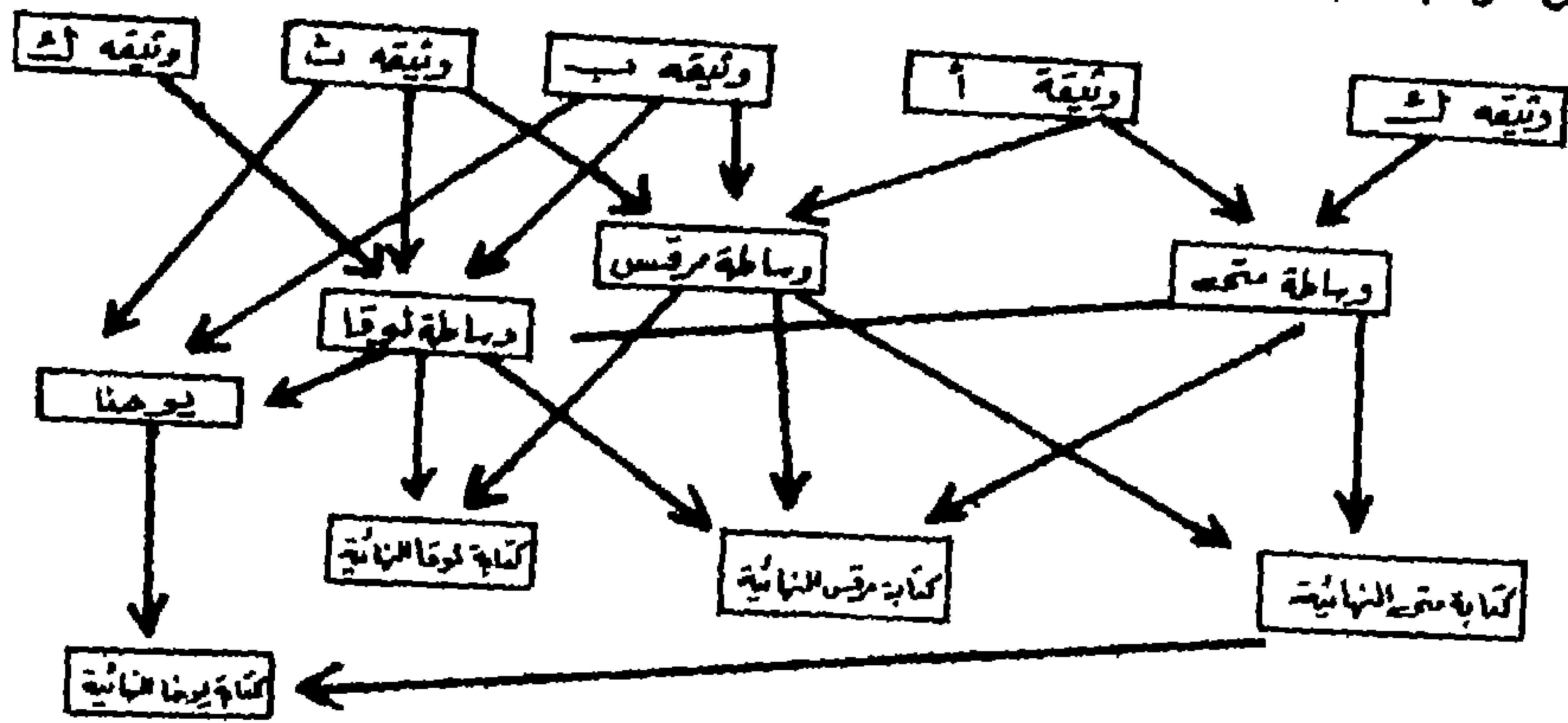
والوثيقة ب : هي اعادة لترجمة الوثيقة أ لاستعمال الكنائس الوثنية — المسيحية وقد اثرت في جميع الانجيليين مـــا عدا متى .

الوثيقة ث : اثرت في مرقس ولوقا ويوحنا .

الوثيقة ك : تؤلـــف اكثر المصادر المشتركـــة بين متى ولوقـــا . انها « الوثيقة المشتركة » للنظرية ذات المصدرين المذكورة آنفا .

على ان واحدة من هذه الوثائق التي اعتمدت كاساس ؛ لم توصل الى النصوص النهـــائية التي بين ايدينا . اذ قد انتصب بينها وبين الكتـــابات النهائية ، كتابات وسيطـــة ، اطلق عليها الكاتب واسطـــة متى ، وواسطة مرقس وواسطة لوقا ويوحنـــا . وهذه الوثائق الاربـــع الوسائط هي التي اوصلت الى الكتابات النهائية للاناجيل الاربعة . كما اثرت في نفس الوقت في الكتابات النهائية المقابلة لاناجيل أخرى . وينبغي الرجوع الى الصورة العامة للحصول على كل الاجراءات المعقدة الموضحة من الكاتب .

ونتائج هذا البحث الكتبي هي من الاهمية بمكـــان . انها تظهـــر بان نصوص الاناجيل ذات التاريخ ، لها ايضا حسب تعبير الاب بوامار «رما قبل التـــاريخ » . ويعني هذا انها اصابها قبل ظهور الكتابات النهائية تعديلات خلال مرحلة الوثائق الوسيطة ، الامر الذي يتضح معه كيف ان حدثا معروفا جيدا عن حياة عيسى ؛ وهو الصيد العجيب مثلا يبرز ؛ كما راينـــا من لوقا كحـــادث وقع وهو على قيد الحياة . بينما يبرز من يوحنا كحادث وقع اكثر من مرة بعد بعثـــه من الموت .



الوثائق أ . ب ، ث ، ك = وثائق اساسية استخدمت في الكتابة .
وساطة متى = الكتـــابة الوسيطة لمتى .
وساطة مرقس = الكتـــابة الوسيطة لمرقس .
وساطة لوقا = الكتـــابة الوسيطة للوقـــا .
وساطة يوحنا = الكتابة الوسيطة ليوحنا .
الكتابات النهائية لمتى = الكتابات النهائية لمتى .
الكتابات النهائية لمرقس = الكتابات النهائية لمرقس .
الكتابات النهائية للوقا = الكتابات النهائية للوقـــا .
الكتابات النهائية ليوحنا = الكتابات النهائية ليوحنا .

وخلاصـة كل هذا ، اننا لدى قراءتنا الانجيل ، لا نوقن باننا نتلقى كلام عيسى . وان الاب « بنـــوا » ليتوجه لقارىء الانجيل ، ويحذره من ذلـــك ، ويقدم له بديلا فيقول : « اذا كان لا بد لاحدنا من التخلي عن سماع الصوت المباشر لعيسى في اكثر من حـــال ، فانه يسمع صوت المعلم الكنيسة ويثق بها وكانها تكلمنا في مجده بعد ان كلمنا قديمـــا عن الأرض » .

فكيف يمكن التوفيق بين هذا التاكيد الصريح عن عدم اصـــالة بعض النصوص . مع عبـــارة الوثيقـــة الايمانية عن الـــوحي الالهي في المجمع الفاتيكاني الثاني التي تؤكد لنـــا على العكس النقل الامين لعبارات عيسى :

« هذه الاناجيل الاربعة التي تؤكد الكنيسة دونما تردد تاريخيتها ، تنقل بأمانة ما كان عيسى ابن الله (١) طيلة حياته قد فعله حقيقة او علمه الناس لخلاصهم الابدي حتى اليوم الذي رفع فيه الى السماء » ويبدو جليا ان عمل المدرسة التوراتية في القدس قد وجه تكذيبا قاسيا الى اعلان المجمع .

تاريخ النصوص

من الخطأ الاعتقاد ، بان الاناجيل منذ البدء كونت الكتابات المقدسة الاساسية للمسيحية الناشئة . وانه قد رجع اليها كما كان يرجع الى العهد القديم . فالسلطة آنذاك كانت للعرف الشفوي الذي كان يحمل كلمات عيسى وتعاليم الرسل . والكتابات الاولى التي كانت متداولة وسيطرت قبل الاناجيل ، كانت رسائل بولس . الم تكن قد حررت قبل بضع عشرات من السنين ؟

لقد رأينا، بانه قبل سنة ١٤٠ لم تكن قد وجدت بعد اية شهادة تثبت معرفة مجموعة من الكتابات الانجيلية ، خلافا لما يكتبه حتى في هذه الايام بعض الشراح . ولم تكتسب الاناجيل الاربعة وصفها القانوني الا بعد سنة ١٧٠ .

وكذلك كان الناس في هذه الايام الاولى للمسيحية يتداولون عن عيسى عددا من الكتابات ، ولكنها لم تحفظ بالتتابع ككتب اصيلة . بل ان الكنيسة قد امرت باخفائها لانها مشكوك فيها . وقد بقي من نصوص هذه الكتب ما احتفظ به الناس لانها كانت « محل تقدير عام » كما تقول الترجمة المسكونية مثل رسالة برنابا . اما غيرها فقد « ابعد بشراسة » مع الاسف ، ولم يبق منه سوى نتف ابعدت من عيون المؤمنين لاعتبارها تحمل الخطأ . ومع ذلك فقد ظلت بعض الكتب ترتبط الى حد بعيد بالاناجيل القانونية منها اناجيل الناصريين ، والعبريين والمصريين المعروفة بروايات آباء الكنيسة ، ومنها انجيل توما وانجيل برنابا .

وقد ذكر بعض من الفوا كتبا في هذه الكتابات المشكوك فيها ، مع الارتياح الظاهر ، تفاصيل مقاطع مضحكة اسطورية من فعل الخيال الشعبي . ولكن مثل هذه المقاطع يمكن العثور عليها ايضا في الاناجيل كافة. ولنتذكر على الاقل وصف متى الخاص لبعض الاحداث التي يدعي وقوعها

---

(١) تعالى الله من ذلك علوا كبيرا وهو القائل : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا ادا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ، ان دعوا للرحمن ولدا، وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولدا . ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا . لقد احصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيمة فردا » . مريم آية ٨٨ ـــ ٩٥ « المترجمون » .

عنـد موت المسيح . انه يمكننا الوقوع على مقاطع تنقصها الجـدية في كل كتابات هذه الازمنـة الاولى للمسيحية . وينبغي أن تكـون لنا نزاهـة الاعتراف بها .

على أن غزارة الكتـابة عن المسيح حملت الكنيسة ، وهي في مرحلة التنظيم على اجراء بعض الحذوفات ، وربما كان مـا حذف منها قريبـا من مئة انجيل ؟ وابقي منها اربعة فقط دخلت في لائحة رسميـة لكتابات العهد الجديد وعرفت بانها « القـانون » .

وفي منتصف القرن الثاني ، دفع « مرقيـون » السلطات الكنسيـة بشـدة لتتخذ موقفا . وكان خصمـا عنيفا لليهود ، رفض اذ ذاك العهـد القـديم كله والكتابات التي تبدو متصلـة به ، السابقة عليه ، او الناشئة من العرف اليهودي ـــ المسيحي . ولم يكن « مرقيون » يعتبر من الاناجيـل بعد كتابات بولس الا انجيـل لوقا الذي كان يعتقد بانه لسان حال بولس .

ولقد اعلنت الكنيسة « مرقيون » هـذا مخطئا ، ثم ادخلـت كـل رسائل بولس في القـانون ، ولكن مع الاناجيل الاخرى لمتى ومرقس ولوقا ويوحنـا . واضافت اليها ايضا رسائل اخرى من اعمال الرسـل . ومع ذلك فان اللائحة الرسميـة تغيرت مع الزمن في هـذه القرون الاولى من التاريخ المسيحي . وفي الـوقت الذي كانـت فيه الكتب التي اعتمدهـا القانون الحالي للعهـد الجديد مستبعدة ، كانت بعض الكتابات التي اعتبرت في زمن متأخر غير مقبولـة « مشكوكا فيها » سارية ولو بصورة مؤقتة . وقـد استمرت هذه الترددات حتى انعقـاد مجمعي هيبون سنـة ٣٩٣ وقرطاجة سنة ٣٩٧ . وظلت الاناجيل الاربعة معتمـدة .

ويرى الاب بوامار ، أن مما يؤسـف له ، غياب كمية ضخمـة من الكتابات التي اعتبرتها الكنيسـة مشكوكا فيها ، وذلك لما فيها من الفائدة التاريخيـة ، وهو يعطيها في الواقع مكانة في لائحة الاناجيل الاربعة الى جانب الاناجيل الرسميـة . ولقد ظلت هذه الكتب موجودة في المكتبات كما يقول حتى نهاية القرن الرابـع .

وهذا القرن هو الذي يمثـل فترة جدية لاقرار التنظيم ، واليه تعود المخطوطات الكاملة لاقدم الاناجيل . اما الوثائق السـابقة من اوراق البردى العائد اكثرهـا الى القرن الثالث وإحداها الى القرن الثاني ، فانها لا تنقل الينـا الا بعض النتف . والمخطوطان الاقدمان المكتوبان على الرق ، هما مخطوطـان يونانيان يعودان الى القرن الرابع ، وهما مجموعة الفاتيكان التي لا نزال نجهل المكان الذي عثـر عليها فيه ، وقد احتفظ بها في مكتبـة الفاتيكـان . ومجموعة سيناء التي عثر علىها في جبل سيناء . ولا تزال محفوظة في المتحف البريطاني في لندن وهي تحتوي على مؤلفين مشكوك فيهما .

ولا يزال يوجد في العالم ، حسب افادة الترجمة المسكونية ، مئتان وخمسون رقا اخر ، كانت معروفة في اواخر القرن الحادي عشر . ولكن « جميع نسخ العهد الجديد التي وصلت الينا ليست واحدة بل يمكن ، على العكس ان نكتشف فيها كثيرا من الفوارق المتفاوتة الاهمية . وعددها على كل حال يلفت النظر . وبعض هذه الفوارق ، تتعلق بتفاصيل نحوية ، او مفردات لغوية او بترتيب الكلمات ولكننا نلاحظ في بعض الاحيان ، بين المخطوطات اختلافات تمس معنى مقاطع كاملة » واذا شئنا التأكد من خلافات نصية ، فيمكننا مطالعة العهد الجديد اليوناني (١) وهو نص يوناني يشكل « وسطًا» جامعًا بين مختلف الفوارق الموجودة في النصوص المختلفة .

ان اصالة اي نص ، قابلة للنقاش حتى ولو كانت للمخطوطات الاكثر مهابة . والمجموعة الفاتيكانية مثل لذلك ، ونسخة مخطوطها مطبوعة من قبل مدينة الفاتيكان سنة ١٩٦٥ ومقرونة بترجمة من نفس الاصل تفيدنا بأنه « بعد مضي عدة قرون على النسخة [اي حوالي القرن العاشر او الحادي عشر كما نظن] اعاد خطاط ، كتابة كل الحروف بالحبر ، ما عدا تلك التي ظنها مغلوطة » وثمة مقاطع من نص ما تزال احرفها الاولى ذات اللون الاسمر واضحة وثابتة ، وتتناقض مع بقية النص المكتوب بالحبر ذي اللون القاتم . ولا شيء يسمح بالتاكيد بان هذا التصحيح كان امينا . على الترجمة ملاحظة تفيد بأنه « لم يتمكن بعد بصورة اكيدة من معرفة مختلف الايدي التي صححت على ممر العصور المخطوطات ، ووضعت الحواشي عليها ، وان بعض هذه التصحيحات قد اجريت على سبيل التاكيد عند مراجعة الخط . وهكذا فان المخطوط ظاهر في كل المختصرات على انه نسخه عائدة الى القرن الرابع . فلا بد من الرجوع الى المصادر الفاتيكانية لكشف ما اذا كانت ثمة ايد قد استطاعت في قرون متأخرة تغيير النص » .

وسيرد على هذا القول بأن نصوصا اخرى يمكن ان تعتمد للمقابلة . ولكن كيف يمكن الاختيار بين المختلفات التي تفسد المعنى وتشوهه ؟ هذا واننا ندرك جيدا ان تصحيحا قديما جدا لخطاط ما يمكن ان يستدعي نسخا نهائيا لنص مصحح كذلك . وسوف نتاكد فيما بعد بان كلمة واحدة من نص يوحنا تعلق بالبارقليط تبدل جذريا معنى المقطع وتحوره بكامله من وجهة النظر اللاهوتية .

واليك ما كتبه كولمان فيما يتعلق بالاختلافات في كتابة العهد الجديد « وينتج عن هذا احيانا اخطاء غير مقصودة ، كأن تسقط من الناسخ كلمة ، او يكتبها على العكس مرتين بالتتابع ، او يغفل عن كتابة جملة بكاملها مسطورة في المخطوط المراد نسخه بين كلمتين متشابهتين واحيانا

(1) Nestlé et A lendéd 1971.

باجراء تصحيحات مقصودة ، وذلك اما بان يسمح الناسخ لنفسه بان يصحح بعض النص حسب افكاره الشخصية ، أو أن يحاول التوفيق بين النص المكتوب ونص مواز له ليقلل قدر الامكان ما فيه من الاختلاف . وبقدر ما تخلصت كتابات العهد الجديد من بقية الأدب المسيحي البدائي اصبحت معتبرة ككتابات مقدسة ، كان ازداد تردد الناسخين بالسماح لانفسهم بمثل هذه الاصلاحات في كتابات الذين سبقوهم ، فقد ظنوا انهم ينسخون الاصلي ، فاثبتوا بذلك المختلفات احيانا . واخيرا ، فقد كان بعض الناسخين يحشي على هامش النص لتوضيح مقطع غامض ، فيأتي الناسخ التالي ويظن أن مثل هذه الكلمة المكتوبة على الهامش كانت منسية عند كتابة المقطع من سابقه ، ويفكر بانه ينبغي اعادتها الى صلب النص . وهكذا أصبح النص الجديد في بعض الاحيان أكثر غموضا .

وقد يتحرر خطاطو بعض المخطوطات احيانا مع النص الى ابعد الحدود، كما كان من ناسخ احد المخطوطات الاكثر مهابة بعد المخطوطين المذكورين آنفا . وهو مجموعة بيزا وكامبردمج العائدة الى القرن السادس . فانه وقد تأكد من الاختلاف في نسب عيسى بين نصي لوقا ومتى ، فقد سجل في نسخته لانجيل لوقا النسب الموجود في نص متى . ولما كان هذا النص يحتوي على عدد من الاسماء أقل ، فقد ملأه باسماء اضافية [دون ان يراعى اعادة التوازن] .

فهل الترجمات اللاتينية مثل ترجمة القديس جيروم [القرن الرابع] والترجمات الاقدم فينوس ايتالا ، والترجمات السريانية والقبطية ، أكثر امانة من المخطوطات ذات الاصل اليوناني ؟! لعلها - كتبت من مخطوطات اكثر قدما من هذه التي ذكرت سابقا ثم فقدت في أيامنا ولا نعلم عنها شيئا .

ولقد نجح البعض بافراد مجموعة هذه النصوص ، كل مع مثيله في فصائل تجمع عددا ما من الخصائص المشتركة ، بحيث أمكن تعيين ما يلي كما يقول كولمان :

١ ــ النص السرياني استندت اليه غالب اقدم المخطوطات اليونانية ، وانتشر انتشارا واسعا في أوروبا ابتداء من القرن السادس عشر ، بفعل المطبعة ، وقد كان الاكثر رداءة كما يقول الاختصاصيون .

٢ ــ النص الغربي بترجماته اللاتينية القديمة ، ومع مجموع بيزوكامبروج المكتوب باليونانية واللاتينية [حسب الترجمة المسكونية فان من خصائصه الميل الواضح الى التفسيرات ، والى عدم الدقة ، والى التأويلات والتوقيعات .]

٣ ــ النص المحايد الذي تعود اليه مجموعتا الفاتيكان وسيناء . انه

يملك صفـــاء كبيرا . والطبعات الحديثة للعهد الجـــديد تبعته راضية رغم انه يحمل هو ايضا بعض النواقص [الترجمة المسكونية] .

كل ما يستطيـــع النقد النصي الحديث تقديمه لنا من هـــذه الوجهة من النظر هو محـــاولة اعادة تأليف « نص يملك اكثر ما يمكن من الخطوط ليكـــون قريبا من النص الاصلي ، وليس واردا على كـــل حال ، ان نامل العودة الى النص الاصلي بالذات » [الترجمة المسكونية] .

الأناجيل والعلم الحديث

انســـاب المسيح

في الاناجيل مقاطع قليلة ، يمكن ان تسوق الى مجابهة مع معطيات العلوم الحديثة . ونقـــول أولا ، ان كثيرا من اخبارها التي تهم الناس ، الخاصة بالمعجزات ، لا يمكن أن تكـــون ذات تفسير علمي ، مثـــل شفاء المرضى « كصرعى الجنون ، أو العمي ، أو الكساحات ، أو البرص ، أو قيـــامة العازار » والعجائب المادية الخارقة لقانون الطبيعة « كسير المسيح على المـــاء ، وتحويل المـــاء خمراً » . وقـــد تكون الظـــاهرة الطبيعية في صورة غير معتـــادة ، لوقوعهـــا في وقت قصير جدا ، كهدوء العـــاصفة المفاجيء ، وتجفيف شجرة التين على التو ، أو الصيد العجيب ، كما لـــو تجمعت كل اسماك البحيرة في مكان معين طرحت فيه الشباك .

في كل هذه الاحداث ، يتدخل الله بقدرته ، فلا ندهش ممـــا هو جدير بفعله مما يبدو للناس معجزات ، وهو ليس كذلك بالنسبة اليه ، ولا تعني هذه الاعتبارات ابدا انه ليس للمؤمن ان يهتم بالعلم . فالايمان بالمعجزة الالهيـــة ، والايمـــــان بالعلم متفقان تماما وان كـــان الاول في المستوى الرباني ، والثاني في المستوى الانساني .

واني شخصيا أؤمن عن طيب خـــاطر ، بان المسيح شفى الابرص ، الا اني لا يمكنني أن اقبـــل بأن يقال ، بان الله قد أوحى بنص ، اقرأ فيه : ان عشرين جيلا قد انقضت فقط بين أول انسان وابراهيم كما يقول لوقـــا في انجيله [٣ ــ ٢٣ ، ٢٨] وسنرى فيما بعد مـــا يؤكد بأن نص لوقا ، كما هو الحال في العهـــد القديم ، في ذات الموضـــوع قد صدر عن المخيلة الانســـانية .

فالاناجيل والقرآن ، تقدم نفس الخبر عن أصول عيسى (١) . فقـــد

---

(١) ان ما ورد في القرآن عن أصول عيسى محصور في انه ابن مريم بنت عمران . وان آل عمران يرجعون في ذريتهم الى ابراهيم الذي يعود ايضا في ذريته الى آدم بهذا الشكل من الاجمال والايجاز ودون ذكر اي تفصيل مما ذكرته الاناجيل حسب افادة الكاتب . فاذا اراد بالاصول هذا ما ذكرناه ، وان مريم قد حملت بكلمة الله دون ان يمسها بشر ، وانه ليس للمسيح اخ ولا اخوات فلا باس . « المترجمون » .

تطورت نشأته في رحم امه بعيدا عن التأثر بقوانين الطبيعة التي تخضع لها كل الكائنات البشرية . والبويضة التي بذرها مبيض أمه ، لم تكن تحتاج الى مادة التناسل التي كان ينبغي أن تأتي من والده لتشكل الجنين ثم الطفل الحي . والعملية التي توصل الى ولادة شخص طبيعي دون تدخل عنصر الذكورة تسمى الاخصاب « بارتينوجونيز » التي يمكن أن تلاحظ في عالم الحيوان في بعض الظروف ، وهي ايضا حالة مختلف الحشرات ، وبعض غير ذوات الفقرات ، وبصورة شاذة بعض فصائل الطيور . وقد تمكن البعض تجريبيا من الحصول لدى ذوات الثديين ، وبخاصة عند الارانب على بداية نمو البويضة دون تدخل مادة التناسل في الجنين وذلك في مرحلة بدائية للغاية ولم يستطع الوصول الى اكثر من ذلك ولم يعرف لديها اية حالة اكتمل فيها الجنين واصبح كائنا حيا . وقد كانت مريم اما عذراء حافظت على عذريتها ، ولم يكن لها من ولد غير المسيح ذي الخلق المعجز الخارق للطبيعة (٢) .

انساب المسيح :

ان نسبي المسيح الوارد احدهما في متى ، والاخر في لوقا ، يطرحان مسائل الصحة والتوافق مع المعطيات العلمية ، ومع الاصالة التي تزعج الشراح المسيحيين لانهم يرفضون النظر اليها على انها من نتاج المخيلة الانسانية ، التي الهمت كتاب سفر التكوين الكهنوتيين في القرن السادس قبل المسيح في تحديد انساب الناس الاوائل ، كما تهم متى ولوقا فيما لم يأخذاه من العهد القديم .

هذا وينبغي ان يلاحظ اولا بان هذه الانساب المتعلقة بالذكور غير ذات معنى بالنسبة للمسيح ، بل انه كان يجب تحديد نسب له ، وهو ابن مريم العجيب ، والذي ليس له اب بيولوجي ، فينبغي ان يكون نسبا لامه مريم . وفيما يلي النصوص حسبما وردت في الترجمة المسكونية للتوراة والعهد الجديد :

---

(٢) تذكر بعض الاناجيل احيانا اخوة لعيسى واخوات : متى ١٣ ، ٤٦ ، — ٥٠ و ٥٤ — ٥٨ ومرقس ٦ ، ١ — ١٦ ويوحنا ٧ ، ٣ ، ٢ ، ١٢ والعبارات اليونانية المستعملة : ادلفوا ، أدلفي . تعني اخوة واخوات في المعنى الطبيعي . ولعل هنا على التأكيد نقصا في الترجمات لكلمات من اصل سامي معناها المماثل دونما زيادة . ولعله يراد هنا الاقرباء .

النسب كما ورد في متى في صدر انجيله :

كتاب اصول عيسى المسيح
ابن داود ، وابن ابراهيم

١ ابراهيم
٢ اسحاق
٣ يعقوب
٤ يهوذا
٥ فارص
٦ حصروم
٧ ارم
٨ عميناداب
٩ نحشون
١٠ سلمون
١١ بوز
١٢ عوبيد
١٣ ايشا
١٤ داود
١٥ سلمان
١٦ روبين
١٧ آبيا
١٨ آصا
١٩ جوزفات
٢٠ يورام
٢١ أوزياس
٢٢ يوثان
٢٣ آثامي
٢٤ حزقيل
٢٥ ماناسا
٢٦ عمون
٢٧ يوزياس
٢٨ زحونياس
٢٩ سلاثيل
٣٠ زورو بابل
٣١ عبيود
٣٢ اليخيم
٣٣ آصر
٣٤ صدوق
٣٥ آخيم

انجب اسحاق
انجب يعقوب
انجب يهوذا واخوته
انجب فارص وزارا وتمارا
انجب حصرون
انجب ارم
انجب عميناداب
انجب غشمون
انجب سلمون
انجب بوز رعد
انجب عوبيد
انجب ايشا
انجب داود الملك
انجب آبيا
انجب روبين
انجب آصا
انجب جوزفات
انجب أوزياس
انجب يوثات
انجب آثاص
انجب حزقيل
انجب ماناسا

انجب عمون
انجب يوزياس
انجب زخونياس واخوته
انجب سلائيل
انجب زورو بابل
انجب عبيود
انجب اليخيم
انجب آصر
انجب صدوق
انجب آخيم
انجب اليود
انجب العازار

٣٦	اليود	انجب	ماثان
٣٧	اليعازار	انجب	يعقوب
٣٨	ماثان	انجب	يوسف خطيب مريم التي ولدت عيسى
٣٩	يعقوب		

وقد وقع النفي الى بابل قبل زخونياس.وما كان بعده من سلالة .

وكامل الانساب هو اذن اربعة عشر من ابراهيم حتى داود ، واربعة عشر من داود حتى النفي الى بابل واربعة عشر من المنفى حتى المسيح (١) .

اما لوقا فانه يقدم لنا نسبا مختلفا عن الذي قدمه متى [٣ ، ٢٣ ، ٣٨] وهو مسوق هنا حسب افادة الترجمة نفسها كما يلي :

« لقد كان لعيسى في بداية امره ثلاثون سنة تقريبا . وكان يظن (٢) بانه ابن يوسف ٢ ، بن هيلي ٣ ، بن مثات ٤ ، بن ليفي ٥ ، بن ملشى ٦ ، بن اياني ٧ ، بن يوسف ٨ ، بن مانياس ٩ ، بن عمون ١٠ ، بن نعوم ١١ ، بن هسلى ١٢ ، بن نجي ١٣ ، ابن ماث ١٤ ، بن مثاثياس ١٥ ، بن سامين ١٦ بن ايوسيش ١٧ ، بن ايواد ١٨ ، بن ايوانان ١٩ ، بن ريسا ٢٠ ، بن زوروبابل ٢١ ، بن سلاثيل ٢٢ ، بن نيرى ٢٣ ، بن ميليخي ٢٤ ، بن عدي ٢٥ ، بن قسم ٢٦ ، بن المادام ٢٧ ، بن عيرين ٢٨ ، بن عيسى ٢٩ ، بن اليعازار ٣٠ ، بن بوريم ٣١ ، بن مثاث ٣٢ ، ابن ليفي ٣٣ ، بن سيمون ٣٤ بن يهوذا ٣٥ ، بن يوسف ٣٦ ، بن ابو نان ٣٧ ، بن الياخيم ٣٨ ، بن ميليا ٣٩ ، بن ميتا ٤٠ ، بن مثاث ٤١ ، بن ناثام ٤٢ ، بن داود ٤٣ ، ابن اليسع ٤٤ ، بن عوبيد ٤٥ ، بن بوس ٤٦ ، بن سالا ٤٧ ، بن تصمون ٤٨، بن عميناباد ٤٩ ، بن أدين ٥٠ ، بن أرني ٥١ ، بن حصروم ٥٢ ، بن فارص ٥٣ ابن يهوذا ٥٤ ، بن يعقوب ٥٥ ، بن اسحاق ٥٦ ، بن ابراهيم ٥٧ ، بن شارا ٥٨ ، بن ناخور ٥٩ ، بن سيروش ٦٠ ، بن راغو ٦١ ، بن فالح ٦٢ ، بن عبير ٦٣ ، ابن سالا ٦٤ ، بن خينام ٦٥ ، بن ارفخشذ ٦٦ ، بن سام ٦٧ ،

---

(١) يخيل للقارىء ان هذا الترتيم خطأ ، بينما هو صحيح لان عدد السلالة كلها هو تسعة وثلاثون . والعدد من ابراهيم حتى داود مع عدهما يبلغ اربعة عشر ومن داود حتى زخونياس مع عدهما اربعة عشر ومن زخونياس حتى عيسى مرورا بمريم مع عدهم اربعة عشر ايضا . المترجمون .

(٢) هو مرفوض اسلاميًا لان عيسى عليه السلام هو الذي تصدى للرد على الناس عندما ارتابوا بوالدته واشارت اليه وقد امرت بالصوم عن الكلام مع الناس ، فقال : « اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا ، وجعلني مباركا اينما كنت واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت عيسى » . وعيسى الذي يقول هذا في طفولته لا يفوته ان مولده كان معجزة ولا يتأتى منه مثل هذا الظن . المترجمون .

بن نوح ٦٨ ، بن لك ٦٩ ، بن متوشلح ٧٠ ، بن اينوخ ٧١ ، بن ايريث ٧٢ ، بن ملاييل ٧٣ ، ابن خينام ٧٤ ، بن انيتوش ٧٥ ، بن شيث ٧٦ ، بن آدم ٧٧ ابن الله ٧٨ » (٣) .

(٣) تعالى الله من ذلك علوا كبيرا . المترجمون

وتبدو هذه الانساب اكثر وضوحا عندما توضح في لائحتين ، تعرض الاولى النسب قبل داود والثانية تعرضه بعده :

ـ اللائحة الاولى ـ

انساب المسيح قبل داود كما وردت في لوقا وبعده

١	ادم	٢٨	ادمين	٥٢	قسم
٢	شيت	٢٩	عميناباد	٥٣	عدي
٣	اينوش	٣٠	نصحون	٥٤	ملشي
٤	خينام	٣١	سالا	٥٥	نيري
٥	ملاييل	٣٢	بوز	٥٦	سلائيل
٦	ايريث	٣٣	بوبذ	٥٧	زورو بابل
٧	اينوخ	٣٤	نسي	٥٨	ربيزا
٨	متوشلح			٥٩	ايونان
٩	لمك		بعدداود	٦٠	ايودا
١٠	نوح			٦١	ايوبيخ
١١	سام	٣٥	داود	٦٢	سمين
١٢	ارفخشد	٣٦	ناثان	٦٣	متاتباس
١٣	خينام	٣٧	متاثا	٦٤	ماث
١٤	سالا	٣٨	مبنا	٦٥	نجي
١٥	عبير	٣٩	ميليا	٦٦	هسلي
١٦	فالج	٤٠	ايلياخيم	٦٧	نعوم
١٧	راغو	٤١	ابيونام		
١٨	سيروش	٤٢	يوسف	٦٨	عموس
١٩	ناخور	٤٣	يهوذا	٦٩	منيانياس
٢٠	شارا	٤٤	سيمون	٧٠	يوسف
٢١	ابراهيم	٤٥	ليفي	٧١	اياني
٢٢	اسحاق	٤٦	مثاث	٧٢	ملشي
٢٣	يعقوب	٤٧	ايوريم	٧٣	ليفي
٢٤	يهوذا	٤٨	اليعازار	٧٤	مثاث
٢٥	فارص	٤٩	عيسى	٧٥	هسلي
٢٦	حصروم	٥٠	عير	٧٦	يوسف
٢٧	ارني	٥١	المارام	٧٧	عيسى

— اللائحة الثانية —

انساب المسيح قبل داود وبعده كما وردت في متى

لم يذكر متى اي اسم قبل ابراهيم		١٩	جوزفات
بعد داود		٢٠	يورام
بعد النفي الى بابل		٢١	اوزياس
		٢٢	يونان
١	ابراهيم	٢٣	آشاط
٢	اسحاق	٢٤	حزقيل
٣	يعقوب	٢٥	ماناسي
٤	يهوذا	٢٦	عمون
٥	فارص	٢٧	يوزياس
٦	حصروم	٢٨	ينحونياس
٧	آرام	٢٩	سالائيل
٨	عميناباد	٣٠	زوروبابل
٩	نصحون	٣١	آبيود
١٠	سلمون	٣٢	ايلياخيم
١١	بوز	٣٣	آصور
١٢	نوبد	٣٤	صدوق
١٣	نسى	٣٥	آخيم
١٤	داود	٣٦	اليود
١٥	سلموت	٣٧	اليعازار
١٦	روبوام	٣٨	ماتان
١٧	آبيا	٣٩	يعقوب
١٨	آصا	٤٠	يوسف
		٤١	عيسى

التباينات حسب المخطوطات وبالنسبة الى العهد القديم

في الوقت الذي نضع فيه جانبا الاختلافات الاملائية يجب أن نذكر ما يلي :

أ — انجيل متى :

اختفى النسب من مجموعة بيزوكامبردج وهي مخطوطات على غاية من الاهمية تعود الى القرن السادس . وهي بلغتين يوناني — لاتيني بصورة كاملة لنصه اليوناني وللجزء الاكبر لنصه اللاتيني . ولكن يمكن ان يكون سبب هذا ضياع بعض اوراقه الاولى .

على انه ينبغي ذكر تحرر متى الكبير من العهد القديم الذي اخذ عنه الانساب لاحتياجات البرهان الرقمي [الذي لم يقم بالادلاء به كما سنرى] .

ب ــ انجيــل لوقــا :

١ ــ انه يذكر قبل ابراهيم عشرين اسما ، بينما لا يذكر العهد القديم منها سوى تسعة عشر [انظر لائحة ذرية ادم في الجزء المخصص للعهد القديــم] وقد زاد لوقــا بعد ارفخشذ [ذي الرقم ١٢] خينام [رقــم ١٣] بينمــا لم نعثر عليه في سفر التكوين كابن لارفخشد .

٢ ــ اننا نجد من ابراهيم حتى داود من أربعة عشر الى ستة عشر اسما حسبما هو وارد في المخطوطات .

٣ ــ من داود حتى عيسى .

والتغيير المهم هو الوارد في مجموعة بيزوكامبردج الذي يعزو الى لوقا نسبــا موضوعا من متى حسب هواه زاد عليه الناسخ خمسة اسمـــاء . والمؤسف ان النسب الوارد في انجيل متى من هذا المخطوط قد اختفى ، فلم يعد بالامكـــان عقد المقارنة .

التحليــل النقدي للنصوص :

اننا هنا امـــام مجموعتين مختلفتين من النسب ، تشترك فيما بينها بشكل اساسي في المرور بابراهيم وداود . ولتسهيل هذا التحليل سنواجه النقد بشطر المجموعة الى ثلاثة اجزاء :

١ ــ من آدم حتى ابراهيــم .

٢ ــ من ابراهيــم حتى داود .

٣ ــ من داود حتى عيسى .

١ ــ مرحلـــة آدم حتى ابراهيم

بما ان متى قد ابتدأ بالنسب من ابراهيم ، فهو هنـــا غير مقصود . ولكن المقصود هو لوقـــا لانه هو وحده الذي يقدم لنا معلومات عن اجداد ابراهيم حتى آدم . وقـــد عثر منها في سفر التكـــوين كما يقال على تسعة عشر من أصل عشرين « الفصل ٤ ، ٥ ، ١١ » .

فهل يمكن أن نتصـــور بانه ليس قبل ابراهيم من انســـاب الكائنات البشرية الا تسعة عشر أو عشرين جيلا ؟! لقد درس هذا الموضوع بمناسبة الحديث عن العهد القديم . واذا شئنا الرجوع الى لائحة ذرية آدم المثبتة حسب سفر التكوين والمتضمنة للملاحظات المرقومة بالزمن والعـــائدة الى النص التوراتي ، فان الواضح أن تسعة عشر قرنا تقريبا قد خلت مـــا بين ظهور الانســـان على الارض وولادة ابراهيم . ولئن كان التقدير حاليـــا ، بان ابراهيم كان يعيش في حدود سنة ١٨٥٠ قبل المسيح فانا نستنتج من ذلك بأن الاشـــارات المقدمة من العهـــد القديم تحدد ظهور الانســـان على الأرض قبل ثمانية وثلاثين قرنـــا من ولادة المسيح . وقـــد تأثر لوقـــا في

انجيله بوضوح بهذه المعطيات فصدم الحقيقة بنقله لها بشكل واضح . وقد رأينا من قبل اية أدلة تاريخية حاسمة اوصلت الى هذا التأكيد .

ولئن كانت معطيات العهد القديم في هذا الموضوع غير مقبولة من هذا الزمان فذلك معقول اذ انها تقع في المجال المتقادم الذي ذكره المجمع الفاتيكاني الثاني واذا كانت هذه المعطيات غير المتفقة مع العلم داخلة في حساب الانجيليين فهذه ظاهرة شديدة الغرابة تجابه المدافعين عن تاريخية نصوص الانجيل .

وقد أحس الشراح بهذا الخطر ، فحاولوا تخفيف هذه الصعوبة بقولهم بانه لا يراد من هذا شجرة نسب كامل ، وان اسماء قد سقطت من بعض الانجيليين . وهذا للتوضيح الموصل الى « الرغبة باثبات سلالة مؤسسة على الصحة التاريخية (١) في خطوطها العريضة او عناصرها الاساسية » .

وليس في النصوص ما يسمح بهذا الافتراض لانه مما لا ريب فيه : ان فلانا ينجب فلانا ، او ان هذا هو ابن ذاك .

على ان الانجيليين فيما يسبق ابراهيم يمتحون مصادرهم من العهد القديم حيث ترد الانساب بالصورة التالية :

فلان في عمر كذا انجب فلانا ، وفلان عاش كذا من السنين وانجب فلانا فليس ثمة من انقطاع . والقسم المتعلق بنسب عيسى السابق لابراهيم ، كما هو وارد في لوقا غير مقبول في ضوء المعارف الحديثة .

٢ ــ المرحلة من ابراهيم حتى داود

تكاد مجموعتا النسب هنا تتفقان فيما عدا اسم او اثنين تقريبا . ويمكن ان توضح ذلك اخطاء الناسخين غير المقصودة .

فهل الصحة هنا هي من جانب الانجيليين ؟

لقد وضع داود في التاريخ حوالي سنة ١٠٠٠ ، ووضع ابراهيم سنة ١٨٠٠ ــ ١٨٥٠ قبل المسيح من اربعة عشر الى ستة عشر جيلا على مدى ثمانية قرون تقريبا . فهل هذا يصدق ؟ !

انا نقول بان النصوص الانجيلية بالنسبة لهذه المرحلة هي في حدود الاشياء المقبولة .

٣ ــ المرحلة اللاحقة بداود

ان النصوص الواردة في الانجيل عن عيسى لا تتلاقى مع الاسف ابدا حسبما هو متصور في تثبيت التقارب النسبي بين يوسف وداود .

ولندع جانبا تحريف مجموعة « بيزوكا مبردج » الصريح فيما يخص لوقا . ولنقارن بين ما ينقله لنا المخطوطان الاكثر احتراما . مجموعة الفاتيكان ومجموعة سيناء .

---

(١) القاموس الصغير للعهد القديم ا. تريكو.

في النسب الذي يسوقه لوقا بعد داود صاحب الرقم [٣٥] حتى عيسى ذي الرقم [٧٧] اثنان واربعون اسما متتالية . وفي النسب الذي يسوقه متى سبعة وعشرون اسما مذكورة بالتتابع بعد داود ذي الرقم [١٤] حتى عيسى ذى الرقم [٤١] فعدد اجداد عيسى [المفترضين] مختلف فيه اذن فيما يسبق داود في كلا الانجيلين . بل ان الاسماء نفسها مختلفة .

يضاف الى ذلك كما يقول متى بانه اكتشف ان نسب عيسى ينقسم اعتبارا من ابراهيم الى ثلاث مجاميع مكونة كل واحد منها من اربعة عشر اسما : المجموعة الاولى من ابراهيم حتى داود . والمجموعة الثانية من داود حتى النفى الى بابل . والثالثة من المنفى حتى عيسى . ويحوى نصه فعلا اربعة عشر اسما في كل من المجموعتين الاوليين . غير انه في المجموعة الثالثة التي هي من المنفى حتى عيسى لا يحوي سوى ثلاثة عشر اسما فقط لأن القائمة ترى ان « شالتيك » هو صاحب الرقم [٢٩] وعيسى هو صاحب الرقم [٤١] فلا يوجد تنويه من متى يذكر اربعة عشر اسما لهذه المجموعة .

واخيرا تصرف متى بنص العهد القديم لينجح بالحصول على اربعة عشر اسما في مجموعته الثانية . ان اسماء ذرية داود الستة الاوائل من [١٥ — ٢٠] متطابقة مع معطيات العهد القديم . ولكنه اخفى بمهارة اسم ذرية « يورم » الثلاثة رقم [٢٠] الذي يقول عنهم الكتاب الثاني التاريخي للتوراة ، بانهم : « اشاسيا » و « يواس » و « امانسيا » . بل ان « جيخونياس » رقم [٢٨] هو عند متى ابن « يوزياس » رقم [٢٧] ولكنه في التوراة في الكتاب الثاني للملوك هو « الياخيم » الذي ينبغي وضعه بين « يوزاس » و « جيخونياس » .

وهكذا يظهر بان متى حرف سلسلة النسب التي في العهد القديم ليقدم سلسلة مصطنعة من اربعة عشر اسما بين داود والمنفى .

واذا كان قد غاب في الواقع اسم من مجموعة متى الثالثة ، في الوقت الذي لا نجد معه لهذا الانجيل نصا حاليا يحوي الاثنين والاربعين اسما المذكورة ، فان الدهشة من وجود الخلل نفسه [بامكان الخطأ القديم الدائم الذي وقع من الناسخ ان يوضحه] تصبح اقل من السكوت شبه العام من المفسرين حيال هذا الموضوع . فكيف يمكن في الحقيقة الا يطلع هؤلاء على الخلل ؟ لقد قطع «تريلنغ» هذا الصمت الورع فخصص له في كتابه «الانجيل» كما هو عند متى (١) سطرا واحدا . وهذا كله يفيد بأن الحدث بعيد عن ان يكون تافها ، لان مفسري هذا الانجيل بمن فيهم مفسرو الترجمة المسكونية ، وآخرين مثل الكاردينال دانييلو يكشفون الاهمية الكبيرة للرمز ثلاث مرات

---

(١) « كلمة وصلاة » Descelée coll.

اربعة عشر عند متى . ولتوضيحه الم يحذف الانجيلي دونما تردد اسماء توراتية بقصد انجاح برهانه المرتكز الى الارقام ؟ !

مهما يكن من امر فان الشراح سيقيمون تبريرا يقينيا يثبت حذف اسماء ويتجاوز الخلل الذي يسقط ما اراد الانجيلي اثباته .

تفسيرات شراح محدثين

يعطي الكاردينال « دانييلو » في كتابه اناجيل الطفولة [١٩٦٧] (٢)، « شجرة النسب المرقمة » عند متى قيمه رمزية ذات اهمية من الدرجة الاولى . لانها هي التي مكنت سلالة عيسى المثبتة ايضا من لوقا . ومتى ولوقا هما بالنسبة اليه « مؤرخان » وضعا « بحثهما التاريخي » حال كون « النسب » « ماخوذا من محفوظات عائلة المسيح » التي هي على التاكيد مفقودة تماما (٣) .

ويلقي الكاردينال « دانييلو » الحرمان على اولئك الذين ينتقدون وجهة نظره هذه «انها كما يقول ـــ العقلية الغربية ؛ وتجاهل اليهودية ـــ المسيحية، وغياب المفهوم السامي ، كل ذلك ضلل الشراح في تفسير الاناجيل . انهم اخرجوا مذاهبهم "الافلاطونية والديكارتية والهجلية ، والهيدجرية ، فكل شيء فيهم مضطربا » . وانه لواضح بان افلاطون وديكارت وهيجل وهيدجر لا دخل لهم في وضع النقد الذي يمكن ان يوجه الى هذه الانساب الموضوعة حسب الهوى .

ولقد استرجع هذا الكاتب مفهوم [١٤] ثلاث مرات ، الذي عند متى ، وتوسع بافتراضات غريبة لا يمكننا الا ان نوردها . يقول : « يمكن الانطلاق من عشرة اسابيع عادية للرؤية اليهودية . فتطرح منها الثلاثة الاوائل المناسبة للزمن المتد من آدم حتى ابراهيم ، فيبقى سبعة اسابيع من السنين . والستة الاوائل من هذه السبعة التي هي ست مرات سبعة تمثل المجموعات الثلاث من الاربعة عشر . اما السابع فانه قد افتتح بعيسى الذي افتتح معه العهد السابع للعالم » مثل هذه التفسيرات في غنى عن اي تأويل !

هذا ويقدم لنا ايضا شراح الترجمة المسكونية للعهد الجديد ـــ اساليب متنوعة لتبرير ذلك تعتمد الارقام في الوقت الذي هي غير منتظرة ، فيقولون في تفسير الرمز الذي يطرحه متى وهو [٣] مرات [١٤].

---

(٢) طبعه دوشوي .

(٣) رغم ان الكاتب يؤكد معرفته بوجود (محفوظات) عائلية من التاريخ الاكليركي لاوزيب قيصر ، التي يمكن ان يكون ثمة فيها كلام كثير ، فاننا نشك بان يكون لدى عائلة المسيح شجرتا نسب تختلف احداهما من الاخرى ضرورة . لان كل واحدة منهما المزعومة انها تاريخية تعرض نسبا مختلفا في اكبر جزء منه مع الاخر في الاسماء ورقم الذرية.

أ ــ اربعة عشر يمكن ان تكون الكمية العددية لثلاثة أحرف غير صوتية ، تشكل اسم داود في العبرية . د : تساوي ٤ و ، و : تساوي : ٦ ومنها ٤+٦+٤= ١٤ .

ب ــ ثلاث مرات اربعة عشر تساوي ست مرات سبعة « وعيسى اطل في الاسبوع السادس من التاريخ المقدس الذي بدأ مع ابراهيم » .

تعطي هذه الترجمة عند لوقا سبعة وسبعين اسما من آدم حتى عيسى . وهو ما يسمح بعودة تدخل الرقم [٧] كقاسم لـ : ٧٧ [٧×١١ = ٧٧] فيظهر اذن ان العدد المتغير بحذف اسماء او باضافة اسماء هو لائحة من سبعة وسبعين اسما ، يبقى لها حتما ميزة الخضوع لهذه الالعاب الرقمية .

ولعل انساب عيسى في الانجيل هي الموضوع الاهم الذي اثار بهلوانيات الشراح المسيحيين الفلسفية البارزة بنسبة تصرفات لوقا ومتى المستندة الى الهوى .

تضادات الروايات واستحالاتها

في كل واحد من الاناجيل الاربعة عدد هام من الروايات ، تقص احداثا يمكن ان تكون خاصة به ، او مشتركة بين عدد من الاناجيل او بينها كلها . وما يختص به انجيل بمفرده قد يطرح احيانا مسائل جدية . كما لو كان الحادث ذا اهمية كبيرة . فالمدهش فيه ان يتكلم عنه انجيل بمفرده كحادث صعود عيسى الى السماء مثلا يوم قيامته من القبر . على ان ثمة عددا من الاحداث رويت مختلفة ، بل ومختلفة جدا احيانا من انجيليين او اكثر . وغالبا ما تكون دهشة المسيحيين من هذه التضادات ــ عندما يعثرون عليها ــ بين الاناجيل ، لانه قد تكرر على مسامعهم التأكيد القوي بان كتابها كانوا شهود عيان لها .

وقد اشرنا في الفصول السابقة الى بعض من هذه الاستحالات والتضادات المقلقة ، ولكن الاحداث الاخيرة التي طبعت بها حياة المسيح وتبعت الآلام موضوع الروايات المختلفة والمتضادة لها وضع خاص .

روايات الآلام

يقول الاب روغيه نفسه بان الفصح في الاناجيل الثلاثة مختلف زمنيا مع عشاء المسيح الاخير مع الرسل ، عنه في الانجيل الرابع . فبينما يضع يوحنا العشاء السري « قبل عيد الفصح » يضعه الثلاثة الآخرون اثناء الفصح نفسه . ويستنتج من هذا اختلاف صريح مع الحقيقة . ولا يمكن قبول هذه الواقعة بسبب وضع عيد الفصح المعين بالنسبة اليه . وعندما نعلم اهمية الفصح في الطقوس الدينية اليهودية ــ واهمية عشاء المسيح الوداعي مع تلاميذه ، فكيف يتصور ان تفقد الذاكرة مركز احدهما بالنسبة الى الآخر في الرواية المنقولة فيما بعد من الانجيليين .

هذا وتختلف روايات الآلام بصورة عامة فيما بين الانجيلين وبخاصة بين الاناجيل الثلاثة الاوائل وانجيل يوحنا . ويشغل العشاء الاخير للمسيح والآلام في انجيل يوحنا حيزا كبيرا يكاد يكون ضعفي الحيز الذي عند مرقس ولوقا . وطول نصه اكبر من الذي عند متى بمرة ونصف المرة . هذا ويروي يوحنا ايضا خطابا طويلا جدا للمسيح الى تلاميذه ، يملأ من انجيله اربعة

فصول [٤ — ١٧] اعطى فيه تلاميذه الذين يودعهم آخر توجيهاتـــــه ، ووصيته الروحية ، بينما لا نجد لذلك اي اثر في الاناجيل الاخرى . بل على العكس فان متى ولوقا ومرقس ، يروون صلاة المسيح في حديقة الزيتون التي لا يتكلم عنها يوحنا ابدا .

غياب رواية تاسيس الافخارستيا من انجيل يوحنا

والحدث الاهم الذي يصدم قارىء قصة الآلام في انجيل يوحنا ، هو انه لا يتعرض لاي ذكر لتأسيس سر الافخارستيا خلال عشاء المسيح الاخير مع الرسل .

وما من مسيحي لا يعرف صورة « العشاء السري » حيث كان المسيح للمرة الاخيرة ، الى المائدة وسط الرسل . وقد ابرز اعاظم الرسامين في هذا الاجتماع الاخير وبالقرب من عيسى يوحنا الذي جرت العادة على اعتباره كاتب الانجيل المعروف باسمه .

ويوحنا الرسول مهما كان مدهشا هذا للكثيرين، ليس معتبرا في نظر اكثرية الاختصاصيين كاتب الانجيل الرابع الذي لم يذكر تأسيس الافخارستيا . وهذا التقديس للخبز وللخمر اللذين يستحيلان جسد المسيح ودمه هو العمل الطقسي الاساسي للمسيحية ، يتكلم عنه الانجيليون الثلاثة الآخرون كما ذكرنا آنفا وان كان بعبارات مختلفة . اما يوحنا فلا يذكر عنه اية كلمـــة . والروايات الاربعة للانجيليين تشترك في نقطتين : خبر جحود بطرس ، وخبر خيانة احد الرسل . [يهوذا غير معين بالاسم الا في انجيلي متى ويوحنا] ويوحنا وحده الذي يروي غسيل عيسى لاقدام تلاميذه في بداية العشاء . فكيف يفسر النقص اذن في انجيل يوحنا ؟ !

اذا فكرنا موضوعيا ، فأول ما يحضر الذهن ، مع افتراض صحـــة رواية الانجيليين الثلاثة الاوائل ، هو افتراض فقدان مقطع من انجيل يوحنا يقص نفس الحادث . ولكن ليس هذا الذي وقف عنده الشراح المسيحيون . ولنحلل اذا بعض المواقف المتخذة .

يكتب أ. تريكو في معجمه الصغير عن العهد الجديد في مادة [العشاء السري] « انه العشاء الاخير الذي تناوله عيسى مع الاثنى عشر رسولا ، واسس اثناءه الافخارستيا . وخبره في الاناجيل المقارنة » [شهادات من متى ومرقس ولوقا] « والانجيل الرابع يقدم لنا تفاصيل مكملة [شهـــادات يوحنا] . ويكتب في مادة « افخارستيا » « تأسيس الافخارستيا مذكـــور باختصار في الاناجيل الثلاثة الاولى ، وكانت في التعليم المسيحي الرسولي نقطة ذات اهمية كبيرة . وقد اعطى القديس يوحنا تكملة ضرورية لهـــذه الروايات الموجزة ، وهو يروي خطاب المسيح عن خبز الحياة [٦، ٣٢، ٥٨] ولم يذكر الشارح بالتالي ان يوحنا لم يرو تأسيس عيسى للافخارستيـــا ، ويتكلم الكاتب عن « التفاصيل المكملة » بانها ليست تفاصيل مكملة لتأسيس.

الافخارستيا [يراد اساسا ، وفي الواقع الاحتفال بغسل اقدام الرسل] . اما فيما يخص « خبز الحياة » الذي يتحدث عنه الشارح وهو اشارة عيسى — خارج « العشاء السري » — الى عطاء الله اليومي من من الصحراء ، وقت خروج اليهود بقيادة موسى فانه موضوع انفرد يوحنا بين الانجيليين فنقله ، وهو بالتأكيد يذكر استطرادا بمناسبة الخبز في المقطع اللاحق من انجيله اشارة المسيح في صورة تحول بخصوص الخبز . ولكن لم يتكلم عن هذا الحادث أي انجيلي آخر .

وهكذا فاننا نندهش من صمت يوحنا عما يرويه الثلاثة الإخرون . وصمت هؤلاء الثلاثة عما بشر به المسيح برواية يوحنا .

وشراح الترجمة المسكونية للتوراة وللعهد الجديد انفسهم ، يعرفون هذا النقص الكبير في انجيل يوحنا ، ولكنهم يجدون التفسير التالي له في رواية تأسيس الافخارستيا فيقولون : « ليس لدى يوحنا بصورة عامة تقدير لاعراف ومؤسسات اسرائيل القديمة ، وهو ما صرفه عن ابراز اصول الافخارستيا في الطقوس الفصحية » فكيف نجر الى الاعتقاد بأن الذي حمل يوحنا على ان لا يتكلم عن تأسيس العمل الاساسي للطقس الديني الحديث ، هو ما لديه من نقص في تقدير الطقس الفصحي اليهودي ؟ !

ان هذه المسألة تزعج المفسرين الى حد ان بعض علماء اللاهوت اجتهدوا في البحث عن شيء من التصورات والوقائع في حياة عيسى المروية من يوحنا تسد مسد الافخارستيا . فهذا «كولمان» في كتابه «العهد الجديد» يقول : « ان معجزة « قانا » تحويل الماء الى خمر ، هذا الشراب الذي كان يفتقر اليه يوم الزفاف [المعجزة الاولى للمسيح التي ينفرد يوحنا بذكرها من بين الانجيليين : ٢ ، ١ — ١٢] . اما معجزة تكاثر الخبز [يوحنا ٦ ، ١ — ١٣] فقد كانت لتلبية حاجة خمسة آلاف شخص من خمسة ارغفة . ويوحنا لم يدل خلال روايته لهذه الوقائع باي شرح خاص . والعلاقة ما كانت الا من تخيلات الشارح . ولا يمكننا كشف سبب الصلة التي ثبتها ، كما اننا نبقى في حيرة عندما يجد نفس الكاتب بان شفاء الكسيح والاكمه يبشران بالمعمودية » وان « الماء والدم النازفين من ضلع المسيح بعد موته ينصهران في شيء واحد » بالعودة الى المعمودية والى الافخارستيا .

ويذكر الاب روغيه بمناسبة الافخارستيا محاولة اخرى للتقريب في كتابه « مدخل الانجيل » فيقول « ان بعض علماء اللاهوت التوراتيين مثل اوسكار كولمان يرون في رواية غسيل الاقدام قبل العشاء السري ما يعادل رمزيا تأسيس الافخارستيا » .

واننا لا نحسن اكتشاف اساس كل هذه المحاولات للتقريب المتصورة من الشراح بقصد حمل الآخرين على ان يتقبلوا بارتياح النقص الاكثر اضطرابا في انجيل يوحنا .

ظهور المسيح المبعوث من الموت

ومثل عظيم للتصرف في الرواية ، ذكر بمناسبة انجيل متى مع وصفه للاحداث غير الطبيعية التي رافقت موت عيسى . والاحداث التي تبعت انبعاثه من الموت ، والتي ستكون مادة للروايات المضادة ، بل والمخالفة للحق من جانب جميع الانجيليين .

ويقدم لنا ، الاب روغيه ، في كتابه « مدخل الى الانجيل ». في الصفحة [١٨٢] امثلة من الغموض والارتباك والتضاد التي تتسم بها الكتابات فيقول :

« ان قائمة النسوة اللواتي جئن الى القبر ليست واحدة في اللوائح الثلاث ، ففي انجيل يوحنا واحدة فقط هي مريم المجدلية ، تتكلم بصيغة الجمع كما لو كانت معها رفيقات : « انا لا نعرف اين دفنوه » ، وفي انجيل متى ان الملك اخبر النسوة بانهن سيرين عيسى في الجليل . وبعد لحظة قدم عيسى فقابلهن عند القبر . وقد احس لوقا بهذه الصعوبة ورتب مصدرها . قال الملك : « تذكرن كيف كلمكن وهو لا يزال في الجليل .. » ولوقا في الواقع لا يذكر الظهور سوى ثلاث مرات .. « يضع يوحنا ثمانية ايام بين ظهور وآخر ويجعلهما في ندوة القدس ، ثم يضع الثالث قرب البحيرة في الجليل . اما متى فلا يذكر سوى ظهور واحد في الجليل » ويخرج الشارح من هذا التحليل نهاية انجيل مرقس التي تتكلم عن الطهور بمراته الثلاثة ، لانه يعتقد بانها كانت « دونما شك من يد اخرى » .

كل هذه الوقائع متضادة مع ذكر ظهور المسيح المتعدد الوارد في رسالة بولس الاولى الى الكورنثيين [١٥ — ٥،٧] لاكثر من خمسمئة شخص مرة واحدة وليعقوب وكل الرسل دون ان ينسى بولس نفسه .

ونذهل بعد هذا مما يثبته الاب روغيه في نفس هذا الكتاب مهاجما « التخيلات والاساطير الصبيانية لبعض الكتابات المشكوك فيها » بمناسبة القيامة . وفي الحقيقة الا تناسب هذه العبارة تماما متى ، بل وبولس نفسه الذي هو في تضاد كامل مع الانجيليين الآخرين في موضوع ظهور عيسى القائم من القبر ؟

هذا ويوجد بالاضافة الى ما سبق تضاد بين رواية اعمال الرسل في كتاب الانجيلي لوقا عن ظهور عيسى لبولس ، وما اعلمنا عنه بولس باختصار الامر الذي قد جر الاب كننغسر الى ان يسجل في كتابه « ايمان بالبعث وبعث للايمان » [١٩٧٤] ان بولس هو « الشاهد العيان الوحيد لقيامة عيسى الذي حمل لنا صوته مباشرة عبر كتاباته (١) لا يتكلم مطلقا عن

---

(١) لم يمكن لاحد من الكتاب الاخرين ان ينسب لنفسه مثل هذه الصفة .

لقائه الشخصي مع المبعوث من الموت ... باستثناء ثلاثة تنويهات ضعيفة واكثر من ذلك ، فامتنع عن وصفها » .

ان التضاد واضح بين بولس الشاهد العيان الوحيد والمشكوك فيه ، وبين الاناجيل . وان اوسكار كولمان ليسجل في كتابه «العهد الجديد» التضادات بين لوقا الذي يحدد ظهور المسيح في بلاد يهوذا ومتى الذي يحدده في الجليل .

اما بخصوص التضاد بين لوقا ويوحنا فلنذكر بان الحادث المروي من قبل يوحنا [٢١ — ١ ، ١٤] عن ظهور المسيح المبعوث من الموت لصيادين على ضفة بحيرة طبريا الذين اخذوا فيما بعد كثيرا من الاسماك حتى لم يعد بامكانهم حملها فيما بعد ، ليس سوى اعادة لقضية الصيد العجيب في نفس محل المسيح الحي المروي من قبل لوقا [٥ ، ١ — ١١] .

ويؤكد لنا الاب روغيه عن هذا الظهور المتكرر في كتابه فيقول : « ان هذا التفكك وعدم الترابط والخليط المشوس جعله يثق بان كل هذه الوقائع تبرهن بان الانجيليين لم يتشاوروا (١) في ذلك مسبقا » . والا لما كانوا عجزوا عن تنسيق كمنجلتهم . ان هذا التفكير غريب . والكل في الواقع استطاعوا ايضا ان ينقلوا بامانة تامة الروايات التي اضفى عليها ثوب القصة — بدون معرفة — من جماعاتهم . فكيف يمكن الا يساق احدنا الى هذا الافتراض امام مثل هذه التضادات وعدم الصحة في سرد الاحداث ؟ !

صعود عيسى

وقد امتدت التضادات حتى نهاية الروايات ، لان كلا من يوحنا ومتى لم يذكر صعود عيسى في الوقت الذي ذكره فيه مرقس ولوقا .

ففي مرقس [١٦ ، ١٩] « قد صعد عيسى الى السماء ، وجلس عن يمين الله » وبدون اي تدقيق في التاريخ بالنسبة الى البعث من الموت . ولكن ينبغي الانتباه الى ان نهاية انجيل مرقس المتضمنة لهذه العبارة غير اصيلة ، لانها نص « مستعار » كما يقول الاب روغيه على الرغم من ان الكنيسة قد اعتبرتها قانونية .

وبهذا يكون لوقا هو الوحيد الذي اورد في نص لا جدال فيه حادث الصعود [٢٤ ، ٥١] « وانفصل عيسى عنهم (٢) وصعد الى السماء » اورده في نهاية رواية البعث من الموت والظهور للاحد عشر . وتفاصيلها توحي بأن الصعود كان يوم البعث من الموت . ولكن لوقا ، وهو الذي يعتقد كل الناس انه الكاتب [١ ، ٢ — ٣] لاعمال الرسل يصف فيها ظهور المسيح المتكرر للرسل بانه كان بين الآلام والصعود فيقول : « لقد كان لهم

---

(١) لا يمكن ان يتصور البعض فعل هذا .

(٢) يعني الاحد عشر رسولا لان يهوذا كان قد مات .

اكثر من دليل بانه خلال اربعين يوما جعلهم يرونه وحدثهم عن ملكوت الله ».
هذا المقطع من اعمال الرسل هو في الاصل لتحديد العيد المسيحي للصعود بانه بعد اربعين يوما من الفصح حيث احتفل بالقيامة . وهكذا فان التاريخ محدد على العكس من انجيل لوقا ، ولا يحققه اي نص انجيلي بعد ذلك .

ولا ريب ان المسيحي عندما يعرف هذا الوضع يضطرب ويقلق لوضوح التضاد . والترجمة المسكونية للتوراة ، العهد الجديد ، تعترف مع ذلك بالوقائع ، ولكنها لا تتوسع بذكر التضاد ، مكتفية بذكر الفائدة التي يمكن ان تكون لهذه الاربعين يوما بالنسبة الى مهمة عيسى .

ان الشراح الذين يبغون تفسير كل شيء ، والتوفيق بين ما لا يقبل التوفيق ، يقدمون لنا في هذا الموضوع ، تأويلات فريدة . فلائحة الاناجيل الاربعة المطبوعة سنة ١٩٧٢ من المعهد التوراتي في القدس تحوى [جزء ٢ صفحة ٤٥١] شروطا طريفة جدا . فقد انتقدت كلمة الصعود بقولها « الواقع ، لم يكن ثمة صعود بالمعنى الجسدي ذاته لان الله ليس مطلقا فوق ولا تحت » ولما كنا نسيء فهم هذه الملاحظة نجدنا مضطرين الى ان نتساءل كيف استطاع لوقا ان يعبر عن ذلك بطريقة اخرى .

على انه في الوقت الذي يرى فيه كاتب الشرح ذلك : « صناعة ادبية » نجد « في الاعمال ، ان المقول بان الصعود كان بعد اربعين يوما من القيامة » فهذه « الصناعة » يقصد بها التذكير بان دور تكرر ظهور عيسى على الارض قد انتهى » ويضيف بأن الثابت في انجيل لوقا ان « الحادث كان في مساء احد الفصح ، لان الانجيلي لا يجعل اية مسافة زمنية بين مختلف الحوادث التي يرويها ، بعد اكتشاف فراغ القبر صباح القيامة ... » « ... اليس ثمة صناعة ادبية يقصد بها ترك فترة ما من الزمن لتكرر ظهور المبعوث من الموت » ؟ !

ان الاحساس بالضيق الناتج عن تأويلات من هذا القبيل هو ايضا اكثر وضوحا في كتاب الاب روغيه الذي يكتشف ... صعودين !

« في حين يتفق الصعود من وجهة نظر عيسى مع القيامة ، فانه لم يكن من وجهة نظر التلاميذ الا عندما امتنع المسيح تماما عن الظهور لهم ليصبح الروح مرسلا اليهم ويبدأ زمن الكنيسة » .

وعلى سبيل الثرثرة الاطرائية يوجه الكاتب تنبيها عاما الى القارىء الذي لا يملك مبادىء المعرفة في الكتابات المقدسة ويعجز عن ادراك دقة برهانه اللاهوتي فيقول : « هنا كما في كثير من الاحوال المماثلة لا تبدو المسألة مستعصية على الحل ، الا اذا تناولنا حرفيا وماديا تأكيدات الكتابات المقدسة ناسين معانيها الدينية . فليس المقصود من الامر اذابة حقيقية الوقائع في رمزية مائعة ، ولكن الحصول على القصد اللاهوتي لاولئك الذين

يكشفون لنا الاسرار وهم يبلغوننا الاحداث الحساسة للامارات المناسبة لتمكن روحنا جسديا » !

احاديث عيسى الاخيرة
وبارقليط انجيل يوحنا

ان يوحنا هو الانجيلي الوحيد الذي نقل في نهاية عشاء المسيح السري وقبل توقيفه واقعة الاحاديث الختامية مع الرسل التي ختمت بخطاب طويل جدا خصص له اربعة فصول من انجيله ، لا نجد اية صلة بها في الاناجيل الاخرى . ومع ذلك ، فان هذه الفصول تعالج عند يوحنا مسائل اوليــة في رؤى المستقبل ذات اهمية اساسية معروضة باسلوب فخم واطار عظيم يتميز بهما هذا المشهد الوداعي بين المعلم وتلاميذه .

وكيف يمكننــا تفسير انعــدام الوجود المطلق لرواية الوداع المؤثرة التي تحتوي وصية المسيح الروحية لدى متى ومرقس ولوقا ؟ ! يمكن ان نطرح على انفسنا السؤال التالي : هل كان يوجد النص ابتداء لــدى الانجيليين الثلاثة الاوائل ؟ هل حذف فيما بعد ؟ ولماذا ؟ ولنبادر الى القــول بأنه لا جواب على ذلك . وسيبقى السر كاملا في هذا النقص الضخم في رواية الانجيليين الثلاثة الاوائل .

ان الذي يسيطر على الرواية هو — وهذا يدرك في حديث عظيم — صورة مستقبل الناس التي نوه عنها عيسى ، وهاجس المعلم بان يوجه الى تلاميذه وبواسطتهم ، الى الانسانية كلها وصايـاه واوامره ، وان يصف بالتحديد من سيكون المرشد الذي يتوجب على الناس اتباعه بعد اختفائه

وانجيل يوحنا هو وحده الذي يعينه بوضوح بالاسم اليوناني بارقليطس الذي اصبح البارقليط باللغة الفرنسية . وهاك حسب الترجمة المسكونيــة للتوراة ، العهد الجديد ، المقاطع الاساسية : « اذا احببتموني فستجتهدون في المحافظة على اوامري ، وسأعود الاب ، وسيرسل اليوم بارقليطا آخر »

ما معنى بارقليط ؟ يوضح معناه النص الذي بين ايدينا اليوم من انجيل يوحنا في هذه الكلمات : « البارقليط هو روح القدس الذي سيرسله الاب باسمي ، وسيعرفكم على كل شيء ، وسيذكركم بكل ما قلته لكم » [١٤، ٢٦] « وسيشهد لي » [١٥ ، ٢٦] « انه فرصتكم حين ذهابي » « وفي الحقيقـة فان البارقليط لن ياتي اليكم اذا لم اذهب . وعلى العكس فاني ان ذهبت فسأرسله اليكم ، وسيدهش بمجيئه العالم وسيفحمه بمادة الخطيئة والعدل والحكم . . . » [١٦ ، ٧ — ٨] « وعندما سيأتي روح الحق ، فسيحملكم على الارض بالحق كاملا لانه لن ينطق عن الهوى ، ولكنه سيقول ما سيسمعه وسيعرفكم بكل ما سيأتي . ولسوف يمجدني . . » [١٦ ، ١٣ — ١٤] .

[للتذكير بان المقاطع غير الموردة هنا من الفصول ١٤ حتى ١٧ من انجيل يوحنا لا تغير مطلقا المعنى العام لهذه الافادات] .

« ولو قرأنا بسرعة النص الفرنسي المثبت لتطابق كلمة بارقليط اليونانية مع الروح القدس فانه غالبا لا يستوقف الانتباه ، فضلا عن ان العناوين الصغرى للنص العام المستعملة في الترجمات وعبارات الشراح الموجودة في المؤلفات المعدة للعامة توجه القارىء الى المعنى الذي تريد الارثوذكسية الطيبة ان تضفيه على هذه المقاطع .

هذا وتبرز عند اقل صعوبة في الفهم والتدقيق توضيحات كالمعطاة من قبل القاموس الصغير للعهد الجديد لـ : أ. تريكو مثلا التي وضعت لذلك. وبامكاننا في الواقع ان نقرأ بقلم هذا الشارح عن موضوع بارقليط ما يلي :

لم يستعمل هذا الاسم او هذا اللقب المنقول من اليونانية الى الفرنسية في العهد الجديد الا من القديس يوحنا : أربع مرات ، عندما نقل خطاب عيسى بعد « العشاء السري » (١) [١٤ ، ١٦ ، و ٢٦ ، ١٥ ، ٢٦ ، ١٦ ، ٧] ومرة في رسالته الاولى [٢ ، ١] وتنطبق هذه الكلمة في انجيل يوحنا على الروح القدس . وفي الرسالة الى المسيح . وقد كانت كلمة « بارقليط » رائجة بين اليهود الهلينيين من القرن الاول بمعنى الشفيع والنصير . [...] وقد اعلن عيسى بان الاب والابن سيرسلان الروح ، وستكون مهمته الخاصة ان يقوم مقام الابن الذي كان له دور المنقذ طيلة حياته الفانية في صالح تلاميذه . وسيأتي الروح ويتصرف كتابع للمسيح ، وبصفته بارقليط او الشفيع القادر على كل شيء » .

يجعل هذا الشرح من الروح القدس اذن المرشد النهائي للناس بعد اختفاء عيسى . فهل يتفق مع نص يوحنا ؟ ! ينبغي ان يطرح هذا السؤال ، لانه أولا يبدو عجيبا أن نتمكن من نسبة الفقرة الاخيرة الواردة آنفا الى الروح القدس . « انه لن ينطق من تلقاء نفسه ، ولكنه سوف يقول ما سيسمعه ، وسيعرفكم على كل ما سيكون » فكأنما يبدو غير قابل للتصور ان تنسب الى الروح القدس قدرة التحدث بكل ما يسمع .. وبقدر ما أعرف ، هذا السؤال الذي يفرض المنطق توجيهه ، لم يكن على العموم هدف شروح .

ولكي تكون لنا فكرة صحيحة في المسالة ، لا بد من الرجوع الى النص الاصلي اليوناني ، وهو ذو اهمية لا سيما وان الانجيلي يوحنا لم يكتب بغير اللغة اليونانية . والنص المعتمد هو نص العهد الجديد اليوناني (٢) .

---

(١) في الحقيقة انه في مجرى العشاء السري وجه المسيح من اجل يوحنا الخطاب الطويل الذي فيه موضوع البارقليط وهو خطاب غير منقول من قبل الانجيليين الثلاثة .

(٢) نستله والان . Nestlé et Aland

ان كل نقد جدي للنص يبدأ بالبحث عن الاختلافات . ويبدو هنا ان في مجموعة المخطوطات المعروفة عن انجيل يوحنا ، لا يوجد مختلف ، قابل لافساد معنى العبارة الا نص المقطع [١٤ ، ٢٦] من الفقرة الشهيرة في اللغة السريانية المسماة [بالمبست] [اي مخطوط من الرق] (١) الذي لا يذكر فيه الروح القدس ، بل الروح فقط . فهل نسي الناسخ ؟ أم انه وجد نفسه بازاء نص للنسخ يدعي ان روح القدس يسمع ويتكلم ، فلم يجرؤ على كتابة ما كان يبدو مستحيلا ؟ ! وليس ثمة مجال في المختلفات للالحاح عليه سوى هذه الملاحظة . اللهم الا تلك الاختلافات النحوية التي لا تبدل شيئا في المعنى العام . والجوهر ان المطروح هنا في المعنى الدقيق لفعلي : « سمع » و « تكلم » ينطبق على كل مخطوطات انجيل يوحنا وهذا هو الحال .

ان فعل « سمع » في الترجمة الفرنسية هو الفعل اليوناني Akouo ومعناه « يدرك الاصوات » وقد اعطى في الفرنسية مثلا كلمة Acoustique وفي الانكليزية Acoustics التي معناها « علم الاصوات » .

وفعل « تكلم » في الترجمة الفرنسية هو الفعل اليوناني Laleo ومعناه العام « يخرج الاصوات » ومعناه الخاص هو « التكلم » وهذا الفعل يرد كثيرا في النص اليوناني للاناجيل ليعرب عن اعلان رسمي لعيسى خلال وعظه . فيبدو اذن ان الاتصال بالناس الذي يمثل ظاهرة منه هنا لا يتبلور مطلقا في ايحاء من الروح القدس . ولكن له خصيصة مادية واضحة بسبب مفهوم اخراج الصوت المتعلق بالكلمة اليونانية التي حددته .

والفعلان اليونانيان Akouo و Laleo يحددان اذن افعالا جامدة لا يمكن ان تختص الا بكائن له آلة السمع وآلة الكلام . ويستحيل تطبيقهما بالتالي على الروح القدس .

وهكذا ، كما هو مبين لنا من المخطوطات اليونانية ، فان نص هذا المقطع من انجيل يوحنا غير مفهوم مطلقا اذا قبلناه بكليته مع كلمتي الروح القدس من فقرة [١٤ ، ٢٦] « البارقليط الروح القدس الذي سيرسله الاب باسمي .. » الخ الجملة الفريدة في انجيل يوحنا التي تثبت الوحدة بين البارقليط والروح القدس .

ولكن اذا حذفنا كلمتي الروح القدس .. من هذه الجملة فيصبح نص يوحنا بتمامه معبرا عن معنى شديد الوضوح . وهذا المعنى مجسد في موضوع ثان بنص اخر من الانجيل وهو نص الرسالة الاولى التي استخدم فيها يوحنا نفس كلمة بارقليط اي ببساطة عيسى كشفيع عند الله (٢)

---

(١) مكتوب في القرن الرابع واكتشف في سينا ١٨١٢ من آنييس .س. لويس وقد سمي باسمه لان النص الاصلي كان مغطى بنص اخر وبامحائه انكشف .

(٢) كثير من الترجمات والشروح وبخاصة القديمة للاناجيل تترجم الكلمة بالمعزي وهو خطأ كامل .

وعندما يقول عيسى كما في يوحنا [١٦ ، ١٤] « سأدعو الله ، وسيرسل لكم بارقليطا اخر » فانه يريد أن يقول بانه سيرسل الى الناس « شفيعا اخر » كما كان هو بالذات عند الله لمصلحتهم أثناء حياته الدنيوية .

وبمنطق كامل ، نجد انفسنا مسوقين الى أن نرى في بارقليط يوحنا كائنا بشريا مثل عيسى موهوبا بطاقة السمع والكلام ، هاتين الطاقتين اللتين يحويهما نص يوحنا اليوناني بوضوح ، فيخبر المسيح اذن بان الله سيرسل فيما بعد كائنا بشريا على هذه الارض ليكون له الدور المحدد من يوحنا الذي هو بكلمة واحدة دور رسول يسمع كلام الله ، ويكرر للناس رسالته . هذه هي الترجمة المنطقية لنص يوحنا اذا شئنا أن نعطي للكلمة معناها الصحيح (٣) .

ووجود كلمتي الروح القدس في النص الذي بين ايدينا اليوم كان حسب التقدير، باضافة لاحقة مقصودة وهادفة الى تحريف المعنى الاساسي للمقطع (٤) ، الذي يخبر بمجيء رسول بعد المسيح يتضاد مع تعليم الكنائس المسيحية الناشئة التي تريد ان يبقى المسيح آخر الرسل .

٦ ـ الخلاصة

ان الوقائع التي نقلناها ، والشروح التي رويناها ، لعديد من افاضل المفسرين المسيحيين دحضت التأكيدات الدينية المتصلبة بارتكازها على الخط الذي تبناه المجمع الاخير المتعلق بتاريخية الاناجيل التي نقلت الينا بأمانة ما كان المسيح قد فعله حقيقة أو علمه . والبراهين التي قدمت كانت من عدة انواع .

ان روايات الاناجيل تثبت أولا وبالذات تضادات بارزة ، فلا يمكننا التصديق بوجود أمرين متناقضين . ولا يمكننا قبول بعض ما لا يصدق . كما لا يمكننا قبول تاكيدات تتجه الى مصادمة معطيات مثبتة تماما من

---

(٣) كذلك كانت احوال الرسل ينشرون رسالتهم ويصدقون من قبلهم . فقد صدق عيسى برسالة موسى ، وصدق محمد برسالة عيسى والقرآن يقول بالنسبة للاول : « .. قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم .. » ويقول بالنسبة الى التالي : « واذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد .. ». « المترجمون » .

(٤) وهذا يفسره الكلام اللاحق للاية التي استشهدنا بها سابقا من سورة الصف ... « فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين . ومن اظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام والله لا يهدي القوم الظالمين . يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون . » الصف ٦ ــ ٨ « المترجمون » .

العلوم العصرية . وان ما تاتي به مجموعتا نسب عيسى اللتان تقدمهما الاناجيل ، من معلومات مضادة للحقائق هي في هذا الموضوع كاملة البيان .

وكثير من المسيحيين يجهلون هذه التضادات ، وهذه الاشياء التي لا تصدق ، والتي تتناقض والعلم الحديث . ويدهشون عندما يكتشفونها ، بسبب تاثرهم بالشروح التي قرأوها ، وهي تقدم لهم بعض التأويلات الحاذقة المركزة على تثبيتها ، يساعدها جو الثناء والاطراء . وثمة أمثلة واضحة جداً ، كانت ثمرة حذق بعض هؤلاء الشراح في تغطية ما يسمونه بحياء « صعوبات » . ومقاطع الاناجيل التي لا اصالة لها ، والتي اعترفت الكنيسة رسميا باعلانها قانونية ، هي في الواقع نادرة جداً .

وقد أوضحت أعمال النقد الحديث للنصوص براي الاب كننغسر معطيات أقامت « ثورة في مناهج التفسير » وأفضت الى « عدم التمسك بحرفية النص » في الاعمال المنقولة في موضوع المسيح من الاناجيل « المكتوبة حسب الظروف » او « المعارك » : ان المعارف الحديثة يكشفها تاريخ اليهودية ــ المسيحية ، والتنافسات بين الطوائف فسرت وجود الوقائع التي تقلق قراء هذا العصر . فلم تعد فكرة ــ الشهود العيان من الانجيليين ــ قابلة للتبني رغم انها ما تزال فكرة العديد من المسيحيين . وثمة دراسات من المعهد التوراتي في التدس للأبوين بوامار وبنوا ، تفيد بان الاناجيل كتبت ، وروجعت وصححت مرات عدة . ثم انهم اخطروا قارىء الانجيل بانه « يجب أن يتنازل في اكثر من حال عن ارادته في سماع الصوت المباشر للمسيح » .

انه لا نزاع في الصفة التاريخية للاناجيل . ولكن هذه الوثائق تعرفنا قبل كل شيء ، وعبر الروايات المتعلقة بعيسى ، بعقلية الكتاب ، حمله كلمة عرف الطوائف المسيحية البدائية الذين يرجعون اليهم ، وبخاصة في النزاعات بين اليهود ــ المسيحيين وبولس . ان اعمال الكاردينال دانييلو تعتبر مرجعا في هذه النقاط .

فكيف ندهش لفكرة تحريف بعض الانجيليين بعض احداث حياة المسيح . وقد كان غرضهم الدفاع عن وجهة نظر شخصية ؟! وكيف ندهش لحذف بعض الاحداث ؟ وكيف ندهش للسمة القصصية في وصف البعض الاخر ؟!

اننا مسوقون لمقارنة الاناجيل بالقصائد القديمة التي تمتدح فيها بطولات الفرسان في أدب القرون الوسطى ، كانشودة رولان التي هي أشهرها ، والتي تقص علينا بأسلوب قصصي ، حادثا حقيقيا . فهل نعلم أنها تقص علينا حادثا اصيلا ، وهو عبارة عن كمين تاذت منه مؤخرة شارلمان ، التي كانت بقيادة رولان في مضيق رونسوفو ؟ هذا الحادث هو من الاهمية الثانوية . وقع في الخامس عشر من آب ٧٧٨ حسب التوقيت التاريخي « ايجينار » . ولقد ضخم ورفع الى مستوى بطولة فذة للسلاح

والمعركـــة في حرب مقدسة . لقد سردت هذه القصة حسب الهوى . ولكنها مـــع ذلك لم تنقص من واقعيـــة احدى معارك شارلمان التي قام بها ليصون حدوده ضـــد محاولات غزوها من شعوب الجوار . وهنا تكمن الاصالة . والاسلوب الشعري للروايـــة لا يمحوها أبدا .

والامر كذلك بالنسبة الى الاناجيل . فاساءة متى استخـــدام الوقائع العجيبة ، والتضادات البارزة بين الاناجيل ، والمستحيلات فيها والتناقضات مع معطيات العلم الحديث . وتغيير النصـــوص المتتابعة ، كل ذلـــك جعل الفكر يذهب الى أن الاناجيل تحوي فصولا ومقاطع ناشئة من مجرد الخيال الانســـاني . ولكن هذه الاخطاء لا تبرر الشك بوجود رسالة المسيح ، لان الشكـــوك لا تحوم الا حول سياقها فقط .

القرآن والأحاديث والعلم الحديث

مثل هذا اللقاء بين القرآن والعلم مدهش حقا وبخاصة عندما سيكون الى التوافق اقرب منه الى الاختلاف . اليس غريبا في هذا العصر مواجهة كتاب دين باعتبارات دنيوية يدعيها العلم في نظر الكثيرين ؟ الواقع ان العلميات ما عدا بعض الاستثناءات بالطبع ، لا تهتم غالبا بالمسائل الدينية، بل تزدريها لانها تعتبرها مرتكزة على الاساطير . وبالاضافة الى ذلك فانه يراد بالمدين ، عندما يتكلم في بلادنا الغربية عن العلم والدين ، اليهودية والمسيحية فحسب ، دون ان يكون للاسلام فيه نصيب ، لانه قد حكم عليه بكثير من الحكام المفتراة المستندة الى مفاهيم مضلله ، يصعب معها في ايامنا تكوين فكرة صحيحة عما هو حقيقة .

ولا بد قبل عقد المواجهة بين الوحي الاسلامي والعلم ، من اعطاء صورة عن دين ساءت معرفته في بلادنا .

ان الاحكام الضالة كل الضلال ، التي صدرت في الغرب بحق الاسلام كانت وليدة الجهل احيانا ، أو نتيجة التهجم التلقائي . وافظع هذه الضلالات انتشارا هي المتعلقة بالوقائع . فاذا كان بالامكان عذر الاخطاء الناتجة عن سوء التقدير ، فلا سبيل الى ذلك مع ما يتناقض مع الحقيقة .

وانه لمما يخيف أن نقرأ في المؤلفات الرصينة ، الصادرة عن كتاب من الدرجة الاولى في الاختصاص مناقضات للحقيقة في غاية الجلاء . ونقدم لك مثلا منها ، في دائرة المعارف العالمية ، المجلد السادس مادة « اناجيل » اشارة الى الخلافات مع القرآن . يقول الكاتب : « ان الانجيليين [...] لا يدعون [...] مثل القرآن نقل سيرة عجيبة مملاة من الله على الرسول ... » فالقرآن ليس بالسيرة . انه موعظة . والرجوع الى اسوا الترجمات يستطيع اظهار ذلك للكاتب . وهذا التاكيد هو ضد الحقيقة كما لو اكد الانجيلي ان الانجيل رواية حياة انجيلي . ان المسؤول فى هذا الخطأ عن القرآن ، هو استاذ في كلية اللاهوت اليسوعية في ليون ، فاصدار مخالفات للحقيقة من هذا النوع يسهم في اعطاء صورة باطلة عن القرآن وعن الاسلام .

ومع ذلك فهناك مبررات للامل ، لان الاديان اليوم لم تعـد ، كما كانت من قبل ، منطـوية على نفسها . بل ان كثيرا منها يحاول ان يحقق ادراكا مشتركا وتفكيرا موحدا . وكيف لا نتاثر مما نجـده في أعلى مستـويات الكهنوتية المسيحية الكاثوليكية من السعي الى تثبيـت اللقاء مع المسلمين محاولة محاربة سوء الفهم . والاجتهـاد في تعديل الرؤيـة غير الصحيحة المنتشرة عن الاسـلام ؟

لقد عرفت في مقدمة هذا الكتاب بالتبدل العظيم الذي طرا في السنوات الاخيرة . وذكرت وثيقة صادرة عن أمانة سر الفاتيكان موجهـة الى غير المسلمـين مصدرة بالعنوان التـالي : « اتجاهات لحـوار بين المسيحيين والمسلمين » وانها وثيقة بليغـة المعنى عن المواقف الحديثة المتخـذة تجاه الاسلام . انهـا تلح ، ولنقرأ ، في الطبعـة الثالثة سنة ١٩٧٠ لهـذه الدراسة « على مراجعة المواقف تجاه الاسلام وعلى نقد احكامنا » « يجب أن نهتم أولا وتدريجيـا بتغيير فكر اخوتنا المسيحيين . وهذا يهمنا قبل كل شيء » وينبغي التخلي عن « الصـورة الباهتة الموروثة عن المـاضي ، او المشوهـة بالمزاعم الباطلـة والافتراءات » « والاعتراف بالظلامـات التي اجترحها الغرب بحق المسلمين (١) » ان وثيقة الفاتيكان التي هي عبارة عن مئة وخمسين صفحة تفيض بتفنيد الرؤى التقليدية التي كانت للمسيحيين عن الاسـلام وتعرض ما هو حقيقـة .

وتحت عنوان « علينـا أن نتحرر من اضخم مزاعمنا الباطلة » وجه كتاب هذه الوثيقة هذه الدعـوة الى المسيحيين : « وهنا ايضا ينبغـي أن نخضع افكارنا لتزكية عميقـة . وان نفكر بالخصوص في بعض الاحكـام المسبقة التي ننقلها غالبا وببسـاطة عن الاسلام . ويبـدو اساسيا ان لا نمارس في سرنـا اجترار هذه النظريات السريعـة ، بل الجزافية التي لا يتعرف فيها المسلم الصحيح على نفسـه .

واحدى هذه النظريات الجزافية الشائعة هي تلك التي ادت بنـا الى أن نستعمـل في لغتنا بصورة رسمية لفظة « الله » قاصدين بها « الـه » المسلمين ، كما لو كان المسلمون يؤمنون في اله هو غير اله المسيحيين . ان لفظـة « الله » في العربية تعني الالوهيـة الواحدة . وهـو معنى لا يستطيع النقـل الفرنسي الدقيق ترجمته الى المعنى الصحيح للكلمـة الا

---

(١) كل صورة من صور التعدي على الاسلام ، حتى ولو كانت من خصوم معروفـين للمسيحية تقبل في عصر ما الاستحسان الشديد من اعلى المستويات في الكنيسة الكاثوليكيـة . حتى ان البابا بينوا الرابع عشر المشهور بانه الحبر الاعظم في القرن الثامن عشر ، لم يتردد في ان يرسل بتبريكه الى فولتير وقد أراد شكره على اهدائه له ماساته « محمد » او التعصـب ١٧٤١ . وهي مسرحية سخلة يستطيع ان يكتب مثلهـا اي كاتب تتوفر له بذاءة كافية وقد لقيت على الرغـم من ذلك ترحيبا ودخلت في التراث الكلاسيكي الكوميدي الفرنسي .

بمساعدة لفظه « الاله » . والله هو بالنسبة الى المسلمين نفس اله موسى وعيسى .»

ان وثيقة امانة سر الفاتيكان عن غير المسلمين ، تلح على هذه الناحية الاساسية في هذه الكلمات :

« انه يبدو باطلا أن ندعم ، مع بعض الغربيين القول بأن الله ليس في الحقيقة هو « الاله » « Dieu » . وقد عززت النصوص المجمعية صحة هذا . والحق انه لا يمكن تلخيص العقيدة الاسلامية في الله باحسن من هذه العبارات من وثيقة « نور العالم » (١) فالمسلمون الذين يؤمنون بعقيدة ابراهيم ، يعبدون معنا الاله الواحد الرحيم ديان الناس في اليوم الاخر » .

ومن هنا نفهم الاعتراض الاسلامي على العادة المنتشرة في القول في اللغات الاوروبية التي تفرق بين لفظه الله ولفظه « الاله » « Dieu » وأن بعض رجال الفكر الاسلامي قد أثنوا على ترجمة الدكتور ماسون (٢) للقرآن لانه كتب كلمة « الاله » (ديو) لا كلمة « الله » .

ونص الفاتيكان يلاحظ أن كلمة « الله » هي اللفظة العربية الوحيدة التي يمكن أن تفيد معنى لفظه « الاله » (ديو) عند المسيحيين . فالمسلمون والمسيحيون يعبدون الاها واحدا (٣) .

ثم ان مما عالجته الوثيقة الفاتيكانية ايضا ، نقد الاحكام الاخرى الخاطئة التي حملت على الاسلام فعالجت « قدرية الاسلام » وهو حكم مسبق ومنتشر ، واستشهدت بآيات من القرآن المؤيدة وقابلتها كلها بمعنى المسؤولية الانسانية التي تتحمل تبعة الافعال . وكشفت خطأ التصور بأن الاسلام دين المظاهر القانونية ، وقابلته على العكس ببيان صفاء العقيدة وسلامتها . وأوردت آيتين من القرآن مجهولتين جدا من الغربيين وهما : « لا اكراه في الدين » آية ٢٥٦ سوره ٢ و « ما جعل عليكم في الدين من حرج » سورة ٢٢ آية ٨٧ (٤) .

وتقابل الوثيقة ايضا الفكرة الذائعة عن الاسلام بأنه دين الخوف ، بتلك التي تقول بأنه دين الحب ، حب الغير ، المتأصل في العقيدة في

---

(١) هو عنوان وثيقة من المجمع الفاتيكاني الثاني ١٩٦٢ — ١٩٦٥ .

(٢) نأمل ان يتنبه اصدقاؤنا الغربيون من رجال الفكر وسواهم الى ان الترجمة هي في الحقيقة لمعاني القرآن وليست له لاستحالة ذلك . بدليل اختلاف المترجمين فضلا على اختلاف لغة الاصل عن اللغة المنقول اليها (المترجمون) .

(٣) لا نظن هذا التعبير دقيقا والا فلماذا يقول الله تبارك وتعالى : « سبحان الله عما يصفون » ويقول : « فتعالى عما يشركون » !! « المترجمون » .

(٤) يلاحظ هنا ان الكاتب ترجم هذه الاية بان الله لم يجعل في الدين من حرج . وفي هذا مالا يتفق مع المعنى الاصلي للاية . لان الخطاب فيها موجه الى المؤمنين وهم الذين لم يجعل عليهم في الدين من حرج . اما من سبقهم فقد كان ذلك وبخاصة اليهود (المترجمون) .

الله . كمـا تفند الفكرة الرائجة باطلا ، والتي تهدف الى وصم الاسـلام بانه خال من النظـام الاخلاقي تلك التي يسـاهم فيها عـديد من اليهود والمسيحيين التي مآلها تعصـب الاسلام وذلك بما شرحته بالعبارات التالية :
« والواقـع أن الاسلام لم يكن يومـا اكثر تعصبا في مجرى تاريخـه من المدن المقدسـة المسيحية عندما كان للايمـان المسيحي نوع من القـدر السياسي » . وهنا يورد الكتـاب عبارات من القرآن توضح ان مـا كان يترجمه الغربيون خطـأ « بالحرب المقدسـة » (٥) هو ما يعبر عنه في العربية « بالجهاد في سبيل الله » « الجهـاد لنشر الاسـلام والدفاع عنه ضـد المعتدين » وتتابع الوثيقة الفاتيكانيـة فتقول : « ان الجهـاد ليس « الحريم التوراتي » ولا يتجه الى الابـادة ابدا ، ولكن لنشر شرائع الله وحقوق الانسان في المقاطعات الجديدة » « لقد كانت مظاهر الشـدة في الجهـاد في الماضي تتبع غالبا قوانين الحرب . ولم يكن المسلمـون أيام الصليبيين هم الذين يرتكبـون دوما اكبر المجازر » .

وتتكلم الوثيقـة اخيرا عن الذي جعل من الاسـلام « دينا رجعيا منكمشـا صير اتباعه في تخلف طيلة العصور الوسطى ، وافقدهم القـدرة علـى استيعاب المكاسب الفنية في العصر الحديث » ثم تقارنهـا باوضاع مشابهة تلاحظ في بلدان مسيحية وتعلن « اننا نجد في نضج الفكرةالاسلامية التقليدية اساسا لتطور ممكن للمجتمع المتمدن » .

ان هذا الدفاع عن الاسلام من الفاتيكان سيدهش دونما ريب كثيـرا من المعاصرين المؤمنين سواء كانوا مسلمين او يهودا او مسيحيين . انـه مظهر صدق وفكر منفتـح يتناقض تماما مع المواقف التي خلت . ولكن كـم هو عدد اولئك الغربيين الذين تنبهوا الـى هذه المواقف الجديدة التـي اتخذتها سلطات الكنيسة الكاثوليكية العليا .

وتقل الدهشة عندما نعرف باي الافعال ختـم هذا التقارب . لقـد كان اولها الزيارة الرسمية التي قام بها رئيس أمانة الفاتيكان العامة لغـير المسلمين لعاهل الجزيرة العربية السعودية الملك فيصل . ثم استقبال البابا بولس السادس كبار علماء الجزيرة العربية رسميا خلال سنة ١٩٧٤ . ومنذ ذلك الوقت يتجلى سمو المعنـى الروحي لاستقبال المطران الشنجر كبـار

---

(٥) كثير من ذوي الشهرة العظيمة من مترجمي القرآن لم يفلتوا من هذه العادة المقدسة من ان يضعوا في ترجماتهم ما ليس موجودا في الواقع في النص العربي . وفي الواقع يمكن دون اسناد النص بالذات زيا دة العناوين غير الموجودة في الاصل . وهذه الزيادة تحور المعنى العام. وهكذا فعل بلاشير في ترجمته المشهورة ، فقد ادرج عنوانا غير موجود في القرآن ، وهو (فروض الحرب المقدسة) في صدر مقطع هو لا شك نداء لحمل السلاح ، ولكن ليست له الصفـة التي اعطيت له . فكيف بعد هذا يستطيع القارىء الذي لا يملك الاتصال بالقرآن الا بواسطة الترجمة الا يقتنع بان المسلمين مفروض عليهم شن الحرب المقدسة !!

العلمـــاء في كاتدرائية في استراسبورج وطلبه اليهم خلاله بان يؤدوا صلاتهم داخل هيكلها حيث اتجهوا جميعا من امام المذبـــح الى مكة .

لئن كان ممثلو العالمين الاسلامـــي والمسيحي من اعلى مستـــوى ، في الايمان بذات الاله ، والاحترام المشترك لاختلافاتهم ، يتفاهمون لعقد حـــوار ديني ، اليس طبيعيا امكان تلاقي صور اخرى لكـــل من هذين الوحيين .

ان موضوع هذا التلاقي هنا هـــو اختبار الكتابات المقدسة في ضـــوء معطيات العلوم والمعارف المتصلة باصالة النصوص بالنسبة للقرآن كما كان للوحي اليهودي ـــ المسيحي .

هذا ولم تكن العلاقات بين الاديان والعلم واحدة في كل مكان وزمان ، لان الواقع انه لم يكن من اية كتابة لاي دين وحداني تقبيح للعلم . ولكـــن ينبغي الاعتراف بان ارباب العلوم في الممارسة تنازعوا مع السلطات الدينية في بعض المذاهب . فقد تصدت بعض السلطات المسؤولة في الوسط المسيحي وخلال قرون عديدة عفويا ودون الاستناد الـــى نصوص اصيلة من الكتابات المقدسة الـــى انتشار العلوم ، واتخذت ضد اولئك الذين كانوا يحاولـــون دفعها الـــى التقدم ، التدابير التي نعرفها والتي كثيرا ما انتهت ببعض رجال العلم الـــى المنفى اذا شاؤوا تجنب التعذيب الا اذا ندموا وصححوا موقفهم وطلبوا العفو والغفران . ونذكر بهذه المناسبة دائما حالة خصومة غاليلـــي الذي لوحق لانـــه اعلن اكتشافات كوبرنيك في موضوع دوران الارض ، فقد حكم عليـــه بموجب تفسير ضال للتوراة ، اذ لا يمكن استعمـــال اي كتابة مقدسة ضده .

لقد كان موقف الاسلام على العموم تجاه العلم مختلفا . وليس ثمـــة أوضح من حديـــث الرسول القائل : « اطلب العلم ولو في الصين » وغـــيره الذي يفيد بأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . وسنرى في هذا الجزء من الكتاب أن القرآن الذي يدعو الـــى تطوير العلم ، يحوي العديـــد من النظرات عن احداث طبيعية مع تفصيلات موضحة لها تبدو شديدة الاتفاق مع معطيات العلم الحديـــث . وليس في الوحي اليهودي ـــ المسيحي مثيـــل لهـــذا النوع .

بيد أنه من الضلال الاعتقاد بان بعض المؤمنين بالاسلام لم يكن لهم في زمن ما من تاريخه موقف مختلف مع العلم . ولقد اسيء في الواقع في بعض العصور فهم فرض تعلم وتعليـــم الاخرين . ولقد كان في العالم الاسلامي كما كان في سواه في بعض الاحوال ، سعي لتوقيف التقدم العلمي . ولكن ينبغي ان نذكر أنه ما بين القرن الثامن والثاني عشر الميلادي فترة عظمة الاسلام ، حيث كانت التغييرات العلمية مفروضة في بلادنا المسيحية كانـــت كميـــات معتبرة من الابحاث والاكتشافات قد حققت في الجامعات الاسلامية . هناك وفي ذلك العصر كنا نرى الوسائل الفائقة في التثقيف . فكانت مكتبة الخليفة في

قرطبة تحتوي على ٤٠٠,٠٠٠ كتاب ، وكان ابن رشد يعلـــم فيها ، وينقـــل فيها العلم اليوناني والهندي والفارسي . ولهذا كان الناس يذهبون اليها من مختلف البلدان الاوروبية للدراسة . كما يذهبون في ايامنا هذه لاتمام بعـــض الدراسات في الولايات المتحدة . وكم من مخطوطات قديمة وصلتنا بواسطة الادباء العرب الذين حملوا الثقافة الى البلدان المفتوحة . وكـــم من دين علينا نحو الثقافة العربية في الرياضيات (الجبْر عربي) والفلك والطبيعة (البصريات) وعلم طبقات الارض وعلم النبات والطب (ابن سينا) الـــخ .. وللمرة الاولى اخذ العلم سمة العالمية في الجامعات الاسلامية . ولقد كان فكر الناس الديني في ذلك العصر اكثر عمقا منه في هذا الزمن . ولم يمنعهم ذلـــك من أن يكونوا في نفس الوقت علماء ومؤمنين في وسط اسلامي . لقد كان العلم توأم الدين. ولم يكن من الواجب ان يكون غير ذلـــك .

لقد كان هذا العصر الاوسط ، بالنسبة الى البلدان المسيحية عصـــر الركود والخضوع المطلق للشكليات . وكان البحث العلمي ملجمـــا . ليس بسبب الوحي اليهودي — المسيحي ، ولكن بسبب اولئك الذين يدعون انهـــم خدمتـــه . ولقد كان لابد بعد عصر النهضة من أن تكون ردة الفعل الطبيعية للعلماء الثأر لانفسهم من خصوم الامس . وتتابع ذلك حتـــى ايامنا هـــذه حتى اصبح من يتكلم الان عن الله في الغرب في وسط علمي عـــازلا نفســـه حقيقة . ولقد كان لهذا الموقف انعكاسات على جميـــع الافكار الشابة التي تتلقى تعاليمنا الجامعية بما فيهم المسلمون .

وكيف لا يكون ذلـــك عندما نعرف المواقف المتطرفة التي اتخذها اكابر علمائنا ، كالذي كان من حامل جائزه نوبل في الطب الذي حاول في سنواتـــه الاخيرة في كتاب موجه لجمهور كبير بأن يقنـــع قارئه بان المـــادة الحية هي التي خلقـــت نفسها صدفة من بعض المركبات البدائية ، وانها تشكلت تحـــت تأثيـــر ظروف مختلفة معقدة فاصبحت كائنا حيا ذا اعضاء ثم انتهت الـــى المركب الاكبر الذي هو الانسان .

الم يكن يجب على معجزات المعرفة العلمية المعاصرة ان تصل فـــي اطار الحياة ، بمن يفكر الى نقيض هذه النتيجة ؟ الم تكن البنية التي قادت الى ولادة الحياة وكيانها تبدو لدارسها ، معقدة اكثر فأكثر ، بحيث انـــه كلما احسنا التعرف اليها في تفاصيلها ، كلما بعثنا على الاعجاب ؟ الا تؤدي المعرفة بها الى اعتبار عامل الصدفة في حادث الحياة اقل صحة مـــرة بعد اخـــرى ؟. وكلما تقدمنا في مضمار المعرفة ، وبخاصة فيما يخص الجوهر ، كلما كانت البراهين في صالح وجود الخالق . ولكن بدل ان يتواضع الانسان امام بعض الوقائع ، فانه ينتفخ كبرياء وغرورا . انه يخيل اليه ان من حقـــه الاستهزاء بكل فكرة عن الله ، بـــل والسخرية بكل ما يصادفه ، اذا كان

يحجزه عن تحقيق متعتــه وشهوتــه . هذه هي الان ظاهرة المجتمع المــادي الغربي في كامل تفتحــه .

فما هي القوى الروحية المتصدية لهذا الاسفاف الفكري من كثير مــن العلمــاء المعاصرين ؟

تجاه هذه الموجة المادية ، وانغمار الغرب بالالحاد . تعلن اليهوديــة والمسيحية مثلها، عجزهما عن حجزها . وكلاهما نجاهها في كامل الاضطراب . السنا نجد من عشر سنوات الــى أخرى تزايد عجز مقاومنهما الظاهر لهــذا التيار الذي يهدد باكتساح كــل شيء ؟ ان المادية الملحدة لا ترى فيالمسيحية التقليدية الا نظاما صنعه الناس منذ قريب من الفي سنة لتثبيت نفوذ اقلية علــى امثالها . ولا نعرف في كتابات اليهودية ــ المسيحية المقدسة وجــود لغة تنتمي ولو من بعيد الى لغتها ، لان هذه الكتابات تحتــوي كثيرا مــن التضادات ، ومــا لا يتفق مع الحق ، ولا مع معطيات العلوم الحديثة التي ترفض ان تأخذ بعين الاعتبار نصوصا يريد غالبية اللاهوتيين قبولها مسلمــة جملــة واحدة .

هل نكلمها عن الاسلام ؟ انها ستبتسم ابتسامة اكتفاء لا يعد له سوى عدم كفاية معرفتها في الموضوع . ومثلها اغلبية المفكرين الغربيين أيا كانــت عقائدهم الدينية وقد تكونــت لديهم عنه مجموعة عظيمة من الافكار الخاطئة.

ولهذا فانه ينبغي منحها من وجهة النظر هذه بعض الاعــذار . فأولا الشذوذ الحاصــل في المواقف الجديدة المأخوذة عن السلطات العليا فــي الكاثوليكية . فقد كان الاسلام من القديم موضوع « الذم القديم » في بلادنا . ل ان كل غربي حصل بعض المعارف المعمقة عن الاسلام يدرك إلــى اي بدى قد شوه تاريخــه وعقيدته واهدافــه . ولذلــك فانه ينبغي ان يدخل الحساب ان الوثائق المنشورة في اللغات الغربية عن هذا الموضوع مــا عدا دراسات الاختصاصيين لا تسهل عمل من يرغب بالتعليــم .

والواقع ان معرفة الوحي الاسلامي هي من وجهة النظر هذه اساسية لان ثمة فقرات من القرآن ، وبخاصة ما له علاقة بمعطيات من العلم قــد اسيئت ترجمتهــا او أسيء شرحها بحيث ســوغ ذلك لرجــل العلــم ، توجيــه انتقادات اليه لا يستحقها في الحقيقــة .

وهنا ترانا مضطرين لان نذكر أن تلك الاساءات في الترجمة او الشروح الخاطئة (كلاهما موجود غالبا) التي لم تكن تدهش فيما قبــل قرن او قرنين تدهش اليوم رجل العلم الذي يجد نفسه مجبرا امام عبارة اسيئت ترجمتها ان يرفض جديــا اخذهــا بالاعتبــار . وسنسوق للعمل الانسانــي في الفصل المخصص له مثلا شديد الوضوح لهذا النوع من الخطأ .

فلماذا هذه الاخطاء في الترجمة ؟ ان توضيــح ذلك هو بفعل المترجمين الذين يعتمدون غالبا دون وعي الفكر الناقد ، ترجمات الشراح القدامــى ،

الذين كان لهم في أزمانهم اعذار عندما اعطوا للكلمة العربية ذات المعانـي المتعددة ، معنى غير مقبول لعجزهم عن فهم المعنى الحقيقي للكلمة او للعبارة التي وضحت لنا في هذه الايام فقط بفضل معرفتنا العلميـة . ولهـذا فقد اصبح مفروضا ان نطرح موضوع المراجعة للترجمات او الشروح التي لم يكن اصحابها أهلا للقيام بها في زمن ما ، بينما اصبحنا في ايامنا هذه نملك وسائل يمكنها أن تكشف لنا المعنى الصحيـح .

ومثل هذه المسائل في الترجمة لا تطرح في نصوص الوحي اليهـودي — المسيحي لان الحال المذكور هنا خاص فقط بالقرآن .

لقد أدهشتني في البداية هذه الصورة العلمية الخاصة بالقرآن الـى حد بعيد لاني لم اكن أظن ابدا انه يمكن حتـى هذا الزمن أن نكتشف في نص مكتوب منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا ، عددا من اليقينيات المتصلة بموضوعات شديدة التنوع ومتفقة تماما مع المعارف العلمية الحديثة . ولم يكن لدي في البدء اي ايمان بالاسلام . وقد بدأت هذا الاختبار للنصوص بموضوعية كاملة وبفكر متحرر من كل حكـم مسبـق . ولئن كان ثمة من تأثير يمكن انيمارس علـي ، فهو تأثير التعليـم الذي تلقيتـه في شبابي عندما لم يكن الناسمن حولي يتكلمون عن المسلمين ، بـل عن المحمديين لصرف فكر السامع الـى أن الدين المتحدث عنه مؤسس من انسان ، ولا يمكن أن يكون له بالتالي اي قدر عند الله . وككثيرين في الغرب، كان يمكنني الاحتفاظ بهذه الافكار الخاطئة عن الاسلام والمنتشرة الـى حد بعيد في أيامنا ، حتـى اني كنت ادهش دوما عندما أصادف فيما عدا الاختصاصيين محاورين مستنيرين في هذه النقاط . واعترف باني كنـت شديد الجهالة قبـل ان أكـون صورة عـن الاسلام مختلفة عن تلـك المعطاة في الغرب .

ولئن كنـت قد استثنيت من خطأ الاحكام العامة المحمولة في الغرب عن الاسلام ، فاني مدين بذلـك الـى ظروف استثنائية ، فقد اعطيـت عناصر التقدير في العربية السعودية بالذات التي كشفت لي ما عليـه الناس فـي بلادنا من ضلال في الرأي تجاه الاسلام .

وسأبقى مدينا بالشكر العظيـم للمأسوف عليـه الملك فيصل الـذي احيي ذكراه باحترام ، والذي كان لي شرف الاستماع اليـه وهو يتكلم عن الاسلام ، وان اثير بحضوره بعض موضوعات في الترجمة القرآنية المتصلـة بالعلـم الحديـث . وسيبقى كـل ذلـك منقوشا في ذاكرتي الـى الابد ، لان مجرد حصولي منـه وممن يحيطون بـه على معلومات قيمة كـان ذا اعتبار خاص .

أما وقد قدرت ما يفصـل حقيقة الاسلام عن الصورة التي لدينا عنـه في بلادنا الغربية ، فقد احسست بالحاجة الملحة لتعلم اللغة العربية التي لم اكن أعرفها ، لاكون قادرا على التقدم في دراسة دين مجهـول الـى حـد

بعيد . وقد كان غرضي الاول منصبا على قراءة القرآن واختيار نصـــه عبارة بمساعدة تفسيرات مختلفـــــة لا يستغنـــى عنهـــا في دراسة نقدية . وقد اعرت انتباها خاصا جـــداً لما يعطيه من وصف لعدد من الظواهر الطبيعية . لقد ادهشتني دقة بعض تفاصيـــل الكتاب المندرجة في النص الاصلي بسبـــب توافقها مع أحدث مفاهيمنا اليوم ، ولكن التي لا يمكن لانسان في عصر محمد ان تكون له عنها اية فكرة . ولقد قرأت بالتالي عددا من المؤلفات الصـــادرة عن بعض الكتاب المسلمين المخصصة لبعض الظواهر العلمية في نص القرآن فزودتني بعناصر نافعة جدا للتقييم . ولكني لم اعثر بعد على دراسة كاملـــة موضوعة في الغرب حول هذا الموضوع .

والذي يدهش فكر من يواجه مثل هذا النص للمرة الاولـــى ، هو غزارة الموضوعات المطروحة مثل الخلـــق ، والفلك ، وعرض بعض الموضوعـــات الخاصة بالارض وجنس الحيوان والنبات ، وتكاثر الانسان ، تلك الامور التي تجد عنها في التوراة دون نص القرآن اخطاء علمية كبـــيرة ، تحملنـــي علـــى التساؤل : اذا كان كاتب القرآن بشرا ، فكيف امكنه في القرن السابع الميلادي كتابة ما يثبـــت انه اليوم متفق مع المعارف العلمية الحديثة ؟ وليس ثمـــة اي شك في ان النص الذي بين ايدينا للقرآن هو نص ذلك العصر (الفصل التالي لهذا الجزء الثالث سيعالج هذه القضية) فما هو التفسير الانساني لهـــذه الملاحظـــة ؟!

ليس لها في رايي اي تفسير ، اذ ليس من سبب خاص للتفكير بان ساكنا لشبه الجزيرة العربية امكن ان تكون له في الوقت الذي كان يحكم في فرنسا الملك داجوبير ثقافة علمية سابقة على قرننا الحاضر في بعض الموضوعـــات بعشرات القـــرون .

وانه لمن الثابـــت ان معارف العصر العلمية زمن الوحي القرآني الذي يمتد على مرحلة قريبة من عشرين سنة تقبـــل وبعد الهجرة (٦٢٢ م) كانت في حالة ركود منذ قرون ، وان الفترة النشيطة للمدنية الاسلامية مع النهضة العلمية التي واكبتها كانت لاحقة على نهاية الوحي القرآني . وينبغي تجاهل المعطيات الدينية والدنيوية التي تثيرها الفكرة التالية التي سمعتها احيانـــا وهي : ان الفضل في وجود يقينيات في القرآن ذات سمة علمية مدهشـــة ، يعود الـــى تقدم المعارف العربية اذ ذاك واستفادة محمد منها . والذي يعرف شيئا عن تاريخ الاسلام ، ويعلم ان مرحلة النهضة الثقافية والعلميـــة في العالم العربي في القرون الوسطى متأخرة عن محمد ، لا يسمح لنفسه بمثـــل هـــذا الترهات . ان عدم صحة مثل هذه الافكار بعيد عن هذا الحديـــث اذ ان اكثرية الاعمال العلمية المشار اليها او المصرحبها بشكل بارز في القرآن لم تثبت صحتها الا في هذا العصر الحديـــث ..

من هنا ندرك ان مفسري القرآن خلال القرون (بما فيهم مفسرو الفترة

العظيمة للمدنية الاسلامية) قد ارتكبوا دونما ريب اخطاء في تفسيـــر بعض الايات التي لم يكونوا يدركون معانيها الدقيقة . وقد ظلوا كذلك حتـــى الفترة الاخيرة القريبة من هذا العصر ، حيث تمكنوا من تفسيرها التفسير لصحيح. وهذا يفيد ، بانه لا يكفي لكي نفهم هذه الايات القرآنية التبحر في المعـــــارف اللغوية ، بـــل لا بد من تملك معارف علمية متنوعة جدا . ودراسة مثـــل هذه ، هي جامعة للدساتير والمعارف وستتأكد مع إطراد طـــرح الاسئلـــة المتولـــدة من تنوع المعارف العلميـــة التي هي ضروريـــة لالتقاط معنى بعض آيات القـــرآن .

وليس القرآن كتابا هدفـــه عرض بعض الانظمة التي تحكم الكـــون . بل هو في الاساس كتاب ذو هدف ديني. وهذا واضح على الخصوص بمناسبة اوصاف القدرة الالهية المطلقة التي تستنهض الناس للتفكير في اعمال الخلق ، مقترنة ، اما باشارات الـــى وقائع خاضعة للملاحظة الانسانية او الـــى قوانين حددها الله تحكم نظام الكون فيما يخص علوم الطبيعة وفيما يخـــص الانسان . وبعض هذه الامور سهل الفهم . اما البعض الاخر فلا يمكننـــا التقاط معناه الا اذا كانت لدينا معارف علمية ضرورية لذلـــك . وقصارى القول هنا ان انسان القرون الماضية لم يكن قادرا على ان يكشف من ذلك الا ظاهر المعنـــى الذي قد يحمله في بعض الاحوال على الوصول الى نتائج غير صحيحة نظرا لعدم اكتمال معرفته اذ ذاك .

وربما يبدو تصنيف الايات القرآنية لدراسة صورها العلمية شديـــد الاقتضاب بالنسبة الـــى بعض الكتاب المسلمين الذين لفتوا النظر قبلـــي الـــى هذه الوقائع . وبالجملة فانه يخيـــل الي اني استحصلت على عدد اقل من الآيات مما فعلوا . لقـــد حددت بعض الآيات التي لم يعيروهـــا حتى الان الاهمية التي تستحقها كما يبـــدو لي من وجهة النظر العلمية . فآمل الا يقسوا علي اذا كنت قد ارتكبـــت اخطاء لعدم اخذي بالاعتبار في هذه الدراسة ، آيات كانوا هم قد انتقوها ، وقد عثرت احيانا ايضـــا في بعض الكتـــب على تفسيرات علمية لا يبدو لي أنها صحيحـــة ، وقمت بانتقائهـــا وتفسيرها تفسيرا شخصيا باستقلال فكري وباخلاص تامين .

لقد بحثت ايضا فيمـــا اذا كان في القرآن اشارات الى ظواهر قريبة من الفهم الانساني ولم تتأكـــد من جهة العلم الحديث ، فبدا لي اني رايت في القرآن اشارات الـــى وجـــود كواكب شبيهـــة بالارض . ويجـــب القول ، بأن عـــددا من العلمـــاء يعتبرون هذا مقبولا تماما ، ولو لم تكن المعطيات الحديثة قد توصلت حتى الان الى اقل تأكيد لها . فرايت ان علي أن اعرضـــه مع كامل التحفظـــات .

واذا كنـــت قد باشرت مثل هذه الدراسة منذ ثلاثين سنـــة تقريبا ؛ فهناك شيء اخر قد اخبر عنـــه القرآن وكان ينبغي اضـــافته الى ما سبق

ذكره فيما يخص الفلك وهو غزو الفضـــاء . لقد رأينـــا في ذلـــك الوقت تبعا للتجارب الاولى لاطلاق الصواريخ بأنه سيكون لدى الانســـان يوما ما قدرة النفوذ مـــاديا من المحيط الارضي وأن يغزو الفضاء . وقد عرفنا أن في القرآن آيـــة تتنبأ بذلك . وقد تحقق بالفعل .

ان هذه المواجهـــة بين الكتابات المقدسة والعلم توصل بالنسبـــة الى التوراة ، كما بالنسبـــة الى القرآن مفاهيم لها صلة بالحقيقـــة العلمية . وينبغي لكي تكون المواجهة مقبولـــة وصحيحة أن يكون السند العلمي الذي نرتكز اليه كامـــل الثبوت ولا يحتمـــل اي شك . والـــذين يرفضون قبول مداخلـــة العلم في تقييم الكتابات ، ينكرون أن يكون قادرا على تحقيق شكل صحيح لهذه المقارنة [ســـواء كان الكلام في صـــدد التوراة التي لا تتقبل المواجهة دونمـــا خسارة ــ وقد رأينا لاي سبب ــ أو في صدد القرآن الذي ليس لديـــه ما يخشاه منها] لان العلم متبدل مع الزمن ، وقد يكون الحدث المقبـــول منه في زمن ما مرفوضا منه في وقت متأخر .

هذه الملاحظـــة تجر الى تسجيـــل النقطة التالية : انـــه ينبغي تمييز النظرية العلمية عن الملاحظة الدقيقة . لان غاية النظرية توضيح حدث أو مجموعـــة احداث صعبة الفهم . فهي اذن متغيرة في عـــديد من الاحوال وقابلة للتحول او لان تستبدل بغيرها عندما يسمـــح التقدم العلمي بتحليل افضل للوقائع أو بتصـــور تفسير أصح . وعلى العكس فان فعل الملاحظة المحقق تجريبيـــا لا يكـــون قابلا للتحول ، فقد يمكـــن تحديد خصائصه بصورة أفضل . ولكنه يبقى كمـــا كان . وما كنا أثبتناه من أن الارض تدور حول الشمس ، وأن القمر يدور حول الارض لن يكون موضوع اعادة نظر ، وان كنا نستطيـــع في المستقبل وبصورة أحسن تحـــديد مدارات الكواكب الفضـــائية .

ولعل هذه النظرة للسمـــة المتبدلة للنظريات هي التي حدت بي الى استبعـــاد آية قرآنية فكر عالم بالطبيعة مسلم ، بأنها تعلن مفهوم اللامادة. وهي نظرية يدور حولها الجدل حاليا . وعلى العكس فانه يمكن شرعا لفت انتبـــاهه الى آية من القرآن تذكر أصل الحياة المائي وهي ظاهرة لا يمكننا اثباتها مطلقـــا ، وان كانت تلتقي عليها آراء كثيرة . أما بخصوص عوامل الملاحظة كتطور الجنين الانساني فانه يمكننا أن نواجه تماما مختلف المراحل الموصوفـــة في القرآن بمعطيات علم الجنين الحديث ، واكتشـــاف اتفاق العلم المطلق مع الايات القرآنية المتعلقة به .

لقد اكملت المواجهـــة بين العلم والقرآن في مقارنتين : المواجهـــة مع المعارف الحديثة للمعطيات التوراتية المتعلقة بنفس الموضوعات من جهة ، والمقارنة من نفس وجهـــة النظر العلمية لمعطيات القرآن كتاب الوحي المنزل من الله على النبي ، ومعطيـــات الحـــديث ، كتب الاخبـــار والاقرارات

الصادرة عن محمد ، التي هي ليست من الوحي المكتوب من جهة أخرى (١).
وسنرى في ختام هذا الجزء الثالث من الكتاب تفصيلات نتائج مقارنة الروايات التوراتية ، والروايات القرآنية للحادث الواحد والتدقيق من خلال النقـد العلمي لكل روايـة .

وقد اختبرنـا على سبيل المثال موضوع الخلق والطوفان . واوضحنا فى الاول كمـا في الثاني عدم مطابقة الرواية التوراتية للعلم ، واتفـاق الروايات القرآنية التام بهذا الخصوص مع العلم الحديث . على أننا سنذكر الفروق التي تجعل على سبيـل الدقة رواية ما مقبولة في العصر الحديث ، في حين تكـون الرواية الاخرى غير مقبولة .

هذه الملاحظـة هي من الاهمية الاولى لان اليهود والمسيحيين والملاحدة في البلدان الغربية يلتقون على راي واحـد . [وبدون اي دليل] ليعلنوا ان محمدا كتب أو استكتب القرآن مقلدا التوراة . وهذا الموقف هو بنفس خفـة ذلك الذي يوصل الى القول بان عيسى خدع أيضا معاصريه بسبب تأثره بالعهـد القديم . وانجيل متى بكامله — وقد راينا ذلك — مبني على مبدأ اتمام السير في خط العهد القديم . فهـل تجرأ مفسر ما لهذا السبب ، على أن ينتزع عن عيسى الوصف بانه رسول الله ؟! ومع ذلك فان الغربيين يحكمون في الغالب على محمد بانه لم يكن منـه الا انه قد نسخ التوراة (٢) وهو حكم مطلـق مجرد من اي مستنـد ، خصوصا واننـا نرى للقرآن والتوراة في الحادث الواحد آيات مختلفات . هذا واننا نفضل أن نسكت عن موضوع اختلاف الروايات انهم يعلنونها واحدة . وانه ليس للمعارف العلميـة التدخل فيها ، وسنتوسع في هذه النقاط بمناسبـة الحديث عن روايـات الخلق والطوفان .

ان مجموعات الحديث هي بالنسبة الى محمد كالاناجيل بالنسبة الى عيسى . روايـات عن افعال واقوال النبي ليس كتابهـا شهود عيان (٣) [على الاقل مجموعات الاحاديث المشهورة والاكثر اصالة هي متأخرة عن

---

(١) ان الذي عليه اجماع الصحابة واهل العلم ان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى وهو ما اثبته القرآن في سورة النجم في قوله : « وما ينطق عن الهوى » وان الحديث الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء كان قولا او تقريرا او فعلا متعلقا بأمر من امور الدين هو وحي من الله تبارك وتعالى قدمه الرسول صلى اللـه عليـه وسلـم بعبارته (المترجمون) .

(٢) طبعا هذا مرفوض شكلا وموضوعا لاعتبارات كثيرة تتعلق بمواد القرآن والدعـوة الاسلامية تبدو للناظر لاول امعان . ولكن على فرض الصحة ، فلم ينكرون رسالته صلى اللـه عليه وسلم ويكذبونه ويرفضون ما جاء به ؟! **المترجمون** .

(٣) لقد ثبت ان بعض الصحابة كتب بعض الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عبدالله بن عمرو بن العاص . **المترجمون**

عصر النبي] انها لا تؤلف في أي نوع منها كتبـا حاوية الوحي المكتوب . انها ليست كلمات الله ، بل تنقل اقوال الرســول (١) . أننا نرى في هذه الكتب المنتشرة يقينيـات تحوي اخطاء من وجهة النظر العلمية ، وبخاصة الوصفات الطبية . ولكن من يستطيـع الجزم باصالة هذه الاخبار المنسوبة الى الرســول ؟ اننا بالطبـع نضع جانبـا كل ما يتعلق بمســائل النظام الديني التي هي ليســت موضع المقابلة هنا بمناسبة الاحاديث . ان كثيرا من الاحــاديث مشكوك في اصالتها بل ومطعون فيها من علمــاء المسلمين انفسهم . ولئن كنا قد اثرنــا في هذا الكتاب سمة بعضها العلمية ، فلنوضح اساسا ما يميزهــا من وجهة النظر هذه عن القرآن الذي لا يحوي اية يقينية علميــة غير مقبولــة . والفرق كما سنراه عظيم .

ان هذه الملاحظة الاخيرة تجعل افتراض من يرون محمدا كاتبا للقرآن مرفوضــا ، اذ كيف يتيسر لرجل حرم العلم في نشأتــه ، أن يصبح — على الاقل من وجهة نظر القيمة الادبية — الكاتب الاول في الادب العربي كله ، يخبر عن حقائق في النظام العلمي تتجاوز وسع اي كائن انساني في هذا الزمن ، ودون أن يكون منه اي خطـأ مع ذلك .

ان الاعتبارات التي سنتوسع فيها في هذه الدراســة ، ستوصلنا من وجهة النظر العلميــة فقط ، الى الحكم بان من المستحيل تصور رجل عاش في القرن السابع الميلادي ، واستطــاع أن يورد في القرآن افكــارا في موضوعات متنوعة جدا ، ليست افكار عصره تلتقي مع ما سيكتشفه الناس منها بعد قرون متأخرة عنه. اما بالنسبة الي فليس للقرآن اي تفسير بشري.

---

(١) على انها في حال صحتها وثبوتها وحي من الله (المترجمون) .

أصالة القرآن

تاريخ تدوينه

ان لاصالة نص القرآن مكانة منفردة بين كتب الوحي لا ينازعه فيها العهد القديم ولا الجديد (١) . فقد سبق وراجعنا في الجزاين الاولين من هذا الكتاب ، التعديلات التي طرات على العهد القديم والاناجيل قبل ان تصلنا على ما هي عليه الان . أما القرآن فليس الامر بالنسبة اليه كذلك لانه ثبت في عهد الرسول بالذات ، وسنرى كيف تم هذا التثبيت .

ان الفروق التي تميز القسم الاخير من الوحي في هذا الموضوع عن القسمين الاولين لا تعود في الاساس الى مسائل متعلقة بالتوقيت كما يشاء البعض ان يجعلها في الطليعة حسب القاعدة دون ان يعير اهمية للظروف التي حكمت في تثبيت نصوص الوحي اليهودي ـــ المسيحي ، ونصوص الوحي القرآني . والظروف التي تحكمت أيضا في نزول القرآن على الرسول . ويشير البعض بأن نصا يعود الى القرن السابع الميلادي كان له حظ الوصول الينا دون ان تمسه يد التغيير مثلما أصابت غيره من النصوص ، التي تعود الى خمسة عشر قرنا في القديم . والملاحظة صحيحة ولكنها لا تحقق توضيحا كافيا . على أنها في الاكثر كانت لالتماس العذر لتعديلات نصوص اليهودية ـــ المسيحية على مر الاجيال اكثر من ان تكون للتأكيد بان النص القرآني ـــ الذي هو اكثر حداثة ـــ على خطر أقل من الاولين من تحريف الناس .

ومن أسباب وجود عدم الصحة ، ووجود التضاد في العهد القديم ، تعدد الكتاب للرواية الواحدة ، ومراجعات النصوص المنجزة لبعض الاسفار على فترات من العهد السابق على الميلاد . اما بالنسبة للاناجيل التي لا يستطيع أحد ان يؤكد أنها تحوي دوما الرواية الامينة لكلمة

---

(١) نذكر بمناسبة هذه الكلمة قوله تعالى : « ولكل امة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك في الامر وادع الى ربك انك لعلى هدى مستقيم » الحج آية رقم ٦٧ « المترجمون » .

المسيح ، او خبرا عن افعـــــاله مطابقا للحقيقة ، فقد راينـــا أن الكتابات المتتابعة لنصوصها تثبت نقصان الاصالة الاكيد فيها ، فضلا عن ان كتـــابها ليســـوا شهود عيان .

وينبغي التنبيـــــه الى الفرق بين القـــرآن كتاب الوحي المسجـــل ، والاحاديث التي هي مجموعـــة الروايات لافعال واقوال محمد التي شرع بعض أصحاب الرسول بكتابتها منذ وفاته . ولما كان الخطـــأ قابلا للتسرب اليها ، فقد أخذت واخضعـــــت فيما بعد للنقد الدقيق حتى انه قـــد تم في النهاية اعتماد مستندات متأخرة جدا عن وفاة الرسول ، انها كالاناجيل ذات اصالة متغيرة (١) ، فكما أن أي انجيل لم يكتب في عهد عيسى [بل كتبت جميعها بعد أنتهاء مهمتـــه على الارض بكثير] فكذلك لم تكتـــب مجموعة الاحاديـــث زمن الرسول (٢) .

اما وضع القرآن ، فانه يختلف عن ذلك كثيرا . لان الرسول والمؤمنين كانوا يحفظونـــه مع تتابع الوحي ، ثم يكتبـــه في نفس الوقت الكتبة الذين كـــانوا حوله . وهكذا فقد توفر للقرآن من البداية عنصرا الاصالـــة اللذان لم يكونا أبدا متوفرين للاناجيل . وقد ظل الامر كذلك حتى وفاة الرسول .

وقد كان للترتيل ميزة عظيمة في العصر الذي لم يكن فيه كل الناس يكتبون بل يحفظون غيبا ، وبتنوع الرقابة الممكنـــة في وقت تثبيت النص نهائيـــا .

لقد ظل جبريل يتنزل بالوحي القرآني على محمد الرسول فترة امتدت اكثر من عشرين سنة من حياته وقـــد ابتدأ بالايات الاولى من السورة ٩٦ ثم انقطع لمدة ثلاث سنوات . واستأنف نزوله طيلة عشرين سنة حتى وفاة الرسول سنة ٦٣٢ ميلاديـــــة أي عشر سنوات قبل الهجـــرة وعشر اخر بعدهـــا (٣) .

وبداية الوحي كانت [آيات السورة ٩٦ من ١ ــ ٥] (٤)

« اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربـــك الاكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم» . وقد لاحظ الاستاذ حميد الله في مقدمة ترجمته لمعاني القرآن ان احد مواضيع هذا الوحي الاول كان « مدح القلم لكونه وسيلة لتحصيل المعرفة الانسانية » مما يفسر « اهتمام النبي بالاحتفاظ بالقرآن مكتوبا » .

---

(١) ان هذا القول لا ينطبق على الاحاديث التي ثبت تواترها (المترجمون) .

(٢) سبق ان نبهنا الى ان بعض الصحابة كعبدالله بن عمرو بن العاص كان قـــد كتـــب بعض احاديث الرسول صلىٰ الله عليه وسلم . « المترجمون » .

(٣) لقد ثبت في الاقوال ان فترة انقطاع الوحي دامت ثلاث سنوات (المترجمون) .

(٤) لقد هزت هذه الكلمات محمدا . وسنعود فيما بعد الى شرحها بربطها بحقيقة ان محمدا لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة في هذا الزمن .

وهناك نصوص ظاهرة تؤكد بانه قبل ان يهاجر الرسول من مكة الى المدينة بكثير كان ما يوحي به من القرآن يثبت كتابة . وهذا ما سيؤكده القرآن . وكانت عادة محمد واصحابه حفظ القرآن وترتيله عن ظهر قلب ، فلم يكن يتصور ان يشير القرآن الى وقائع لا تمت الى الحقيقة بصلة في الوقت الذي كانت فيه مراقبة من صحابة الرسول المتصلين بالكتبة .

ان هناك اربعا من السور المكية تشير الى كتابة القرآن قبل ان يكون الرسول قد ترك مكة سنة ٦٢٢ . سورة ٨٠ آية ١١ — ١٦ :

« كلا انها تذكرة . فمن شاء ذكره . في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بايدي سفره . كرام بررة » .

وقد كتب يوسف علي في شروح ترجمته للقرآن سنة ١٩٣٤ بانه اثناء نزول الوحي بهذه السورة كان بين يدي مسلمي مكة اثنتان واربعون سورة غيرها او خمس واربعون [من اصل مئة واربع عشرة] سورة ٨٥ آية ٢١ — ٢٢ « بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ » .

سورة ٥٦ آية ٧٧ — ٨٠ « انه لقرآن كريم في كتاب مكنون . لا يمسه الا المطهرون . تنزيل من رب العالمين » .

سورة ٢٥ آية ٥ « وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا » .

تشير هذه الآية الى اتهامات أعداء الرسول المحمولة عليه ، الذين كانوا يصفونه بالخداع ويزعمون ان احدا كان يملي عليه اساطير الاقدمين التي كان يكتبها او يكتتبها [ان معنى الكلمة موضع جدال ولكن علينا ان نذكر بأن محمدا كان أميا] ومهما يكن فان هذه الآية تشير الى المسجل كتابة ، وهو ما كان يعترف به حتى خصوم محمد .

وهذه سورة سابقة ايضا على الهجرة تسجل آخر ذكر لهذه الاوراق التي كتب عليها .

سورة ٩٨ آية ٢ — ٣ « رسول من الله يتلو صحفا مطهرة . فيها كتب قيمة » .

وهكذا ، فان القرآن نفسه يخبر عن كتابته ممن هم حول الرسول . وقد كان للرسول العديد من كتبة الوحي . واشهرهم زيد بن ثابت الذي تناقل الاجيال اسمه . ويوضح الاستاذ حميد الله في مقدمة ترجمته للقرآن [١٩٧١] الشروط التي كتبت في ضوئها النصوص القرآنية حتى وفاة الرسول فيقول :

« اتفقت المصادر على القول بأن الرسول كان كلما أوحي اليه بآيات من القرآن يستدعي احد اصحابه العارفين بالكتابة ، فيمليها عليه محددا له موضعها بالنسبة للمجموعة التي سبقتها ، ثم يطلب منه بعد اثباتها ان يعيد تلاوة ما املاه عليه ليصحح الخطأ فيما لو وقع ... وهناك رواية مشهورة

تفيد بان الرسول كان يعرض القرآن مع جبريل كل سنة في رمضان [اي المنزل حتى ذلك الوقت] .. حتى انه في رمضان الذي سبق وفاته عرضه مع جبريل مرتين ... وقد اعتاد المسلمون في عصر النبي قيام شهر رمضان باداء نوافل من الصلاة وقراءة القرآن بكامله فيها ... وتزيد بعض المصادر بأن زيد بن ثابت حضر العرضة الاخيرة هذه ، كما تذكر مصادر اخرى ايضا حضور عدد آخر من الصحابة » .

لقد كانوا يكتبون القرآن على اشياء متنوعة منها ورق البردى ، والجلد والواح الخشب وعظام كتف الجمل وقطع الحجارة التي يمكن تثبيت الكتابة عليها الخ ...

ومع ذلك فقد كان محمد يوصي أصحابه في نفس الوقت بحفظ ما نزل من القرآن ، فكانوا لذلك يتلونه كله او جزءا منه اثناء الصلوات ، وكان الحفاظ الذين يحفظون القرآن بكامله ويعلمونه للناس. وهكذا ظهرت فيما بعد قيمة هذه الطريقة المزدوجة في حفظ النص بالكتابة من جهة وحفظه في الذاكرة من جهة ثانية .

وبعد موت الرسول بقليل [سنة ٦٣٢] طلب خليفته ابو بكر من اول واقدم كتبة الوحي النبوي زيد بن ثابت ، بأن يجمع القرآن ففعل . وقد رجع زيد بتوجيه من عمر [الخليفة الثاني] لانجاح مهمته ، الى جميع الوثائق التي كان بامكانه الرجوع اليها في المدينة . فقابل ما عند الحفاظ على ما كان مكتوبا منه على مختلف المواد ، التي كانت ملكا لبعض الصحابة ، لتفادي اي خطأ ممكن في النقل ولضمان جمع امين للقرآن .

وتفيد المصادر بأن الخليفة عمر سنة ٦٣٤ جعل منها فيما بعد مصحفا احتفظ به عنده ، ثم سلمه الى ابنته حفصة أم المؤمنين التي توفى عنها الرسول (١) .

ثم ان الخليفة الثالث عثمان بن عفان الذي امتدت خلافته ما بين ٦٤٤ ــ ٦٥٥ كلف من بعده مجموعة من المدققين ليقوموا بمراجعة دقيقة للقرآن عرفت فيما بعد باسمه . فدققت في اصالة الوثيقة التي جمعت في عهد ابي بكر والتي بقيت محفوظة عند حفصة . ورجعت الى الذين كانوا يعرفون النص عن ظهر قلب . وتمت عملية التدقيق بحزم . وقد كان ضروريا توافق الشهادات لاعتماد اية آية قد تكون موضوعا للجدل . ومن المعلوم ان بعض الآيات القرآنية قد تصحح (٢) البعض الاخر فيما يختص بالتعليمات وهذا طبيعي اذا اعتبرنا ان رسالة الرسول امتدت على عشرين عاما تقريبا .

---

(١) المعلوم ان السيدة حفصة احتفظت بالقرآن بعد وفاة والدها امير المؤمنين عمر بن الخطاب الى أن طلبه منها امير المؤمنين عثمان بن عفان . المترجمون .

(٢) لعله يشير الى ما قد يكون بين الايات من ناسخ ومنسوخ . المترجمون .

وهكذا تم جمع القرآن حسب ترتيب الرسول وكما عرضه طيلة شهر رمضان كما عرفنا (٣) .

ويمكن ان نتساءل عن الاسباب التي حدت بالخلفاء الثلاثة ، وعثمان بالذات باجراء المراجعات على نص الكتاب . وللاجابة نقول : لقد كان انتشار الاسلام في السنوات العشر الاول عقب وفاة الرسول بسرعة عجيبة ، وبين شعوب تتكلم اكثر من لغة غير اللغة العربية ، فكان لا بد من الاحتياط الضروري في تناقل النص للمحافظة على صفائه واصالته . وهو ما كان من هدف مراجعة عثمان .

وقد أرسل عثمان نسخا من الاصل بعد المراجعة الاخيرة الى الامصار داخل الامبراطورية الاسلامية . ولا يزال في ايامنا حسب افادة الاستاذ حميد الله بعض هذه النسخ المنسوبة الى عثمان موجودا في طشقند واستامبول . واذا غضضنا النظر عن بعض الاخطاء العارضة في النسخ ، فانا نرى ان أقدم المخطوطات المعروفة في ايامنا والموجودة في العالم الاسلامي كله واحدة . وكذلك التي لا تزال موجودة في اوروبا [في المكتبة الوطنية في باريس يوجد بعض الاجزاء التي تعود حسب افادة المدققين الى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، الثاني والثالث للهجرة] ان تعدد النصوص القديمة المعروفة تتفق فيما عدا دقائق متنوعة لا تغير شيئا من المعنى العام للنص اذا اعتمدت القرينة احيانا . فهناك عدة وجوه للقراءة تجعل الكتابة القديمة اسهل مما هي عليه الآن . (٤)

ان السور وعددها مئة واربع عشرة رتبت حسب طولها مع بعض الاستثناءات ولم يراع فيها زمن النزول . ومع ذلك فانه يمكن معرفتها في اغلب الاحوال . وان عددا مهما من الاخبار ذكر في كثير من مواضع النص ، الامر الذي حتم التكرار . وغالبا ما يفصل مقطع خبرا يقتضبه مقطع آخر . وكل ما يمكن ان يكون له صلة بالعلم الحديث منثور في القرآن كبقية المواضيع المعالجة دون ان يبدو فيه اي ترتيب .

---

(٣) الثابت ان ما عمله ابو بكر رضي الله عنه هو جمع القرآن الكريم من صدور القراء ومما كتب عليه من الحجارة وورق البردى والعسب والرقاع وغيرها بين دفتين خشية ان يذهب منه شيء بذهاب حملته ومرتبا حسبما وقفهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم . اما عمل عثمان رضي الله عنه فهو لحمل الناس على القراءة بوجه واحد نتيجة لاتفاق تم بينه وبين المهاجرين والانصار خوفا من الفتنة . المترجمون .

(٤) ان انعدام التنقيط ، كان ييسر قراءة الفعل بالماضي والحاضر . وفي بعض الحالات بالتذكير او التأنيث ولكن في الغالب هذا لا يتطلب اهمية لان القرينة تثبت المعنى في اكثر الاحوال .

٣ ــ تاريخ السموات والارض

اختلافات ومجانسات مع خبر التوراة .

خلافا للعهد القديم ، فان القرآن لا يسرد قصة الخلق كلها متتابعة في موضع واحد ، بل نراه في مقاطع من سور متعددة فيه يثير بعضا من مشاهده ، ويعطي شيئا من الدقة في الوقائع المتلاحقة التي تعبر عنه . ولا بد لكي تقدم فكرة واضحة عن الطريقة التي تعرض بها هذه المشاهد من جمع اجزائها المتناثرة هنا وهناك في عدد كبير من السور .

هذا التوزيع للموضوع الواحد في مواضع مختلفة من الكتاب ليس خاصا في مبحث الخلق بل هو كذلك بالنسبة لعديد من الموضوعات الهامة . سواء كانت في مسائل سماوية او ارضية او مسائل تتعلق بالانسان وتهم العلم ، ذات العمل قد اتخذ في تجميع الآيات .

وخبر الخلق في القرآن في نظر الكثيرين من الاوروبيين قريب جدا من خبره في التوراة . ولذلك فانهم يجدون بعقد المقابلة بينهما متعة وحبورا . واظن ان هذا الفهم خاطىء لما بينهما من فروق واضحة . فبينما في القرآن في المسائل التي ليست ثانوية من الناحية العلمية ايجابيات ، نعجز عن العثور على مثيل لها في التوراة ، نجد في التوراة من الشروح والزيادات ما لا نلقى له مثيلا ايضا في القرآن .

على ان ثمة مجانسات واضحة بين نصوص كل منهما وبخاصة الجمل المترادفة في موضوع الخلق التي تبدو واحدة عند النظرة الاولى . فالايام الستة في التوراة تقابلها الايام الستة ايضا في القرآن . غير ان المسالة في الواقع تبقى على جانب كبير من التشابك وتستحق منا الوقوف عندها .

دورات الخلق الستة

تذكر رواية التوراة الخلق (١) دونما ابهام في ستة ايام متبعة بيوم الراحة ، يوم السبت بالتماثل مع ايام الاسبوع .

وقد راينا ان هذا الاسلوب في السرد الذي اتبعه كهنة القرن السادس قبل الميلاد يستجيب الى رغبات التحريض لاعتماد السبت كيوم راحة : وكل

(١) ان رواية التوراة المقصود هنا هي الكهنوتية التي تحدثنا عنها في الجزء الاول من هذا الكتاب . اما الرواية اليهودية المختصرة في بعض الاسطر في النص الحالي للتوراة فيفيد اخذها هنا بالاعتبار .

يهودي مفروض عليه الراحة يوم السبت (٢) اتباعا لله الذي استراح بعد عمل دام ستة أيام من الاسبوع (٣) .

وهكذا فان مفهوم كلمة يوم في التوراة محدد بالمسافة الزمنية المعتبرة بين مطلعين للشمس او مغربين لها متتابعين بالنسبة الى ساكن الارض ، واليوم المحدد على هذه الصورة هو حصيلة دوران الارض حول نفسها . وانه لواضح بأنه لا يمكننا منطقيا التحدث في اطار هذا التحديد لمعنى « الايام » في نفس الوقت الذي لم يظهر فيه في الواقع بعدما يحقق تجمعه على هذه الصورة في دورات الخلق الاولى حسب رواية التوراة — بمعنى ان وجود الارض ودورانها حول الشمس — هذه الاستحالة ذكرت في الجزء الاول من هذا الكتاب .

ولئن رجعنا الى نصوص اغلبية ترجمات القرآن لقرانا فيها — بالمقابلة مع ما تعلمنا اياه التوراة — ان استمرار الخلق بالنسبة الى الوحي الاسلامي قد امتد ايضا على مسافة ستة ايام . اننا لا نعرف كيف نعتب على المترجمين عدم اعطائهم الكلمة العربية معناها الاكثر شيوعا كذلك تظهرها الترجمات عادة . ولكننا نستطيع ان نقراها في القرآن في الآيــة ٥٤ من السورة ٧ « ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة ايام » .

وقليلة تلك هي ترجمات القرآن وشروحه التي تفيد بأن كلمة « أيام » ينبغي أن تفهم حقيقة بمعنى الدورات الزمنية . وقد سبق واثبتنا ان النصوص القرآنية في الخلق تقسم هذه الدورات الى « أيام » وذلك برغبة تناول ما كان الناس كل الناس يعتقدونه في مطلع الدعوة الاسلامية من اليهود والمسيحيين دونما مصادمة لاعتقاد واسع الانتشار .

انه لا يمكننا في الواقع ، ودون ان نطرح جانبا هذه الطريقة في النظر ، ان نواجه المسألة من قرب ، ونفحص المعنى المحتمل للكلمة في القرآن نفسه وفي لغة العصر على العموم والذى لا يزال عدد من المفسرين يترجمونها الى « يوم » و « أيام » في الجمع في اللغة العربية (٤) .

ان معناه الاكثر شيوعا هو يوم . ولكنا نؤكد بأنه قد يفهم منه فترة الضياء في اليوم اكثر من ان يفهم منه دوام الزمن بين غروب شمس يوم وغروب شمس يوم آخر . ان لفظة « أيام » التي هي بصيغة الجمع يمكن ان تعني الايام بمفهومها العادي وان تعني ايضا الامتداد الزمني الطويل او

---

(٢) السبت معناه الراحة في العبرية .

(٣) ليس لهذه الفكرة اصل في عقيدتنا الاسلامية (المترجمون) .

(٤) سوف نرى في الصفحة الاخيرة من هذا المؤلف التطابق بين الطبائع اللاتينية والاحرف العربية .

دورة زمنية غير محددة [ولكنها ممتدة الطول] وهذا المعنى الذي يمكن ان يكون للكلمة موجود في اكثر من موضع في القرآن ويمكننا تلاوة ما يلي :

« يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون » سورة ٣٢ آية ٥ (١) .

[وتجدر الاشارة هنا الى ان الآية التي سبقت الاية خمسة هذه تذكر الخلق على انه في ستة ايام] .

« تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة » سورة ٧ آية ٤ .

ان استعمال كلمة يوم هنا بمعنى دورة من الزمن المخالف كل المخالفة لمعناه الدارج قد اذهل كثيرا من المفسرين القدماء الذين لم يكونوا يملكون بالطبع المعارف التي بين ايدينا والتي تسهل لنا الفهم الجديد ، وهو الامتداد الزمني لدورات تشكيل الكون . وقد ظل الامر كذلك الى ان تنبه الى ذلك في القرن السادس عشر بعد الميلاد المفسر ابو السعود الذي لم يكن بعد قد حصل على تعريف اليوم الذي تحدد فلكيا كنتيجة لدوران الارض ، فكر بانه ينبغي في موضوع الخلق اختيار تقسيم زمنه الى ايام بمعنى « نوبات » لا بالمعنى الذي اعتدنا استعماله .

وقد استفاد بعض مفسري هذا العصر من هذا التفسير الجديد . فهذا السيد يوسف علي ١٩٣٤ الح في شرحه لكل آية تعالج دورات من الخلق على ضرورة فهم كلمة اليوم بالمعنى الحقيقي لها وهو « الدورة الزمنية الطويلة » او « الآجال » .

وعلى هذا فاننا يمكننا القول بأن القرآن يعبر عن مراحل خلق العالم بانها ستة وبمعنى دورات طويلة من الزمن . والعلم الحديث لم يسمح للناس ، بالتأكيد ، بتثبيت المراحل الست المتنوعة للتكوين المتمد التي انتهت بتكوين العالم . ولكنه يعتبر وهو يوضح بانه يراد منها شكليا دورات زمنية طويلة ان فهمنا للفظة « الايام » الواردة في القرآن بالمعنى الذي ندركه عادة ، هو مهزلة .

وقد ذكر القرآن الخلق في اطول مقاطعه التي عالجت موضوعه وهو يسرد وقائع وجود الارض مقابل اخرى لوجود السموات . يقول الله مخاطبا الرسول سورة ٤١ آية ٩ — ١٢ :

« قل ائنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له اندادا »
« ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها »
«اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهي دخان»
« فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها . قالتا اتينا طائعين . فقضاهن »

---

(١) لقد اوردنا الاية بكاملها لزيادة الايضاح (المترجمون) .

« سبع سموات في يومين واوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا »
« بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم » .

هذه الايات الاربع من السورة ٤١ تبرز مشاهد متعددة ، سنعوذ اليها فيما بعد ، الحالة الغازية البدائية لمادة السماء ، والتحديد الرمزي لعدد السموات بسبع ، وسنري معنى الرقم ، والحوار الرمزي ايضا بين الله من جهة والسماء الدنيا والارض البدائيتين من جهة ثانية . وليس المراد هنا سوى التعبير عن خضوع السموات والارض بعد تشكلهما لاوامر الله . وقد راى بعض الناقدين في هذا المقطع ، ما يخالف خبر الدورات الست للخلق . اذ انه من اضافة دورتي تكوين الارض الى الدورات الاربع المخصصة التي قدرت فيها الاقوات لساكنيها ، والدورتين المخصصتين لتكوين السموات نستحصل على ثمان دورات ، وهو ما يتخالف مع عدد الستة للدورات المحدد من قبل .

والواقع ان هذا النص الذي دعي فيه الانسان الى التفكير بالقدرة الالهية الشاملة ابتداء من الارض وانتهاء بموضوع السموات يمثل جزاين موصولين بلفظة « ثم » المترجمة الى « زيادة » ولكنها تعني « بعد ذلك » أو « تبعا لذلك » اكثر من أن تعني « فيما بعد » . فهي إذا تفرض معنى تتابع مترتب على تتابع احداث، أو تتابع في تفكير الانسان في الاحداث المذكورة هنا . ويمكن أن يراد أيضا مجرد ذكر عادي لاحداث تقابل بينها دون مقصد ادخال معنى التتابع فيما بينها .

ومهما يكن فان دورات خلق السماء يمكن أن تتفق مع دورتي خلق الارض . وسنتفحص فيما بعد كيف ذكر في القرآن التتابع الاولي لتكوين العالم . وسنرى كيف ينطبق في آن معا على السموات والارض بالاتفاق مع المفاهيم المعاصرة . وسنتاكد من تمام شرعية هذه الكيفية في الادراك بفهم حصول الوقائع جملة واحدة .

وهكذا فانه لا يبدو اي تعارض بين ما هو وارد في المقطع المذكور هنا ، والمفهوم الذي تضمنته نصوص القرآن الاخرى عن تكون الكون في ست دورات أو مراحل .

القرآن لم يحدد نظام تتابع في خلق السموات والارض

لقد ورد ذكر خلق السموات والارض في مقطعي القرآن المذكورين آنفا [سورة ٧ آية ٥٤] وورد في مكان اخر منه ، ذكر خلق الارض والسموات [سورة ٤١ آية ٩ — ١٢] الامر الذي يجعلنا نفكر بان القرآن لا يحدد نظاما في خلق السموات والارض .

وفي القرآن آيات قليلة ذكر فيها أولا خلـــق الارض كما في السورة ٢ آيـــة ٢٩ والسورة ٢٠ آيـــة ٤ حيث أشير فيهما الى الذى [... خلق الارض والسموات العلى] بينما يوجد فيه بالعكس آيات اكثر عددا ذكرت فيها السموات قبل الارض [سورة ٧ آيـــة ٥٤ ـــ سورة ١٠ آيـــة ٣ ـــ سورة ١١ آيـــة ٧ ـــ سورة ٢٧ آيـــة ٥٩ ـــ سورة ٣٢ آيـــة ٤ ـــ سورة ٥٠ آيـــة ٣٨ ـــ ســـورة ٥٧ آيـــة ٤ ـــ ســـورة ٧٩ آيـــة ٢٧ ـــ ٣٣ ـــ سورة ٩١ آيـــة ٥ ـــ ١٠] .

والحق يقـــال ، لو تركنا جانبا السورة ٧٩ ، فليس في القرآن مقطع واحد يحـــدد التتابع بصورة ظاهرة . بل لا بد من حرف العطف « و » الذي هو بمعنى « et » بالفرنسية الذي يصل نقطتين . أو « ثم » المشـــار اليه سابقا والذي يمكن أن يحدد كما في المقطع المذكـــور من قبل بمعنى التتابع او الحصـــول معـــا .

وقـــد بدا لي أن في القرآن مقطعا واحدا ذكر فيه تتابع واضح بين احداث متنوعة للخلق وهي الايات ٢٧ ـــ ٣٣ من السورة ٧٩ .

« أأنتـــم اشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . واغطش ليلها واخرج ضحاهـــا . والارض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءهـــا ومرعاها . والجبال ارساها متاعا لكم ولانعامكم » .

هـــذا التعدد لنعم الله الارضية على النـــاس ، المساق بعبارة تناسب مزارعين ، أو بدو شبـــه الجزيرة العربية ، مسبوق بدعوة الى التفكير في خلق السمـــاء . ولكن ذكر المرحلة التي بسط الله فيها الارض ، وجعلها صالحة للزرع ، وارد زمنيـــا بالضبط بعـــد أن تحقق تكون الايام والليالي . فهنـــا اذن ذكر مجموعتين من الاحداث ، أحداهما تتعلق بالسماء والاخرى تتعلق بالارض وهي متتابعـــة في الزمن . فيفرض في العرض المذكور هنا وجود الارض ضرورة قبل أن تبسط ، وبالتالي فوجودها كان قائما حين اتام الله السماء . ويستخلص من هذا ظاهرة معية التطور السماوي والارضي مع تداخـــل بعض الاحداث . فلا لزوم اذن للبحث عن اي تفسير خاص لما هو مذكـــور في القرآن في موضـــــوع الخلق من ورود ذكـــر الارض قبل السموات أو العكس ، لان موضع الكلمات في النص هنا لا يثبت النظـــام الذي تم فيه الخلـــق اذا لم تتم تحقيقـــات في ذلك .

التتابع الزمني الذي هو اساس تكوين العالم وانتهـــاؤه ببنـــاء العـــالمين

يعرض القرآن في آيتين منه خلاصة من الاحداث التي الفت التتـــابع الزمني الذي هو اساس لتكوين العالم .

« اولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما . وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون » سورة ٢١ آيـــة ٣٠ .

يأمـــر الله النبي بأن يقول بعد ان يوجه الدعوة للتفكـير في موضوع خلـــق الارض :

« ... ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ... » سورة ٤١ آيـــة ١١ اللتين اطاعتـــا الاوامر بالخضوع كمـــا سبق واشرنا اليهـــا سابقا .

وسنعود فيما بعد الى أصل الحياة المائي الذي سنناقشه مع مسائل اخرى في علم الحياة واردة في القرآن . ولكن لا بد ان نبقى على ذكر مما يلي:

١ ـــ تأكيد وجود طبقـــة غازية مشحونة بذرات دقيقة . لانه كذلـــك ينبغي تفسير كلمة « الدخــــان » في العربية . اذ الدخان على العموم مؤلف من أصل غازي مشوب بذرات دقيقـــة لها امكانية الانتماء الى حالات المادة الجامدة والســـائلة ، وأن تكون في درجة من الحرارة مرتفعـــة تقريبا مع بقائها في حالة من الاستقرار .

٢ ـــ ذكر تتابع زمني للفتـــق من كتلة واحدة أساسية ملتئمة العناصر في الاصل [الرتق] والفتق في العربية هو الكسر ، والفصل ، والشق والرتق هو الجمع واللأم بين العناصر لتكوين كل متجانس .

هذا المفهوم بانفصال كل الى أجزاء ، قد اثبت في مقاطع اخـــرى من الكتاب بذكر العـــوالم الكثيرة . وهذه الايـــة الاولى من السورة الاولى من القرآن تقول بعد كلمة الافتتاح « بسم الله الرحمن الرحيم » « الحمــــد لله رب العالمين » .

وقد ترددت عبارة العالمين عشـــرات المرات في القرآن . كما ذكرت السموات أيضا متعددة لا بصيغة الجمع فحسب ، بل ايضا بالترقيم الرمزي بالرقـــم ٧ .

والرقـــم ٧ ورد في القرآن اربعا وعشرين مرة لمعدودات مختلفات . ومعناه في الغالب هو الكثرة دون ان نتأكد من معرفة سبب هذا الاستعمال بهذا المعنى . ويبـــدو أن الرقم ٧ عند اليونان وعنـــد الرومان يحمل أيضا معنى الكثرة غير المحددة . ولقد ورد هذا الرقم في القرآن سبع مرات مضافا الى السماوات . ومرة يعني السماوات المضمرة ، ومرة اخرى مع الطرائق التي هي فوقنـــا .

ففي الســـورة ٢ آيـــة ٢٩ يقول :

« وهو الذي خلـــق لكم ما في الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل خلق عليم » .

وفي السورة ٢٣ آيـــة ١٧ « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غـــافلين » .

وفي السورة ٦٧ آيــة ٣ « الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » .

وفي الســـورة ٧١ آيــة ١٥ ــ ١٦ « الم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا فجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا » (١) .

وفي السورة ٧٨ آية ١٢ « وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا » والسراج الوهاج هنا هو الشمس .

ولقــد اتفق المفسرون جميعا على أن معنى الرقم ٧ في هذه الايات هو الكثرة المطلقة وليس العدد بالذات (٢) .

فالسموات اذن كثيرة . وكذلك الارضون . وليست هذه واحــدة من المدهشات لقارىء القرآن المعاصر ، ان يجــد في نص من نصوص هــذا العصر الاخبار بان أراضي كثيرة مثل ارضنا يمكن أن تكــون في الكون وهو ما لم يستطع الناس حتى زماننا أن يصلوا الى كشف حقيقته . فالايــة ١٢ من السورة ٦٥ تخبر :

« الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن » « لتعلموا ان اللة على كل شيء قدير ، وان الله قد احاط بكل شيء علما » .

ولما كان العــدد ٧ كما رأينا ، يفيد كثرة غير محددة ، فيمكننا الاستنتاج بان النص القرآني يذكر بوضوح بانه لا يوجد سوى أرض هي أرض الناس ، وان كان يوجــد لها امثال في الكون .

ومما يدهش أيضا قارىء القرآن في القرن العشرين ، بعض آياته التي تذكر ثلاثــة أنواع من المخلوقــات هي :

١ ــ المخلوقات الموجودة في السماوات .
٢ ــ المخلوقات الموجودة على الارض .
٣ ــ المخلوقات الموجودة بين السماوات والارض .

واليك بعض هذه الايات :

« له ما في السموات وما في الارض وما بينهما ومــا تحت الثرى » سورة ٢٥ آيــة ٦ . « الذي خلــق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام » سورة ٢٥ آيــة ٥٩ . « الله الذي خلـــق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام » سورة ٣٢ آيــة ٤ . « ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب » سورة ٥٠ آيــة ٣٨ .

---

(١) نلاحظ ان القمر والشمس المسميين النيرين في التوراة معبر عنهما هنــا في القرآن بطريقة مختلفة . النور للقمر والشمس شبهت بالسراج الذي يعطي النور . وسنرى بعيدا نعتهما بغير ذلك .

(٢) خارج القرآن في نصوص عصر محمد او القرون الاوائل التي عقبت وفاتــه والتي نقلت اقواله نجد الرقم ٧ مستعملا لافادة الكثرة .

فكلمـــة « وما بينهما » واردة أيضا في القرآن في السورة ٢١ آية ١٦ والسورة ٤٤ آيـــة ٧ و٣٨ ، والسورة ٧٨ آية ٣٧ ، والسورة ١٥ آيـــة ٨٥ والسورة ٤٦ آيـــة ٣ والسورة ٤٣ آيـــة ٨٥ .

ان هذا الخلق الكائن خارج السموات والارض والوارد ذكره اكثر من مرة في القرآن هو من أول وهلـــة بعيد التصور . ولذلك فانه يجـــب لكي نفهم معنى هذه الايات أن نتذكر التجارب البشريـــة الاكثر حداثة عن وجود مادة كونية خارج الفلك ، ثم نسترجع المعلومات المثبتـــة من العلم المعاصر مبتداين من الاكثر بساطة الى الاكثر تعقيداً فيما يتعلق بتكـــوين الكون وهو غرض الفقرة التالية :

ولكن قبل الانتقال الى هذه الاعتبارات العلمية البحتة ، يحسن بنا ان نلخص النقاط الرئيسية التي يعرفنا القرآن بها بمناسبة حديثه عن الخلق وهي مـــا يلي :

١ ـــ وجود ســـت دورات للخلق على العموم .
٢ ـــ تداخـــل فترات خلق السموات وخلق الارض .
٣ ـــ خلق الكون من جرم بدائي أوحد يشكل كتلة انقسمت على نفسها فيمـــا بعد .
٤ ـــ كثرة السموات وكثرة الاراضي .
٥ ـــ وجود خلق وسيط بين « السموات والارض » .

النظام الشمسي

ان الارض والسيارات التي تدور حول الشمس تؤلف عالما منظما تبدو ابعاده عظيمة بالنسبة الى نظامنا الانساني . اليست الارض على مسافة تقارب ١٥٠،٠٠٠،٠٠٠ من الكيلومترات من الشمس ؟ هذه المسافة هي ضخمة بالنسبة لكائن بشري . ولكنها ضئيلة جدا مع ذلك بالنسبة الى معدل المسافة التي تفصل الشمس عن ابعد السيارات في النظام الشمسي، وهي أربعون مرة ضعف المسافة بين الارض والشمس . أي قريبا من ستة مليارات من الكيلومترات . وضعف هذه المسافة الذي يساوي أثني عشر مليارا من الكيلومترات يمثل اكبر بعد في نظامنا الشمسي . ولكن يصل ضوء الشمس الى الكوكب « بلوتن » يقضي ست ساعات يقطع بها المسافة بينهما بسرعته المخيفة التي هي [٣٠٠،٠٠٠] كلم في الثانية . مع العلم بان ثمة مليارات من السنين يقضيها الضوء بسرعته المذهلة ليصلنا من النجوم المركزة في أطراف الفضاء المعلوم .

المجرات

ان الشمس التي تمثل احد السيارات التي تدور في فلكها مع الكواكب الاخرى المحيطة بها ، ليست الا نجما صغيرا من بين مئات المليارات من النجوم التي تؤلف مجموعة المجرات . في ليل من ليالي الصيف نرى الفضاء كله منزرعا بها وهي تؤلف طريق المجرة . وهو ذو ابعاد ضخمة .

ولكي يطوف الضوء كل النظام الشمسي يحتاج من الوقت الى ٩٠٠٠٠٠ سنة ضوئية ، وهو الوقت الذي يحتاجه لكي ينتقل من طرف الى اخر في مجموعة من النجوم التي تؤلف مجرتنا .

ان هذه المجرة التي ننتمي اليها على ما هي عليه من الاتساع العجيب ، ليست الا جزءا صغيرا من السماء . وهناك مجموعات عملاقة من النجوم المماثلة في طريق المجرة خارج مجرتنا . كشفت منذ خمسين سنة أو تزيد قليلا ، عندما استطاع المفكرون بغزو الفضاء الاستعانة بأجهزة بصرية

ادق صنعا من تلك التي سمحت بتحقيق التلسكوب [جبل ويلسون في الولايات المتحـــدة] وبهذه الطريقـــة امكن الكشف عن عدد عجيب من مجموعات المجرات ، والمجرات المعزولـــة الواقعة على مسافات هي من البعد بحيث كان لا بد من تكـــوين وحـــدة خاصة من السنوات الضوئية « هي عبارة عن المسافة التي يقطعهـــا الضوء في ٣٦٢٦ سنوات بسرعـــة ٣٠٠،٠٠٠ كلم في الثـــانية » .

تكوين وتطوير المجرات والنجوم وانظمة السيارات

ماذا كان يوجـــد في الاصل في الفضاء الرحب المشغول بالمجرات ؟ ان العلم الحديث لا يملـــك الاجابة على هذا السؤال الا انطلاقـــا من عصر من عصور تطور العالم الذي لا يملك تحديد الفترة الزمنية التي تفصلنا عنه .

ويرى العلم أن العالم في الازمـــان الغابرة جدا ، التي لـــه التحدث عنها ، تكون من طبقة غازية مركبة أساسا من الهيدروجين وجزء من الهيليوم وهو في دوران بطيء .

هذه الكتلة من السحـــاب المظلم انقسمت الى عديد من الاجزاء ذات ابعاد واحجـــام ضخمة قدرها الاستروفيزيكيون بمعدل مليار الى مئة مليار ضعف حجم الشمس الحالي « الذي يساوي اكثر من ٣٠٠،٠٠٠ ضعف حجم الارض » وهي ارقام تبرز لنـــا اهمية اجزاء هذه الطبقة الغازية البدائية التي انبثق عنها فيما بعـــد وجود المجرات .

ثم بانقسام جديد تشكلت النجوم . وهناك جرى تكثف متطاول تدخلت فيه قوى جاذبة [لان هذه الاجســـام هي دوما في حركـــة ودوران متزايد السرعة] وضغوط وتأثير حقول مغناطيسية وشعاعية فتلألأت النجـــوم مع تقلصها وتحويلهـــا القوى الجاذبة الى قوى حرارية . وتدخـــل في اللعبة انعكاسات نواة حرارية ذريـــة ، وتتكون عن طريق الانصهار والاتحاد ذرات أكثر ثقـــلا على حساب ذرات أخر أكثر خفة فيتم الانتقال من الهيدروجين الى الهيليوم ثم الكربون فالاوكسجين للصيرورة الى المعادن ثم الى الميتالوبيد(١) .

وهكذا فان للنجـــوم حياة خاصة رتبها علم الفلك الحديث وهو يتبع نظامها المتطور . ولها موت . وقـــد لاحظنا في النظام الاخير المتطور انفجار بعض النجـــوم المشتعل وهي تتحول الى جثث حقيقية .

والكواكب ، والارض بخاصة انبثقت أيضا من انفصال ثم على امتداد

(١) الميتالوبيد هو الجسم البسيط غير المعدني كالاوكسجين والازوت والكلور واليود والكبريت والفوسفور والكربون وغيره .

زمني طويل انطلاقا من التركيب الاولي الذي كانت عليه في البداية الطبقة الغازية الاساسية . والقول بان الشمس قد تكثفت ضمن الطبقة الغازية الوحيدة ، وان الكواكب تكثفت كذلك في اطار طبقة غازية كانت تحيط بها ، أمر لم ينازع فيه احد منذ ربع قرن . وينبغي ان نلاحظ [وهذا مهم جدا بالنسبة للموضوع الذي يشغلنا هنا] بأنه في تكوين الاجرام السماوية كالشمس وكذلك في تكوين عناصر الارض لم يحصل تتابع ، بل تطور متواز مع وحدة في الاصل .

وهنا يعرفنا العلم بالعصر الذي جرت خلاله التطورات الكونية التي سبق وذكرناها . فاذا كان التقدير التقريبي لوجود مجرتنا في عمق الزمن هو عشرة مليارات من السنين ، فان افتراض تكون النظام الشمسي يمكن أن يكون بعد ذلك بخمسة مليارات من السنين او أزيد قليلا .

ان دراسة الشعاع المتحرك الطبيعي ، يسمح بان يحدد عمر الارض ، ووقت تكون الشمس باربعة مليارات ونصف مليار من السنين مع تحقيق حالي بمئة مليون سنة على الاقل حسب حساب بعض العلماء . ولئن كانت مئة مليون من السنين تمثل زمنا طويلا ، فان مثل هذا التحقيق يبتعث العجب حقا . اذ ان نسبة الخطأ في أعلا درجاته الزمنية هي ٠،١ أي ٢،٢٪ . وكذلك فان الاختصاصين الاستروفيزيكيين وصلوا ٥ر٤
بالنسبة لتكوين النظام الشمسي الى درجة مرتفعة من العلم عن الامتداد الزمني العام ، والذي يمكن تلخيصه فيما يلي :

تكثف ، ثم تقلص طبقة غازية مع دوران ثم انفصال الى اجرام كان منها الشمس والكواكب السيارة ومنها الارض(١) . هذه المكاسب العلمية عن الطبقة الغازية المظلمة الاولى وطريقة انقسامها الى كمية عجيبة من النجوم تجمعت في مجرات لا تدع مجالا لادنى شك في صدق فكرة تعدد العالم . ولكنها لا تزال غير مالكة لاية أداة لاثبات وجود ما يشبه الارض في الكون من قريب أو بعيد .

فكرة تعدد العوالم

ومع ذلك فان الاستروفيزيكيين المعاصرين يفترضون وجود كواكب مماثلة للارض في الكون . ولكن واحدا منهم لا يظن بأن من المعقول فيما يخص النظام الشمسي ،بامكانية وجود على كوكب آخر من هذا النظامبشروط عامة مشابهة للتي على الارض . وفي حال افتراض قبول وجود مثل ذلك ، فينبغي أن يبحث عنه خارج المجموعة الشمسية للاسباب التالية :

---

(١) اما بالنسبة الى القمر فهناك شبه حقيقة بانه ثمرة انفصال متقدم للارض مع تباطؤ دورتها.

يرى البعض بأن في مجرتنا نصف المئة مليار من النجوم ينبغي أن يكون لها نظام كوكبي كما للشمس نظام شمسي . وفي الواقع فان لهذه الخمسين مليارا من النجوم كما للشمس دورة بطيئة خاصة تستدعي التفكير بوجود سيارات حولها تابعة لها . وأن هذه النجوم هي من البعد بحيث لا ترى معه السيارات المفروضة التابعة لها ، وان كان وجودها شديد الرجحان تبعا لعدد من الخصائص الهالية . وتموج هالة النجم الخفيف هو علامة على وجود تابع سياري مجاور . وهكذا فان نجم « برنار » سيكون له تابع سياري على الاقل من مجموعة مجاوزة مجموعة « جوبيتر » ويمكن أن يكونا تابعين . وقد كتب ب. جيران « ان الانظمة الكوكبية واضحة الانتشار بغزارة في الكون . والنظام الشمسي والارضي ليسا فريدين » وكتابع أو نيل : « فان الحياة كالسيارات التي تظلها فائضة في جميع الكون وفي كل مكان توجد فيه » .

الشروط الفيزيكو ـ كيميائية الضرورية لوجودها ونمائها المادة الموجودة بين النجوم

ان الامتداد الزمني الطويل الاساسي لتكوين الكون ، استقر اذن في صورة تكثف مادة الطبقة الغازية المظلمة البدائية ، ثم بانقسامه الى أجزاء الفت في الاصل الكتل الفلكية . ثم انقسمت هذه ايضا على نفسها الى نجوم كان منها النتاج الثانوي الذي هو الكواكب السيارة . وهذه الانقسامات المتتابعة تركت بين المجموعات عناصر رئيسية سميت فيما بعد البقايا ، ثم اطلق عليها الاسم العلمي وهو « المادة الفلكية لما بين النجوم » وقد وصفت بأوصاف متنوعة مرة بالطبقة الغازية المتلألئة التي تبث من نجوم اخر يمكن أن تكون مؤلفة من « الغبار » أو « الدخان » حسب تعابير الاستروفيزيكيين ، واحيانا بالطبقة الغازية المظلمة بكثافة اقل او مادة ما بين النجوم اكثر تركزا المعروفة لتشويش مقاييس التصوير الفلكي . ان وجود « جسور » من المادة بين المجرات نفسها لا شك فيه . وبالرغم من ندرة هذه الغازات ، فانها يمكنها بسبب المسافة الفسيحة من الفضاء التي تشغلها تبعا للبعد الرحيب بين بعض المجرات والبعض الاخر أن تتجانس مع طبقة تكون قابلة رغم ضعف كثافتها لتجاوز مجموعة اجرام المجرات .

ويعلق ا. بواشو على وجود هذه الاجرام الفلكية أهمية اولية قابلة لتغير الافكار حول تطور الكون بشكل عظيم .

والآن وفي ضوء هذه المعطيات العلمية المعاصرة ، ينبغي استعراض الافكار الاساسية المستخلصة من القرآن عن خلق الكون .

المواجهة مع معطيات القرآن عن الخلق :

لنتفحص النقاط الخمسة الاساسية التي يستند اليها القرآن في تحقيقاته بمناسبة الحديث عن الخلق :

١ — ان الدورات الست لخلق السماوات والارض حسب افـــادات القرآن تغطي تشكيل الاجرام السماوية والارضية ، ونماء هذه الاخيرة حتى تصبح [مع اقواتها] صالحة لسكن الناس . وقد تم تشكيل الاجرام الارضية ونماؤها ، وتقدير اقواتها في خبر القرآن ،في اربعة ازمان ،فهل علينا ان نرى العصور الجيولوجية التي وصفها العلم المعاصر ، بعد ان ظهر الانسان كما نعلم في العصر الرابع ؟ ان هذا ليس سوى مجرد افتراض . ولا يستطيـــع احد الاجابة على هذا السؤال .

ولكن ينبغي ان نلاحظ بانه كان لا بد لكي تشكل الاجرام السماويـــة ، وكذلك الارض كما توضحه الآيات ٩ — ١٢ من السورة ٤١ من مرحلتين . ويعلمنا العلم بانه إذا ضربنا مثلا تشكل الشمس وتابعها الارض [وهو المثل المقبول] فقد تم على امتداد زمني طويل بتكثف الطبقة الغازية البدائيـــة وانفصالها . وهو بالضبط ما يقوله القرآن ببساطة بذكر امتدادات زمنيـــة حققت انطلاقا من « الدخان » السماوي تلاحما ثم انفصالا . وبهذا نسجـــل اذن هنا وحدة كاملة بين المعطى القرآني والمعطى العلمي .

٢ — لقد كشف العلــــم عن تداخل حدثين لتكوين نجم [كالشمس] وسيارها او احد من سياراتها التابعة لها [كالارض] افلا يظهر هذا التداخل في النص القرآني كما رايناه هنا ؟ !

٣ — التطابق بارز بين تاكيد وجود « الدخان » في الحقل البدائي للكون الذي تكلم عنه القرآن ليعبر عن حالة التسلط الغازية للمادة التي تتكون منها اذ ذاك ، ومفهوم الطبقة الغازية البدائية حسبما يقوله العلم الحديث .

٤ — موافقة العلم على كثرة السماوات المعبر عنها في القرآن بالعدد الرمزي سبعة الذي راينا معناه سابقا . وذلك من التجارب التي قام بهـــا العلماء الاستروفيزيكيين عن الانظمة الفلكية وعددها الضخم . وعلى العكس فان كثرة الاراضي بالمقابلة على الاقل في بعض الصور مع ارضنا هي نظرية مستخرجة من نص القرآن . ولكن العلم لم يكشف عن حقيقتها بعد ، بينمـــا يعتبرها الاختصاصيون كما لو كانت حقيقية مقبولة تماما .

٥ — ان وجود خلق متوسط بين « السماوات » و « الارض » كمـــا يقول القرآن قريب من اكتشاف جسور المادة هذه الموجودة خارج النظـــام الفلكي الدقيق .

على ان معطيات العلم في تكوين العالم اذا لم تؤيد جميع المسائـــل المطروحة من القرآن في هذا الموضوع ، فانه على كل حال لا يوجد اقـــل

تعارض بينها وبين المعطيات القرآنية في ذلك . وان هذه الحقيقة تستحق ان تسجل لصالح الوحي القرآني في الوقت الذي ظهر بوضوح ان نص التوراة الذي هو بين ايدينا اليوم ، قد جاءنا في هذه الوقائع بتحقيقات غير مقبولة من وجهة النظر العلمية . كيف ندهش من هذا عندما نعرف ان النص الكهنوتي لخبر الخلق في التوراة (١) كتب من الكهنة الذين كانوا في زمن النفي الى بابل ، والذين كانت لهم اهداف نظامية حققوها ، كما صنعوا حسب تفكيرهم رواية مناسبة لنظرتهم اللاهوتية . وانه لمن الاهمية بمكان تسجيل مثل هذه الاختلافات بين خبر التوراة والمعطيات القرآنية عن الخلق وبخاصة تجاه الاتهامات [التي لا مبرر لها] التي لم يقتصر في توجيهها الى محمد من بدايات الاسلام بانه نقل الاخبار التوراتية . مع انها ليس لها اي سند فيما يتعلق بموضوع الخلق (٢) فكيف يمكن لرجل مضى على ظهوره أربعة عشر قرنا تقريبا ان يصحح الخبر في هذه النقطه بالذات، وهي جزء من مجموعة اخطاء من وجهة النظر العلمية ويبدلها من عندياته بمعطيات اظهر العلم نهائيا صحتها في هذا العصر ؟ ان مثل هذا الافتراض غير ممكن لان القرآن قد اعطى عن الخلق خبرا يختلف كل الاختلاف عما اعطته التوراة .

أجوبة عن بعض الاعتراضات

لا جدال بوجود تشابه بين الاخبار التوراتية والاخبار القرآنية بمناسبة مواضيع أخرى وبخاصه المواضيع المتعلقة بالتاريخ الديني . غير انه من الطريف الانتباه الى اننا اذا لم نعب على عيسى اعادة ذكر الوقائع الخاصة بنفس الموضوع والتعاليم التوراتية ، فكيف نعيب على محمد ان يوردها هو أيضا في مواعظه ، فضلا عن ان نصفه بانه غشاش ومخادع لانه ساقها على أنها من جملة ما يوحى اليه ؟(٣) ولكن اين هو البرهان الذي يثبت ان محمدا نقل في كتابه ما علمه اياه الربانيون أو املوه عليه ؟ انه ليس له من سند الا ما يؤكده البعض من ان راهبا مسيحيا قد علمه الدين . ومع ذلك فلنقرأ ما كتبه ر. بلاشير « عن هذه الفرية » في كتابه « مسألة محمد » (٤) .

---

(١) هذا النص يخفي بعض السطور عن الخبر الكهنوتي المختصر والغامض ليؤخذ بالاعتبار من فكر علمي .

(٢) ليس لها اي سند فيما يتعلق بموضوع الخلق او في اي موضوع اخر (المترجمون)

(٣) ان محمداً صلى الله وسلم والرسل من قبله عيسى ، وموسى وغيرهما ممن حملوا كتب الله وصحفه ورسالاته يقرون باعتزاز بان ما نقلوه للناس ليس من بنات افكارهم ، بل هو من عند ربهم . يقول تعالى : « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى و عيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون » بقرة آية ١٣٦ .

(٤) المطابع العالمية في فرنسا ١٩٥٢ .

ان هناك ظاهرة تشابه بين بعض الاخبار القرآنية والمعتقدات التي تعود الى أزمنة متقدمة وسابقة بلا شك على التوراة ، ونستطيع ان نقول بصورة أعم انا رأينا تسرب بعض الاساطير المتعلقة بالخلق في الكتابات المقدسة . نذكر منها على سبيل المثال عقيدة « البولننزيين » في وجود المياه البدائية غارقة في الظلمات التي انقشعت بالنور فتكونت السماء والارض . اننا عندما نقارن هذه الخرافة مع خبر الخلق في التوراة نجد على سبيل اليقين بعض التشابه . ولكن من السخف بمكان اتهام التوراة بانها نقلت هذه الاسطورة في الخلق .

وكذلك تكون النظرة الى مفهوم القرآن في انقسام المادة الاولية التي الفت العالم في الفترة البدائية ، هذا المفهوم الذي هو مفهوم العلم الحديث ، اذا اعتبرناه متسربا اليه من اساطير الخلق المتنوعة التي تعبر بشكل او بآخر عن شيء قريب منها .

على انه من المهم ان نعالج هذه العقائد والاخبار الاسطورية لانه يظهر فيها أحيانا فكرة عن البدء صحيحة في ذاتها ، وفي بعض الاحوال مطابقة للحقيقة التي نعرفها اليوم او التي نفرض معرفتها ، ولكنها تتراكم عليها في الخرافة أوصاف الخلق الاسطورية فتطمسها . هذا هو المفهوم الواسع الانتشار عن السماء والارض اللتين كانتا رتقا ثم فتقتا . وعندما جمعت صورة البيضة في اليابان بتعبير مشوش مع نواة في الداخل كما هو الحال في كل بيضة ، فان الصورة التي نتجت اضاعت كل وضوح فيها . وفي بلدان اخرى صورت النبتة التي تنمو لترفع السماء وتفصلها عن الارض ، وعملت الأخيلة البشرية عملها في حياكة تفاصيل اعطت الخرافة سمتها الخاص بها . وهكذا فانه لا يبقى من ذلك سوى السمة العامة مع مفهوم كتلة واحدة وجدت في منطلق الامتداد الزمني الطويل المتطور للكون الذي انتهى عن طريق الانفصام الى ما نعرفه من العوالم المتعددة .

واذا كانت أساطير الخلق هذه قد أثيرت هنا ، فذلك لتسجيل مهارتها بخيال الانسان . وللتنبيه على الاختلاف العميق الموجود بين الاخبار القرآنية عن الموضوع المنزهة عن التفاصيل النابعة من الهوى التي رافقت هذه المعتقدات والموسومة على العكس باعتدال عبارتها الاخبارية وانسجامها مع معطيات العلم الحديثة .

وهكذا فان أخبار القرآن عن الخلق ، وقد اتسمت بهذه الخصال منذ اكثر من اربعة عشر قرنا تبدو خالية من اية مداخلة بشرية .

علم الفلك في القرآن

لقد اكثر القرآن من التأملات في السماء . وقد مر في الفصل السابق المتعلق بالخلق ذكر تعدد السموات والارض ، وذكر وجود ما اطلق عليه بانه ما بينهما . وهو ما كشف العلم عن حقيقته . ولقد اعطت آياته المتصلة بالخلق باسلوب ما ، فكرة عامة عما حوته السماوات ، اي كل ما هو خارج عن عالمنا الارضي .

وزيادة على آيات منه مختصة بوصف الخلق فان اربعين من آيات قرآنية اخرى تنقل عن الفلك تحقيقات مكملة لهذه المعطيات . بعضها ليس الا تأملات في مجد الخالق مدبر انظمة النجوم والكواكب السيارة التي نعرفها منضدة حسب أوضاع من التوازن أوضح نيوتن تماسكها بموجب قانونه في تجاذب الاجسام .

والآيات الاولى المذكورة هنا لا تقدم ابدا مادة للتفكير العلمي ، لان غرضها لفت الانتباه الى قدرة الله المطلقة . ولكن مع ذلك ، ينبغي ذكر بعضها لاعطاء فكرة حقيقية عن الاسلوب الذي قدم به القرآن منذ اربعة عشر قرنا نظام الكون .

ان هذه الاشارات تجعل للوحي الالهي عملا جديدا . فلا الاناجيل ولا العهد القديم [نضع جانبا التعاليم التي شاهدنا عدم صحتها الاجمالية في رواية التوراة عن الخلق] تناولت نظام الكون . بينما واجهه القرآن طويلا . فما حواه عنه وما لم يحوه مهم . والواقع انه لم يحو سردا للنظريات المتبناه حينئذ في تنظيم عالم السماء الذي كشف العلم عدم صحته والذي سنمثل له فيما بعد ، فهذه الصورة السلبية ينبغي ذكرها . (١)

---

(١) لقد سمعت غالبا القول من اولئك الذين يهتمون بالبحث عن توضيح انساني محسب لكل مسالة يطرحها القرآن وان كان يحتوي تحقيقات مدهشة عن علم الفلك ، بأن العرب كانوا في هذه النقطة على علم غزير . وقد نسي الكثيرون ان توسع العلم في العموم في البلاد الاسلامية كان بعد القرآن ، وان كل طريقة للمعارف العلمية لهذا العصر العظيم لم تسمح لاي كائن انساني لكتابة بعض الايات من الفلك التي وجدناها في القرآن. والوصف سيعطي في الفقرات التالية .

آ ـ أفكار عامة في السماء

سورة ٥٠ آية ٦ . ويقصد هنا الناس على العموم .

« افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج »

سورة ٣١ آية ١٠

« خلق السموات بغير عمد ترونها »

سورة ١٣ آية ٢

« الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر »

ففي هاتين الاخيرتين ما يدحض العقيدة التي ترى ان السماء لا يمكنها ان تنتهض الا على عمد خشية ان تقع على الارض .

سورة ٥٥ آية ٧ : « والسماء رفعها »

سورة ٢٢ آية ٦٥ : « ويمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه »

اننا نعلم ان تباعد الاجرام السماوية على مسافات كبيرة ومتناسبة مع اهمية الاجرام نفسها يؤلف أساس توازنها . وكلما كانت متباعدة ، كلما كانت القوى الجاذبة من بعضها نحو البعض الآخر ضعيفة . وكلما كانت متقاربة ، كلما هوش بعضها على الآخر ، كما هو حال القمر عند قربه من الارض .

والمقصود هنا السياق الفلكي ، اذ يؤثر ، حسب قانون الجاذبية ، على وضع مياه البحار ، فتظهر عملية المد والجزر . اما اذا تلاقى جرمان سماويان خطأ فالتصادم لا مفر منه . والخضوع للنظام هو شرط لا بد منه لامتناع الاختلال .

وبالاضافة الى أن خضوع السماوات للنظام الالهي مطروح في الغالب . يخاطب الله الرسول بقوله : « قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم »

وقد عرفنا من قبل انه ينبغي الفهم من : « سبع سماوات » ، سماوات كثيرة ، وليس عددا محددا .

سورة ٤٥ آية ١٣ : « وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه . ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »

سورة ٥٥ آية ٥ : « الشمس والقمر بحسبان »

سورة ٦ آية ٩٦ : « ... وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا»

سورة ١٤ آية ٣٣ : « ... وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار »

وهذه آية تكمل الاخرى . اذ من ثمرات الحسبان المذكور ، تنظيم حركة الاجرام السماوية المتواجهة والمعبر عنها بوصف « دائب » اسم فاعل لفعل معناه الاصلي : العمل بحرارة مع المثابرة ، لشيء ما وقد اعطي

هنا معنى « الاجتهاد » لعمل ما بعناية وبصورة متوالية لا تتبدل وبمقتضى عادة ثابتة .

سورة ٣٦ آية ٣٩ : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم» اشارة الى انحناءة العرجون اليابس الذي يأخذ شكل تقوس الهلال . وسنكمل الشرح فيما بعد .

سورة ١٦ آية ١٢ : «.وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون »

لقد ذكرت المقابلة العملية لهذا التنظيم السماوي الكامل ، مع الالحاح على ابراز فائدتها في تسهيل انتقالات الانسان على الارض والبحر ، وتسهيل حسابات الزمن . وتتضح هذه الملاحظة عندما نتذكر ان القرآن هو في الاصل ارشاد موجه الى الناس الذين لا يستطيعون فهم سوى لغتهم البسيطة المتداولة بينهم في حياتهم الجارية الامر الذي سبب وجود الافكار التالية :

سورة ٦ آية ٩٧ : « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون »

سورة ١٦ آية ١٦ « ... وعلامات وبالنجم هم يهتدون »

سورة ١٠ آية ٥ « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون »

وهنا تبرز ملاحظة تفرض نفسها ، هي انه في الوقت الذي وصفت التوراة الشمس والقمر « بالنيرين » واضافت الى احدهما وصف الكبر ، والى الثاني وصف الصغر ، فان القرآن ينسب الى كل منهما امتيازات أخرى غير امتياز الحجم . والتمييز ليس بالتأكيد ألا تعبيريا . ولكن كيف نبين لأناس هذا العصر دون ان نوقعهم في الحيرة والضلال أن الشمس والقمر ليسا نيرين من طبيعة واحدة ؟

ب ـ طبيعة الاجرام السماوية .

● الشمس والقمر

ان الشمس ضياء ، والقمر نور . ويبدو هذا المعنى اكثر صحة من ذلك الذي يعطيه آخرون يقلبون فيه التعريفين . والقول الصحيح ، ان الفرق بين المعنيين ضعيف ، فان الضياء مأخوذ من المصدر « ضوء » ومعناه كما يوضحه القاموس التقليدي « فازيمرسكي » لمع ، أشع [يقال عن النار] بل ويعطيه معنى النور بجانب الضياء .

على ان الفرق بين الشمس والقمر بارز في القرآن بمقارنات اخرى .

سورة ٢٥ آية ٦١ : « تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا »

سورة ٧١ آية ١٥ ــ ١٦ « الم تروا كيف خلق اللـــه سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا » .

ســـورة ٧٨ آيـــة ١٢ ــ ١٣ « وبنينا فوقكم سبعا شـــدادا وجعلنا سراجا وهـــاجا » .

والسراج الوهاج هو بوضوح الشمس .

لقد وصف القمر هنا كأنه جرم ينير « منير » من المصدر نفسه الذي هو نور . وهو منسوب الى القمر ، بينما الشمس مشبهة بالسراج والقنديل الوهـــــاج .

ان أي رجل من عصر محمـــد يمكنه بالتأكيد التفريق بين الشمس ، الكوكب المشتعل والمعروف جيدا من سكان الصحراء ، والقمر ، الكوكب المهيأ لبرودة الليالي . والمقارنات التي نجدها في هذا الامر في القرآن اذن هي طبيعية . ولكن ما يهم تسجيله هنا هو بساطة التشبيه وايجازه وغياب كل عنصر للتشبيه كان متداولا في ذلك العصر من نص القرآن الامر الذي يبدو في أيامنا كانما هو من قبيل السحر .

اننا نعلم بان الشمس نجم يرسل عن طريق اشتعالاته الداخلية حرارة شديدة ، كما يرســل النور الذي يعكســـه القمر غير المضيء بذاته لدى وصولـــه اليه ، فيما هو كوكب بارد [بالنسبة الى طبقتـــه الظاهرة على الاقل] وليس في القرآن ما يتجـــه الى مصادمة كل ما نعرفه في أيامنا عن هذين الجرمين السماويين .

النجـــــوم

والنجـــوم كما نعلم كالشمس ، اجرام سماوية ومواقع ظواهر طبيعية مختلفـــة . وأهم ما يلاحظ منها دونما تكلف ، ارسالها الضياء . انها ذات تألق خاص . وقـــد وردت كلمة النجم في القرآن ثلاث عشرة مرة [نجم جمعهـــا نجوم] انها مصدر معناه الظهور والانكشـــاف . وهو يعني هنا جرما سماويا مرئيـــا دون القدرة على تحديد طبيعته . انه يرسل الضياء أو يعكســـه بعد ان يصل اليه . وللتأكيد بان الموضوع المعني هو ما نسميه النجم اضيف اليه وصـــف كما سنراه فيما يلي :

سورة ٨٦ آية ١ ــ ٣ : « والسماء والطارق . وما ادراك ما الطارق؛ النجم الثـــاقب » .

ان نجم الليل موصوف في القرآن بكلمـــة ثاقب . وتعني المشتعـــل المحترق . والذي ينسرب عبر شيء ما [وهنا ظلمات الليل] . والكلمة نفسها مستعملة في مكان اخر من القرآن لتعني النجوم السارية [الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب . سورة ٣٧ آية ١٠] وهذه الشهـــب هي نتيجـــة الاحتراق .

الكواكــب السيــارة

انه لمن الصعب القول بان هذه الكواكب السيارة مذكورة في القرآن بالمعنى الدقيق الذي نعطيــه لهذه الاجرام السماوية . فالكواكب ليست مضيئة بذاتها . انها تدور حول الشمس . وارضنـــا واحدة منها . واذا كنا نظن بأنه يوجد شيء منها في مكان اخر فــلا نعرف الا ما هو ضمن مجموعة النظــام الشمسي .

وقديما كانت خارج الارض خمسة كواكب معروفة من الناس . وهي : عطـــارد ، والزهرة ، والمريخ ، وجوبيتر ، وزحل ، وثلاثة اخرى عرفت حديثا هي : أورانوس ، ونبتون ، وبلوتون .

ويبـــدو أن القرآن يعنيها عندما يطلق كلمة كواكــب دون أن يحدد عددها . ورؤيا يوسف ذكرتها على انها احد عشر . ولكن يقصد من ذلك قصـــة خيالية(١) .

بيد أن القرآن أورد تعريفا جيدا لمعنى الكلمـــة في آية منـــه واسعة الشهرة ، يبـــدو أن معناها العميق من حيث الاساس روحي ، وفيما تبقى منه هو موضع نقاش المفسرين . وهو يمثل فائدة كبيرة على الاقل في صدد التشبيـــه المعقود حول كلمة يظن انه يراد منها كواكب :

هذه الآيـــة هي في السورة ٢٤ آيـــة ٣٥ :

« الله نـــور السموات والارض مثل نوره كمشكـــاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب دري » .

ويراد هنا ارســـال ضوء على جسم يعكسه [الزجاج] مع اعطائه التماعة اللؤلؤة . كما يكون الكوكب منارا من الشمس . هذا هو التفصيل الوحيـد الموضح المتعلق بهذه الكلمة الذي يمكن الوقوع عليه في القرآن :

وقد وردت هذه الكلمة في آيات أخرى . ولكننا لا يمكننا أن نحدد في بعضها الجرم السماوي الذي تعنيه . « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا » سورة ٦ آية ٧٦ « واذا الكواكب انتثرت » سورة ٨٢ آية ٢ .

غير انه يخيل الينا ، في ضوء المعارف الحديثة ، انه لا يمكن أن يراد الا الاجرام السماوية . المعروفة منا على انها الكواكب . وانا في الواقع نقرأ في الســـورة ٣٧ آيـــة ٦ :

« انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » .

فهل تعنى عبارة القرآن « السماء الدنيا » النظام الشمسي ؟ انا نعرف بانه لا يوجد بين العناصر السماوية الدانية منا ، عناصر اخرى دائمة الا الكواكب . والشمس هي النجم الوحيـد من مجموعـــة النظام الشمسي

---

(١) لقد كان حلم يوسف قبل نبوته ارهاصا . وارهاصات الانبياء لا يداخلها الخيال الـذي يمتزج فيه الحق والباطل لانها حق كلها . المتـرجمون .

الذي يحمل اسمه . ولا ندري اي اجرام سمـــاوية غير الكواكب المعروفة علميا قد تراد من هذه الآية . فالتفسير اذن صحيح . والقرآن بذكره وجود الكواكب كان يعنيها حسب التعريف الحديث .

السمـــاء الدنيـــا

يذكر القرآن في أكثر من مناسبة السماء الدنيا ، والاجرام السماويـــة التي تتألف منها . وفي مقدمتهـــا يبدو كما سبق ورأينا الكواكـــب . ولكن الفحوى حين يتعرض لمعلومات مادية مقبولة من فهمنا المعاصر المستنيـــــر بالعلم الحديث ، يغدو شديد الغموض .

فاذا كان فهمنا للايـــة الاخيرة سهلا ، فاننا مع الآية رقم ٧ من نفس السورة : « وحفظا من كل شيطان مارد » التي فيهـــا لفظة « وحفظـــا » الواردة ايضا في السورة ٢١ آية ٣٢ والسورة ٤١ آية ١٢ نلقى انفسنا في مواجهـــة مع اعتبـــارات من نوع اخر .

فما تأويل وضـــع « الحجارة التي هي لرجم الشياطين » الواردة في الآية ٥ من الســـورة ٦٧ في السماء الدنيا ؟ وهل « المصابيح » المذكورة في هذه الآية بالذات هي النجوم(١) السيارة التى رأينا ذكرها سابقا ؟(٢) .

كل هذه الاعتبارات تبدو كأنما هي خارج موضوع هذه الدراسة . الا اننا ذكرناها هنا تكملـــة لها . وعلى كل فان المعطيات العلميـــة الحديثة لا تبدو قادرة على أن تنزل الاشياء منازلها فتسلط الضوء على موضوع يتجاوز الفهم الانســـاني .

جـ ـــ التنظيم السمـــاوي

ان الذي نجـــده في القرآن عن هذا الموضـــوع يتعلق أصلا بالنظـــام الشمسي . بيد أن ثمة اشـــارات أيضا الى ظواهر تتعـــدى هذا النظام بالذات وقد اكتشفـــت في العصر الحديث .

في القرآن آيتان مهمتان تتصلان بمداري الشمس والقمر وهما : قوله في الســـورة ٢١ آية ٣٣ « وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر

---

(١) انا نعلم ان الشهاب بعد ان يصل الى الطبقات الفضائية العليا يستطيع ان يحدث ظاهرة النجم السيار المضيئة .

(٢) قال القرطبي في تفسير كلمة « رجوما » أي جعلناها شهبا .. دليله قوله تعالـــى : « الامن خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب » وعلى هذا فالمصابيح لا تزول ولا يرجـــم بهـــا . وقيل ان الضمير راجع الى المصابيح على ان الرجم من نفس الكواكب . ولا يسقط الكوكـــب نفسه انما ينفصل منه شيء يرجم به من غير ان ينقص ضوؤه قاله ابو علي جوابا لمن قال : كيف تكون زينة وهي رجوم لا تبقى . قال المهدوي : وهذا على ان يكون الاستراق من موضـــع الكواكب والتقدير الاول على ان يكون الاستراق من الهوى الذي هو دون موضع الكواكب . المترجمـــون .

كل في فلك يسبحون » وقوله في السورة ٣٦ آيـة ٤٠ « لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » .

وفيهما ذكر بوضوح لشيء اساسي هو : وجود الافلاك للقمر والشمس كما فيهما اشارة الى انتقال هذه الاجرام في الفضاء بحركة منظمة وخاصة .

ويبدو زيـادة على مـا تقدم من قراءة هذه الآيات حـدث من النوع السلبي حيث بان بأن الشمس تنتقـل في فلك ، ولم يوضح ما سيكون عليه هذا الفلك بالنسبـة الى الارض . فقـد كان النـاس يعتقدون في عصر الوحي القرآني بأن الشمس تجري مع الارض التي هي نقطة ثابتة . وهذا هو النظـام المحوري المعروف الذي ظل مقيمـا منذ بطليموس في القـرن الثاني قبل الميلاد حتى عهد كوبرنيك في القرن السادس عشر ، هذا المفهوم الذي التقى الناس عليه مع ذلك حتى عصر محمـد ، لـم يظهـر في القرآن في موضع منه مطلقـا .

وجود الافـلاك للقمر وللشمس

يراد من لفظـة orbite هنا كلمة فلك في اللغة العربية . وهي التي نقلهـا عديد من المترجمين للقرآن ، الى اللغة الفرنسيـة الى كلمة sphère « كره » وهي حقـا المعنى الاصلي للكلمـة . ولكن حميدالله ، اختار لها كلمـة orbite . لقد اقلقـت هذه الكلمة الشراح القـدامى للقرآن الذين لم يكونوا يتصورون جريان القمر والشمس الدائري، فاخترعوا لانفسهم تخيلات عن جريان هذين الكوكبين في الفضاء . واذا كـان . ابو بكر ، يذكر في ترجمته للقرآن اختـلاف التفسيرات : « نوع من المحور على شكل قضيب من الحديد الذي تدور حوله طاحون ، او فضاء سماوي ، او فلك ، او علامـة البرج ، او السرعة ، او الموجـة » فانه يضيف هذه الفكرة للعلامة الطبري المشهور في القرن العاشر «ونسكتعما لاعلم لنا فيه بالصمت » [٧١١×١٥] . وهذا يفسر ما كانت عليه طاقة النـاس من العجز لتصور مفهوم الفلك ، هذا الخاص بالشمس وبالقمر . وانه لجلي ان هذه الكلمـة لو كانت تعبر عن مفهوم من مفاهيم علم الفلك المنتشرة في عصر محمـد لما وصل تفسير هذه الآيات الى هذا المستوى من الصعوبة .

وهذا يجعلنا نقدر بانه قد وجـد اذن في القرآن مفهوم جديد سيتضح مع تقلـب القرون .

١ ـ لأجل القمـر

ان المفهوم المنتشر جدا في ايامنا هو انه تابـع للارض ، يدور حولها دورة تطول تسعة وعشرين يوما . ومع ذلك فانه ينبغي اجراء تصحيح في الدائرية المطلقـة للفلك ، لان علم الفلك الحديث يقـدر بعـده عن مركـز الارض بـ : ٣٨٤٠٠٠ كلم . وهو ليس الا بعدا متوسطا . وقـد راينا

من قبل أن القرآن يبرز الاهمية لحساب الزمن من ملاحظة حركات القمر . [سورة ١٠ آية ٥ المذكورة في مطلع هذا الفصل] .

ولقد انتقدنا كثيرا هذا النظام في الحساب كنظام متخلف غير عملي ، ولا علمي بالنسبة لنظامنا المؤسس على دوران الارض حول الشمس الذي يعبر عنه في عصرنا بتقويم جوليان . ونقدنا هذا يتطلب ملحوظتين :

أ) إن القران كان يخاطب منذ أربعة عشر قرنا تقريبا سكان الجزيرة العربية الذين كانوا يتداولون فيما بينهم الحساب القمري للزمن . وقد كان يناسب أن يستخدم معهم اللغة الوحيدة التي كانوا يفهمونها والا يقلق عاداتهم في تتبع حركات الفضاء والزمن التي كانت بالنسبة اليهم كاملة الفعالية . ونعرف أن سكان الصحراء معتادون على ملاحظة السماء والاهتداء بالنجوم وضبط اوقاتهم تبعا لحركات القمر وهي الوسائط الايسر والاضبط بالنسبة اليهم .

ب) ان عامة الناس باستثناء الاختصاصيين في هذا الامر يجهلون المطابقة الدقيقة بين تقويم جوليان والتقويم القمري : ٢٣٥ شهرا قمريا تطابق تماما تسع عشرة سنة شمسية بـ ٣٦٥ يوما وربع اليوم . ان تحديد سنواتنا بـ ٣٦٥ يوما ليس كاملا ، اذ ينبغي تصحيح كل اربع سنوات [كبيسية] . ونفس الوقائع تتكرر مع التقويم القمري كل تسع عشرة سنة جوليانية [أو شمسية] . انه نظام (ميتون) الفلكي اليوناني الذي قام في القرن الخامس قبل الميلاد باكتشاف هذا التوافق الدقيق بين ازمان الشمس والقمر .

٢ ـ فيما يخص الشمس

يصعب علينا تصور وجود فلك تتحرك الشمس في مداره في الوقت الذي نحن فيه معتادون على اعتبار نظامنا الشمسي منظما حوله . لذلك فانه لكي نفهم الآية القرآنية ينبغي تصور مركز الشمس في مجرتنا ، وبالتالي تذكر المفاهيم العلمية الحديثة .

ان مجرتنا تحتوي عددا من النجوم موزعة في مدار مدى عمقه المركزي ابعد من استدارته ، تشغل الشمس منه موضعا بعيدا عن مركز المدار ، وتدور المجرة حول نفسها دورانها على المحور في فلك مستدير . وقد اجرى علم الفلك حساب عناصرها ، وقيم shapley سنة ١٩١٧ بعد مسافة الشمس التقريبي عن مركز المجرة بـ ١٠ [كيلوبارسك] تساوى بالكيلومترات تقريبا رقم ٣ ملحقا بسبعة عشر صفرا . ولتدور كل من المجرة والشمس حول نفسها دورة كاملة تقتضي مئتين وخمسين مليون سنة تقريبا.

مع العلم أن سرعة الشمس في تنقلها هذا هي مئتان وخمسون كيلومترا في الثانية تقريبا(١) .

هذه حركة فلك الشمس المخبر عنه في القرآن منذ أربعة عشر قرنا . ودليل وجوده ووجود أنظمته من كشف علم الفلك الحديث .

الاشارة الى جريان القمر والشمس في الفضاء بحركة خاصة

في ترجمات القرآن التي قام بها أدباء يجهلون علم الفلك ، لم يظهر شيء من هذا المفهوم . ذلك لانهم ترجموا الكلمة العربية التي تعني هذا الجريان بأحد معانيها الذي يفيد السباحة . وهذا موجود في ترجمات فرنسية كما هو موجود في ترجمات انكليزية وبخاصة في ترجمة السيد يوسف علي .

فالكلمة العربية المشيرة الى الانتقال بحركة خاصة هي سبح «يسبحون في نص الآية » . ومعاني الفعل كلها تفرض التنقل المرتكز الى حركة خاصة لجسم متنقل . فلو كان التنقل في الماء لقيل « سبح » واذا كان على الارض فهو التنقل بالاطراف الذاتية . ولكن اذا كان التنقل في الفضاء فاننا لا نستطيع أن نعرف اذا استعملنا هذه الكلمة كيف تؤدي المفهوم الذي تعنيه عندما نطلقها في معناها الاصلي . ولا نظن بهذه الطريقة انه قد يحصل نقيض المعنى للاسباب التالية :

— ان القمر يؤدي دورته حول نفسه في نفس الوقت الذي يكمل فيه دورته حول الارض في تسعة وعشرين يوما ونصف اليوم تقريبا بطريقة يظهر لنا فيها بنفس الوجه دائما .

— والشمس تدور حول نفسها في خمسة وعشرين يوما تقريبا . ويوجد بعض الخاصيات في الدوران بالنسبة لخط الاستواء والقطبين التي لا نرى الالحاح عليها هنا . ولكن الكوكب يظل بكليته مدفوعا بحركة دوران .

ويظهر اذن ان في القرآن تلوينا في التعبير يشير الى حركات خاصة بالشمس والقمر تثبتها معطيات العلم الحديث . ولا يمكننا ان نفهم بأن رجلا من القرن السابع الميلادي ، مهما كان واسع العلم في عصره ، وهو ما لم يكن عليه حال محمد ، بامكانه ان يتصورها .

على أن البعض يضع في مقابل وجهة النظر هذه بعض الامثلة لبعض مفكري العصور القديمة الذين اخبروا دونما شك بوقائع اثبت العلم صحتها. ومع ذلك لم يستطيعوا الاعتماد على الاستنتاج العلمي ، فيطرحون غالبا

---

(١) ان المسافة التي تقطعها الشمس بسرعتها المشار اليها في سنة واحدة هي : ٣٦٥ ، × ٢٤) × ٦٠ × ٦٠ × ٢٥٠ -- ٠٠٠ر٠٠٠ر٨٨٤ر٧ كلم فليتصور من يشاء بعد هذا محيط المدار في ضوء الرقم المذكور اعلاه المترجمون !!

بتفكير فلسفي وضع الفيثاغوريين الذين كانوا يدافعون عن نظرية دوران الارض حول نفسها في القرن السادس قبل الميلاد . وحركة الكواكب حول الشمس . هذه النظرية التي اثبتها العلم الحديث . غير انه ان كان مقبولا عقد مقارنة مع وضع هؤلاء الفيثاغوريين ، فان من اليسير طرح فرضية محمد كمفكر عبقري يتصور بنفسه ما اكتشفه العلم الحديث بعد قرون من ظهوره . ومع ذلك فاننا ننسى بسرعة أن نسرد بالمقابلة الصور الاخرى للنتاج الفكري لهذه العبقريات في الفهم الفلسفي ، وان نذكر الاخطاء الكبيرة التي كانت تبلورها كتاباتهم . ولهذا فانه لا يليق بنا أن ننسى بان الفيثاغوريين كانوا ايضا يدافعون عن نظرية ثبوت الشمس في الفضاء حيث كانوا يجعلون منها مركز الكون ، ولا يتصورون تنظيما سماويا الا حولها . وليس غريبا أن نجد عن الكون عند هؤلاء الفلاسفة الكبار القدماء ، خليطا من الافكار فيه الصحيح والخطأ .

والبريق الذي عكسته في مثل هذه المجالات الانسانية افكارهم المتقدمة التي احتوتها لا ينسينا مطلقا بالمقابل ؛ الافكار الخاطئة التي خلفوها . وهذه هي فقط وجهة النظر العلمية التي تفصلهم عن القرآن الذي عرض اعدادا من الموضوعات تتصل بالمعارف الحديثة دون أن يكون فيها أي تصادم مع ما اثبته العلم في عصرنا الحاضر .

تعاقب النهار والليل

اي كائن انساني يغفل عن ذكر حركة الشمس كلما تعاقب النهار والليل في عصر كان الناس فيه يعتقدون بأن الارض مركز الكون وأن الشمس متحركة بالنسبة اليها ؟ ومع ذلك فان شيئا من هذا لم يرد له ذكر في القرآن الذي يعالج هذا الموضوع فيما يلي :

سورة ٧ آية ٥٤ « يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا » .

سورة ٣٦ آية ٣٧ « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون »

سورة ٣١ آية ٢٩ « الم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » .

سورة ٣٩ آية ٥ « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » .

وضوح الآية الاولى لا يعوزه شرح . والآية الثانية ترسم لنا صورة فقط . اما الثالثة والرابعة فهما الايتان المهمتان والاساسيتان اللتان يمكنهما ان تقدما لنا فائدة عظيمة فيما يتعلق بامتداد التداخل ، وبخاصة تكور الليل على النهار وتكور النهار على الليل سورة ٣٩ آية ٥ .

ويبدو أن كلمة enrouler كما هي واردة في ترجمة : « ر. بلاشير » هي انسب تعبير فرنسي للكلمة العربية « كور » والمعنى الاول لهذا الفعل هو ادارة شريط على الرأس بشكل لولبي أو حلزوني . وفي كل المعاني الاخرى فان مفهوم الادارة هذا ملحوظ .

فماذا يجري اذن في الفضاء حقيقة ؟ أن الذي شـــاهده رواد الفضاء الاميركيون وآلات التصوير في المراكب الفضائية ، وبخاصة مـــن مسافات بعيدة عن الارض ، من القمر مثلا ان الشمس تضيء باستمرار [باستثناء حالات الكسوف] نصف الفضاء الفلكي المحيط بالارض والمواجه لها . بينما يظل النصف الاخر غارقـــا في الظلام . وفي نفس الوقت الذي تدور فيه الارض حول نفسها ، وتبقى الاضاءة ثابتة فان منطقة مضاءة على شكل نصف فضاء فلكي تؤدي دورتها حول الارض في مـــدة أربع وعشرين ســاعة بينما يكمل نصف الفضاء الفلكي الاخر الغارق في الظـــلام نفس الدورة في مثل تلك المـــدة من الوقت . هذه الدورة الدائبة للنهار والليل هي كاملة الوصف في القرآن . وقبول ادراكها يسير على الفهم الانساني في هذه الايام لاننا نملك المفهوم الذي يؤكد ثبوت الشمس النسبي ودوران الارض . وان امتداد هذا التكور المستمر مع تداخل قسم بآخر بشكل متعاقب معبر عنه في القرآن كما لو كان الناس قـــد تصوروا في ذلك الزمن كروية الارض . بينما لـــم يكن الامر كذلـــك .

على انه ينبغي أن ترتبط بهذه الاعتبارات عن تعاقب النهار والليل مـــا ذكرته بعض آيـــات القرآن عن تعدد المشارق والمغارب الذي ليس له من نفع الا الناحية الوصفية . اذ بامكان الملاحظة العـــامة أن تدركه . ومع ذلك فقـــد ذكرت هنا ليكون ما يحويه القرآن في هذا الموضوع واردا على اكمل صورة ممكنة .

في السورة ٧٠ آية ٤٠ العبارة التالية : « رب المشارق والمغارب » .

وفي السورة ٥٥ آية ١٧ ذكر « رب المشرقين ورب المغربين » .

وفي السورة ٤٣ آية ٣٨ ذكر « .. بعد المشرقين » وهي صورة للتعبير عن ضخامة مسافة البعد بين نقطتين .

ان من يلاحظ مشارق الشمس ومغاربها يعرف جيدا ان الشمس حسب الفصول تشرق من نقاط مختلفة في المشرق وتغرب أيضا في نقـــاط مختلفة مـــن المغرب .

وقد اتفق في كل من الآفاق على علامات تحدد نقاطـــا قصوى تثبت مشرقين ومغربين تتركز بين كل منهما على مدى طول السنة نقاط متوسطة . والظاهرة الموصوفة هنا هي عـــامة ومعروفة . ولكن الذي يستدعي الانتباه بشكل خاص هو مـــا يعود الى الموضوعات الاخرى المطروحة في هذا الفصل حيث يبدو فيها وصف الظواهر الفلكية الواردة في القرآن متفقا مع المفاهيم الحـــديثة .

د ــ تطور عـــالم السماء

أوضحنا مع استعراضنا الافكار الحديثة عن تكـــون الكون الذي تـــم منذ الطبقة الغازية البدائية حتى تكون المجرات والنجوم ، وللنظام الشمسي

حتى ظهور الكواكب ابتداء من الشمس في مرحلة معينة من تطورها . والمعطيات الحديثة تساعد على التفكير بأن هذا التطور يستمر ويتتابع في النظام الشمسي وبشكل اعم في الكون .

وكيف لا ندنو بعد هذا من بعض المعلومات التي نجدها في القرآن في معرض بسط مظاهر القدرة الالهية المطلقة عندما ندرك هذه المفاهيم ؟ ففي أكثر من مرة يذكر القرآن بأن الله هو الذي « سخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » ونرى هذه العبارة في السورة ١٣ الآية ٢ ، والسورة ٣١ آية ٢٩ والسورة ٣٥ آية ١٣ والسورة ٣٩ آية ٥ .

ولكن فكرة الاجل المسمى هذه، هي فوق ذلك مشتركة مع فكرة المستقر في السورة ٣٦ آية ٣٨ « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » .

وعبارة Lieu fixe هي ترجمة كلمة مستقر . ولا شك أن فكرة المكان المحدد مرتبطة بهذه الكلمة . فما هو مكان هذه المعلومات المؤكدة لدى المواجهة مع ما اثبتته معطيات العلم الحديث ؟

يثبت القرآن للشمس وصفا تطوريا ، ومكان الاستقرار . ويحدد ايضا للقمر وصفا . ولا بد لكي ندرك ما تعنيه هذه المعلومات من استعراض المعارف الحديثة عن تطور النجوم على العموم ، والشمس على الخصوص ، وعلى سبيل الاستنتاج التشكلات السماوية التي تتبع حركتها في الفضاء والتي يمثل القمر جزءا منها .

فالشمس نجم ، قدر العلماء الاستروفيزيكيون عمره بما يقرب أربعة مليارات ونصف من السنين . وهي كجميع النجوم ذات وضع متطور . انها الآن في المرحلة الاولى من تحول ذرات الهيدروجين الى ذرات هيليوم في وضع نظري سيدوم خمسة مليارات ونصف من السنين طبقا للحسابات الموضوعة التي تعطي في هذا الوضع الاول لنجم من طراز الشمس ، عمرا اجماليا قدره عشرة مليارات من السنين . وسيلحق بهذا الوضع كما لوحظ بالنسبة لنجوم اخرى من نفس الطراز دورة ثانية تمتاز بانتهاء التحول من الهيدروجين الى هيليوم وما يتبع ذلك من تمدد الطبقات الخارجية وبرودة الشمس ، وفي المرحلة النهائية تناقص قوة الاضاءة تناقصا كبيرا ، كما نرتفع نسبة الكثافة . وهذا ما نلاحظه في طراز النجوم التي اطلق عليها اسم الاقزام البيض .

على أن ما ينبغي الاحتفاظ به من كل هذا ، ليس هو التواريخ التي تبدو اهميتها فقط في اعطاء التقويم التقريبي لعامل الزمن ، بل هو على الأخص مفهوم التطور . ان المعطيات المعاصرة تسمح بالتنبؤ بأنه بعد بعض المليارات من السنين لن تبقى شروط النظام الشمسي كما هي اليوم ،

وكما كان بالنسبة لبعض النجوم الاخرى التي سجلنا لها تحولات حتى المرحلة النهائية يمكننا التنبـؤ عن نهاية الشمس .

ان الآية الثانية الواردة هنا [سورة ٣٦ آية ٣٨] تذكر الشمس على انها تجري لمستقر لها . وقد حدده علم الفلك الحديث تماما، اعطاه اسم Apex الشمس . فالنظـام يتحرك في الواقـع في الفضـاء نحـو نقطة محددة في مجموعة نجوم [هيرقيل] وبجوار نجم Véga التي تم الاتفاق عليها . وذلك بسرعة قد حققت من قبل ، وهي بمعدل تسعة عشر كيلومترا في الثانية . كل هذه المعطيات الفلكية تستحق أن تذكر بمنـاسبة هاتين الآيتين من القرآن اللتين يمكننا-ان نقول عنهما انهما متفقتان تماما مع المعطيـات العلمية الحديثة .

اتســاع الكــون

ان اتســاع الكون هو الحدث الاعظم المكتشف من قبل العلم الحديث. وانه لمفهوم أكيد الثبوت والمناقشة الوحيدة منصبة فقط على الشكـل الذي هو عليـه .

ولاتساع الكون ، نتيجـة لنظرية النسبية العامة مستند طبيعي في اختبارات صورة المجرات . والانتقال النظامي نحو احمرار صورتها يتضح بتباعـد المجرات بعضها عن بعض . وهكذا فان فسحة الكون في امتداد مستمر . ويصبح هذا الاتسـاع أكثر اهمية كلما ابتعدنا عن انفسنا . وان السرعات التي تنتقل بها الاجرام السماوية في هذا الاتساع المستمر يمكن أن تصل الى رقم سرعة الضوء بل والى نسب أعلى منها .

فهل يمكن أن يكون قول الله في الآية التالية : « والسماء بنيناها بايد وانـا لموسعون » سورة ٥١ آية ٤٧ متعرضا لهذه المفاهيم الحديثة ؟

اليست السماء التي يعنيها القرآن هي على التحقيق العالم الخارج عن الارض ؟

و « موسـعـون » اسم فاعل بصيغة الجمـع لفعل أوسع . ومعناه بالنسبة للاشياء افسح ، أمد ، جعله رحابة وفسحة .

بيد أن بعض المترجمين اعطوا هذه الكلمة بسبب عدم جدارتهم بادراك معناها تفاسير تبدو لي مخطئة مثل « نحن مليئون بالسعة » [ر. بلاشير] والبعض الاخر اكتشف معناه . ولكنهم لم يجرؤوا على اظهاره . وحميدالله في ترجمته للقرآن يتكلم عن اتســاع السماء والفضاء ولكـن مع علامة الاستفهام . وقد أعطى البعض ممن استعانوا في تفاسيرهم بالاراء العلمية الثابتة هذا المعنى ، كمـا هو داب مفسري « تفسير المنتخب » المطبوع من قبل المجلس الاعلى للشـؤون الاسلامية في القـاهرة . فقد ذكروا امتداد الكون واتساعه دون أي غموض .

هـ ــ غزو الفضاء

في القرآن ثلاث آيات تستحق ان تجتذب كل الانتباه من وجهة النظر هذه . تذكر احداها دونما لبس ما يمكن ان يفعله الناس في هذا المضمار وسيفعلونه. اما الاخريان فيذكر الله فيهما لكفار مكة الدهشة التي ستصيبهم اذا عرجوا في السماء مشيرا بهذا الى فرضية يستحيل عليهم تحقيقها .

الآية الاولى ٣٢ من السورة ٥٥ : « يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان » .

ان الترجمة المقدمة هنا تتطلب بعض التوضيحات :

أ ــ أن كلمة Si الفرنسية تعبر عن معنى الشرط الذي يتعلق بمفهوم الامكانية وبافتراض قابل للتحقيق أو غير قابل للتحقيق . واللغة العربية جديرة بان تعطي الشرط معنى اكثر رحابة ووضوحا . اذ هناك كلمة للتعبير عن الشك هي : « اذا » وأخرى للتعبير عن الإفتراض القابل للتحقيق وهي « أن » وثالثة لادخال الافتراض غير القابل للتجقيق وهي « لو » . والآية المتناولة هنا ، تدل على ان المراد منها افتراض قابل للتحقيق معبر عنه بحرف الشرط « ان » والقرآن ذكر هنا اذن الامكانية المادية للتحقيق المحسوس . وبالطبع فان الفقه اللغوي بصراحة التفسير الصوفي الخالص الذي أراد البعض أن يعطوه وبشكل خاطىء لهذه الآية .

ب ــ يخاطب الله الجن والانس ولا يخاطب صورا رمزية اساسا .

ج ــ ان عبارة Penetrer a l'opposé هي ترجمة فعل « نفذ » ملحقا بحرف الجر « من » الذي يعني حسب معجم [كازيميرسكي] الدخول في جسم والتجاوز فيه من جهة الى اخري ، ثم الخروج من الطرف الآخر [يقال عن السهم الذي يخرج من الطرف المقابل مثلا] فهو يذكر النفوذ العميق والخروج الى طرف آخر للجهات المعينة .

و ــ يبدو أن السلطان الذي يملكه الناس ليحققوا هذه الخطوة مستمد من القادر على كل شيء (١) .

ان هذه الآية تشير الى الامكانية التي سيحقق بها الناس ما نسميه في عصرنا ــ على سبيل التجاوز ــ غزو الفضاء . وينبغي التنبيه الى ان النص القرآني لا يتعرض فقط الى النفوذ من اقطار السموات فحسب بل من اقطار الارض ايضا . وهذا يعني سبر الاعماق .

اما الآيتان الاخريان في السورة ١٥ آية ١٤ ــ ١٥ فيتحدث الله فيهما عن كفار مكة كما يدل عليه سياق النص في السورة .

« ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »

---

(١) هذه الاية متبعة بدعوة للاعتراف بآلاء الله وهو غرض كل السورة .

انه تعبير عن الاندهاش امام مشهد غير منتظر مخالف لما كان يمكن للانسان أن يتصوره . لقد بدئت الجملة الشرطية هنا بحرف « لو » الذي يفترض معه استحالة تحقيق المطلوب من المخاطبين .

ولذلك فاننا نجد أنفسنا اذا بمناسبة غزو الفضاء ، أمام فقرتين من القرآن ، تشير احداهما لما سيتحقق يوما ما بفضل القوى التي سيمنحها الله للذكاء والبراعة الانسانيين . وتذكر الاخرى حدثا لن يراه كفار مكة ، لان مفهوم الشرط هنا هو لما لا يتحقق قريبا ، وان كان سيراه آخرون كما تسوغ الآية الاولى افتراضه . وتصف ردود الفعل الإنسانية أمام المشهد المفاجىء الذي سيواجه المسافرين في الفضاء ، أبصار مضطربة مسكرة وشعور بأنهم مسحورون .

لقد عاش هذه المغامرة المدهشة المعجزة رواد الفضاء منذ سنة ١٩٦١ تاريخ اول طيران بشري حول الآرض . والواقع اننا نعرف ان السماء تبدو للمراقب الانسان السابح في الفضاء خارج جو الارض سوداء ، لا بصورتها الزرقاء الظاهرة لسكان الارض التي هي نتيجة عمليات امتصاص لضوء الشمس من طبقات الجو . اما الارض فتبدو ملفوفة بهالة من اللون المشرب بالزرقة ناتج أيضا عن نفس عمليات الامتصاص للضوء من الفضاء الارضي، حيث يبدو القمر الذي ليس له فضاء خاص به بالوانه الخاصة في العمق الاسود للسماء . انه مشهد جديد جدا اذن بالنسبة للانسان ، هذا الذي يتجلى له في الفضاء ، مشهد صارت صوره القديمة بالنسبة لأناس هذا العصر صورا كلاسيكية .

وكيف لا نجد انفسنا هنا ايضا عند مقابلة نص القرآن مع المنجزات الحديثة متأثرين بهذه التحقيقات التي لا يمكننا ان نفترض ظهورها من فكر انسان عاش منذ اربعة عشر قرنا .

٥ ــ الارض

ان الآيات القرآنية المتعلقة بالارض مثل غيرها التي تعالج الموضوعات التي تناولناها سابقا ، منتشرة في الكتاب . وتبويبها ليس بالامر اليسير . وما سنراه فيما سيلي عمل شخصي محض .

على انه لكي يكون العرض واضحا ، يبدو لنا اننا نقدر ان نستخلص عددا من الآيات ذات اتجاه عام مختص بتوجيه الخطاب الى الناس ، للتفكير في نعمة الله ، مع امثلة تقرب لهم المعنى ، وان كانت في الغالب تعالج مجموعة من المواضيع . بيد انه يمكن عزل مجموعات أخرى منها تميل الى موضوعات اكثر خصوصية هي :

ــ دور المياه والبحار .
ــ النتوء الارضي .
ــ الجو الارضي .

أ ــ الآيات ذات الاتجاه العام

في نفس الوقت الذي تقدم فيه هذه الآيات ادلة تسوق الناس للتأمل في آلاء الله تجاه مخلوقاته ، تتابع هنا وهناك طرح تأكيدات يهم مواجهتها مع منجزات العلم الحديث . ولعلها ايضا من وجهة النظر هذه اكثر نفعا ، لانها لا تعبر عن كل انواع المعتقدات الخاصة ببعض الظواهر الطبيعية التي كانت مقبولة بين ابناء عصر الوحي القرآني واظهرت المعرفة العلمية فيما بعد خطأها .

ان هذه الآيات تعبر من جهة ، عن افكار بسيطة سهلة الفهم من أولئك الذين كان يخاطبهم القرآن في البداية لاسباب جغرافية ، سكان مكة والمدينة وبدو شبه الجزيرة العربية . كما تعبر من جهة ثانية عن افكار من نوع يمكن لأي جمهور في اي بلد او زمن اذا كان اكثر ثقافة ان يستخلص في حال اجتهاده في التفكير بعض التعاليم الامر الذي يدل على عالمية القرآن .

ولما لم يكن يبدو اي تبويب لهذه الآيات في القرآن فقد عرضناها حسب تسلسل السور الرقمي :

سورة ٢ آية ٢٢ : « الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون » .

سورة ٢ آية ١٦٤ « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » .

سورة ١٣ آية ٣ :«هو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار.ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

سورة ١٥ آية ١٩ ــ ٢١ : قول الله : « والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » .

سورة ٢٠ آية ٥٣ « الذي جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى كلوا وارعوا انعامكم ان في ذلك لآيات لأولى النهى » .

سورة ٢٧ آية ٦١ « امن جعل الارض قرارا وجعل خلالها انهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا اله مع الله بل اكثرهم لا يعلمون » .

في هذه الآيات اشارة عامة الى استقرار القشرة الارضية . ونحن نعلم بأن هذه القشرة السطحية للارض قبل برودتها في اعمارها الأولى كانت غير مستقرة . واستقرارها ليس أمرا مطلقا ، لانه لا يزال فيها مناطق تقع فيها

زلازل متقطعة . اما الحاجز بين البحرين فهو صورة لبيان امتناع اختلاط مياه النهر والبحر في مستوى محدود سنراه فيما بعد .

سورة ٦٧ آية ١٥ « هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » .

سورة ٧٩ آية ٣٠ — ٣١ « والارض بعد ذلك دحاها اخرج منهـــا ماءها ومرعاها والجبال ارساها متاعا لكم ولانعامكم » .

يركز القرآن في كثير من الآيات التي هي من هذا الطراز على أهمية الماء ، وعلى خصوبتها التي هي ثمرة وجودها العملي على تربة الارض . والماء على سبيل اليقين هو في الاراضي الصحراوية ، العنصر الاول في شرط انبعاث الانسان وحياته . ولكن ذكر القرآن له يتجاوز هذه الخاصيـــة الجغرافية الى ابراز الارض التي هي الكوكب الغني بالماء ، والوحيد فـــي مجموعة النظام الشمسي حسب معطيات المعارف الحديثة الاحسن ثبوتا ، ولولا الماء لكانت الارض نجما ميتا كالقمر . ولذلك فان القرآن يعطيه المكانة الاولى في عرض ظواهر الارض الطبيعية ويصف دوره بدقة مشهورة .

دور المياه والبحار

تبدو الآيات القرآنية المتعلقة بدور الميـــاه في حيـــاة الانسان ، لدى قراءة بعضها تلو البعض الاخر ، في هذه الايـــام معبرة عن افكار واضحة جدا . وذلك ببساطة لاننا اصبحنا في عصرنا ، نعرف مع زيـــادة او نقص في الدقـــة والتحقيق ماهية دور المياه في الطبيعة .

ولكننا اذا اخذنـــا بالاعتبار ما كانت عليه مختلف المفاهيم القديمة في هذا الموضـــوع ، فاننا نستبين بان ليس في المعطيـــــات القرآنية ما يدعم مفاهيم وثنية شائعة ، كان نصيـــب النظرة الفلسفية فيها اكبر بكثـــير من نصيب التجربة والملاحظــــة . ولئن كانوا قد نجحـــوا في الماضي تجريبيا بالحصول على معارف عملية نافعة في مستوى محدود لتحسين ري الاراضي فقد كان لهم بالمقابل في دور المياه على العموم افكار قليلة القبول في هذه الايـــام .

ولاجل هذا ، فقد كان يسيرا ، التصور بان المياه الجوفيـــة يمكن أن تكون ناتجة عن تسرب اندفاعاتها في بطن الارض . ومفهوم Vitruve الذي دافع عن هذه الفكرة في روما في القرن الاول قبل المسيح يروى كاحدى شوائب العهود القديمة . وهكذا فقد كان للناس اثناء قرون طويلة ظهر فيها عصر الوحي القرآني ، افكار خاطئـــة عن نظام المياه . وقـــد كتب عالمان اختصاصيان في هذه الابحاث في مادة « الميـــاه الجوفية » من الموســـوعة العالمية ، النبذة التاريخية الاتية :

لقـــد كان لـــ : Thales de Milet في القرن السابع قبل المسيح نظرية دفع مياه المحيط وسقوطهـــا بفعل الريـــاح على الاراضي الى داخل

القارات ، ثم تسربها في التربة . وقد كان افلاطون يؤيد هذه الافكار ويزيد بان هذه المياه تعود الى المحيط من خلال هوة كبيرة هي « التتار » Tatar ولقد ظل لهذه النظرية الكثير من المؤيدين بما فيهم ديكارت حتى القرن الثامن عشر .

وكان ارسطو يفترض أن بخار ماء الارض يتكثف في فجوت باردة من الجبال ، ويكون البحيرات الجوفية التي تغذي الينابيع . وقد تابعه في ذلك « سينيك » في القرن الاول ، وكان له العديد من المؤيدين حتى سنة ١٨٧٧ ، منهم J. Volger . .ويعود تاريخ اول فكرة واضحة عن دور المياه الى ١٥٨٠ لـ « برنار باليسي » الذي اثبت بان المياه الجوفية تتأتى من تسربات مياه المطر في التربة . ثم ايد هذه النظرية « ا. ماريوت » و « ب برّو » في القرن السابع عشر .

وكانت شائعة في عصر محمد مدركات غير صحيحة لا نجد لها اي صدى في نصوص القرآن التي ستأتي :

سورة ٥٠ آية ٩ ــ ١١ « ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيدرزقا للعباد واحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » .

سورة ٢٣ آية ١٨ ــ ١٩ « وانزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه في الارض وانا على ذهاب به لقادرون فانشأنا لكم به جنات من نخيل واعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون » .

سورة ١٥ آية ٢٢ « وارسلنا الرياح لواقح فانزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه وما انتم له بخازنين » .

ولتفسير هذه الآية الاخيرة احتمالان . الرياح اللواقح يمكن أن تكون للغرس عن طريق نقل اللقاح اليه . كما يمكن أن يكون تصويرا يذكر بالمجانسة او المشاكلة دور الريح الذي يصنع من السحاب العقيم سحابا مثقلا بالماء . وهذا الدور مذكور غالبا كما هو في الآيات التالية :

سورة ٣٥ آية ٩ « والله الذي ارسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فاحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور » .

ونثبت هنا بأن الاسلوب في القسم الاول من الآية اسلوب رواية . بيد انه فجأة ودون تسلسل انتهى ببيان من الله . مثل هذه التغيرات المفاجئة في اسلوب الخطاب كثيرة في القرآن .

سورة ٣٠ آية ٤٨ « الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون » .

سورة ٧ آية ٥٧ « وهو الذي يرسل الريــاح بشرا بين يدي رحمته حتى اذا اقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فانزلنا به الماء فاخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » .

سورة ٢٥ آية ٤٨ — ٤٩ « وهو الذي ارسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وانزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنـــا انعاما واناسي كثيرا » .

سورة ٤٥ آية ٥ « وما انزل الله من السماء من رزق فاحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون » .

الرزق المراد هنا في هذه الآيـــة الاخيرة هو الماء المنزل من السماء بدليل القرينة والسياق مسلط على تبدل الرياح المكيفة لنظام الامطار .

سورة ٣ آية ١٧ « انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيـــا » .

سورة ٦٧ آية ٣٠ يأمر الرسول « قل ارايتم ان اصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معـــين » .

سورة ٣٩ آية ٢١ « الم تر ان الله انـــزل من السماء ماء فسلكـــه ينابيع في الارض ثم يخرج به زرعا مختلفا الوانه » .

سورة ٣٦ آية ٣٤ « وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيـــون » .

ان أهمية الينابيع وارفادها بماء المطر السالك اليها ، مثبتة في الآيات الثلاث الاخيرات . وهذا الواقع يستحق أن نقف عنده لنذكر الافكـــار التي كانت منتشرة في القرون الوسطى ، كافكار ار سطو التي يذهب فيها الى أن الينابيع تتكون من امدادات البحيرات الجوفية . وان «م.ر. ريمونييراس» الاستاذ في المدرسة الوطنية للهندسة الريفية للمياه والغابات ، يصف في مادة [علم المياه] من الموســـوعة العالمية اهم المراحـــل لتكون المياه ، ويذكر الاعمال الرائعة القديمة للري ، وبخاصة في منطقة الشرق الاوسط. و سجل بانه كانــت تتحكم فيها التجارب الفرديـــة . اذ ان الافكار كانت ناشئة عن مفاهيم خاطئة . وتابع يقول : وينبغي انتظار النهضة [ما بين ١٤٠٠ — ١٦٠٠ تقريبا] لتترك الافكار الفلسفية المحضة المجال لتجارب مرتكزة على الملاحظـــة الموضوعية للظواهر المائيـــة . وقد خرج ليونارد دوفنشي [١٤٥٢ — ١٥١٩] على ما اثبته ار سطو . كما أن لبرنارد باليسي تفسيرا دقيقا لدور المياه وبخاصة امدادات الينابيع بمياه الامطار ، في حديثه الرائع عن طبيعة المياه والينابيع طبيعية او صناعية .

اليس هذا بالضبط ما وجدناه في الآية ٢١ من السورة ٣٩ التي تذكر سلوك مياه الامطار نحو الينابيع في الارض . والمطر والبرد همـــا موضوع الآيـــة ٤٣ من الســـورة ٢٤ .

« الم تــر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعلــه ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبــال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار » . على أن النص التالي من [السورة ٥٦ آيات ٦٨ ــ ٧٠] يتطلب شرحا .

« أفرايتم الماء الذي تشربون انتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون » .

انه لاسلوب في التعبير عن قدرة الله عندمــا يلفت الله النظر الى قدرته بتحويل الماء السائغ الى اجاج . ولكنه عندما يذكر بهذه القدرة ، عن طريق تحدي الانسان بان ينزل الماء من السحاب ، فهذا اسلوب اخر .

واذا كان يشتم من الاسلوب الاول بعض الوعيد ، اليس في الثاني كل الوعيد للعصر الحديث ، حيث تمكنت تقنيته العلميــة من انتزاع المطر صناعيا ؟ فهل تتعارض هذه القدرات البشرية في انزال المياه مع تأكيــدات القرآن ؟

لا نظنــه كذلك ، لانه يبدو لنا انه ينبغي ان يؤخــذ بالاعتبار حدود امكانيات الانسان في هذا المضمار . ولقد كتب الاستاذ « م.أ. فاسي » وهو مهندس عام في مصلحة الارصاد الوطنيــة في الموسوعة العالمية في مادة « انزال المياه » « لا يمكن مطلقا انزال المياه من السحاب الذي ليست لــه خصائص السحــاب المطر ، او السحاب الذي لم يتوصل بعــد الى مستوى من النضوج المناسب » وبالتالي فان الانسان لا يستطيع بمساعدة وسائل فنية محضرة الا تعجيل فترة النزول الــذي تهيأت فيه كل الشروط الطبيعيــة . واذا كان الامر خلاف هذا ، فان الجفــاف لا يوجد عمليا ، وهذا غير وارد ، وسيبقى حلما ان يظن الانســان بانه يستطيع أن يكون سيد المطر وعدمه ، وذلــك لانه لا يستطيع أن يخرق حسب هواه النظام المثبت الذي يؤكد جريان المياه في الطبيعة . هذا النظام الذي يمكن تلخيصه كما يلي حسب تعليمات « العلم المائي » الحديث :

ان اشعاع الشمس الحراري يحدث تبخر المحيطات ، وكل مساحات الاراضي المغرقة او المشوبة بالمياه . وبانفصــال البخار يرتفع في الجو ، وبتكثفه يشكل السحاب الذي تسوقه الرياح بدورها الى مسافات مختلفة . وقد يختفي دون أن ينزل مطرا . كمــا قد يجد له مجموعات اخرى فيتراكم معها في تكثف ضخم ، او يتجزأ فينزل مطرا في بعض مراحــل تطوره .

فاذا نزل المطر على البحر [الذي يكون ٧٠٪ من مساحات الكرة الارضية] فقد انتهى سريعا دوره . اما ان اصاب الاراضي فقــد يمتص المزروعات بعضه فيسهم في نمائها ، ثم هي بدورها وعن طريق تنفسهــا تعيد جزءا منه الى الجــو . واما البعض الاخر فيتسرب كثير منه او قليــل في الارض

ويتجه الى المحيطات في مجار مائيـــة ، او يعود عن طريق ترشحـــات في الارض الى شبكة المياه السطحية من الينابيع وغيرها .

فلنقارن هذه المعطيات الحديثة في علم المياه ، مع تلك التي تقدمها لنا الآيات العديدة من القرآن المذكورة في هذه الفقرة وسنشعر حتما بوجـــود اتفاق ملحوظ بين الاثنـــين .

البحـــار

لئن كانت آيات القرآن قد قدمت مادة للمقارنة مع المعـــارف العلمية الحديثة فيما يتعلق بدور المياه في الطبيعة على العموم ، فان الامر يختلف فيما يختص بالبحـــار . فليس من آية في القرآن متعلقة بها تتعارض مع المعطيات العلمية البحتة . على أنه من المفيد دومـــا ان نقول بانه ما من آية في القرآن عن البحـــار تحتوي افادات عن عقائد وثنيـــة او خرافات العصر . وان فيما يلي بعض الآيات المتعلقة بالبحار والملاحة تعرض دلائل من القدرة الالهية كموضوعات للتأمل منبثق عن الملاحظة :

سورة ١٤ آية ٣٢ « وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره » .

سورة ١٦ آية ١٤ « وهو الذي سخر البحر لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا حلية تلبسونها وترى الفلـــك مواخر فيه ولتبتغـــوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

سورة ٣١ آية ٣١ « الم تر ان الفلك تجـــري في البحر بنعمـــة الله ليريكم من آياته ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

سورة ٥٥ آية ٢٤ « وله الجوار المنشآت في البحر كالاعلام » .

سورة ٣٦ آية ٤١ ـــ ٤٤ « وآيـــة لهم انا حملنا ذريتهم في الفلـــك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون وان نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا ينقذون الا رحمة منا ومتاعا الى حين » .

يراد هنا بوضـــوح الفلك الذي يحمل الناس على البحر كمـــا حملت سفينة نوح قديما من كانوا عليها حتى اوصلتهم الى البر .

ومن فعل الملاحظة المتعلقة بالبحر الذي يمكن انتزاعه من جميع آيات القرآن المخصصة له والذي له صورة خاصة ثلاث آيات تشير الى بعض خصائص الانهر الكبيرة عندما تصب في البحار .

وظاهرة البرزخ المعروفة بين مياه البحار المالحة ومياه الانهار العذبة التي غالبا ما نصادفها يسجلها القرآن بمناسبة الحديث كما نظن عن ملتقى مصب نهري الفرات ودجلة اللذين يشكلان عند التقائهما شط العرب الشبيه بالبحر لانه في طول مئة وخمسين كيلومترا . وتأثير المد والجزر في عمق الخليج يحدث الظاهرة السعيدة في جزر الماء الحلو في داخـــل الاراضي مؤديا لعملية ري عظيمة الفائدة . ولفهم النص فهما حسنا ينبغي أن يعرف بان كلمـــة «mer» في اللغة الفرنسية تؤدي المعنى العـــام لكلمة بحر في

اللغة العربية . وهي تعني كمية كبيرة من المياه تصـــدق على المحيط كما تصدق على الانهر الكبيرة كالنيل والفرات ودجلة وغيرها .

والآيات الثلاث التي تذكر هذه الظاهرة هي التالية :

سورة ٢٥ آية ٥٣ « وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » .

سورة ٣٥ آية ١٢ « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائـــغ شرابه وهذا ملح اجاج ومن كل تأكلون لحما طريـــا وتستخرجون حليـــة تلبسونها » .

سورة ٥٥ آية ١٩ ــ ٢١ « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأي آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » .

وزيادة على ذكر الواقع الاساسي فان هذه الآيات تذكر ما يستخرج من المياه الحلوة والمالحة كالاسماك وحلي الثياب كاللؤلؤ والمرجان. واما فيما يتعلق بظاهرة البرزخ الذي يحجب مياه النهر عند المصب ، فينبغي ان يعرف بان هذا ليس خاصا بنهر الفرات ودجلة اللذين لم يذكرا في النص . وان كان يظن بأنهما المقصودان منه ، بل هناك عديد من الانهـــار القوية ، كالمسيسبي او يانغ سي لها نفس الخاصية . والتقاء الماءين لا يحصل الا بعد مسافة كبيرة في عرض البحر .

النتوء الارضي

ان تركيب الارض معقد ، ويمكننا اليوم بصعوبة تصورها كما لو كانت مكونة من طبقة عميقة حيث تسيطر فيها حرارات مرتفعة جدا ، وبخاصة مع قسم مركزي تذوب فيه الصخور ، وطبقة سطحية تمثل القشرة الارضية التي هي يابسة وباردة ورقيقة جدا بسماكة بعض الكيلومترات احيانا او بضع عشرات الكيلومترات في اعظم سماكة لها . في الوقت الذي يزيد فيه طول نصف قطر الارض قليلا عن ستة الاف كيلومتر بمعنـــى ان سمـــاكة القشرة الارضية لا تعادل واحدا في المئة من نصف قطر الكرة . وعلى هذه القشرة اذا امكن القول ، جـــرت الظواهـــر الجيولوجيـــة التي احدثت الانخفاضات التي هي اصل سلاسل الجبال . ويسمى تشكلها في علـــم الجيولوجيا « دراسة عوامل انفصال القشرة الارضية » والامتداد الزمني له اعتبار هام ، لان ظهور النتوء الذي يكون وجود الجبل يقابله في العمق انخفاض مناسب من القشرة الارضية يثبت رسوها في الطبقة العليا .

وتاريخ تكون البحار والارض على سطح الكرة ثمرة بحث جديد لـــم يكتمل بعد ، حتى فيما يتعلق بالفترات الزمنية الاقل قدما والاحسن معرفة. ويرجح بأن ظهور المحيطات التي تؤلف المحيط المائي للكرة : يعود الى نصف

مليار من السنين تقريبا . فقد كانت القارات تكون مجموعــة واحدة في آخر العصر الاول ، ثم تفرقت على ان بعض القارات او اجزاء منها حصلت بفعل عملية تشكل الجبال في منطقة المحيط [كحــالة اليابسة في شمــال الاطلنطي وجزء من اوروبا] .

والذي يستحوذ على تاريخ تشكل الاراضي البارزة بكامله ، حسب الاوكار الحديثة ، هو ظهور سلاسل الجبال . ويجعل البعض تطور الاراضي كلها ابتداء من العصر الاول حتــى العصر الرابــع في تنظيــم المراحل التطويرية المقسمة الى « ادوار » من نفس الاسم وكل تشكــلات النتــوء الجبلي الذي تلقى انعكاساته على التوازن بين البحار والقارات . ولقــد انتقصت بعض اجزاء من الاراضي الظاهرة لتكشف عن غيرها . ثم حــور منذ عدد من الملايين من السنين تقسيم سطوح القارات والبحار . والسطوح اليابسة لا تشغل من كوكب الارض الا ثلاثة إعشار مساحتها .

وهكذا يمكن ان تتلخص التطورات التي تمت في ملايين السنين الغابرة بكثير من النقص وعدم الكمال .

هذا وان القرآن لا يذكر فيما يتعلق بالنتوء الارضي الا تكون الجبال . وما لدينا في هذا الموضوع هو في الواقع قليل . وبعض الآيات التي تعبر عن محبة وعون الله للانسان مع ذكر تكون الارض كما في السورة ٧١ آيــة ١٩ ــ ٢٠ .

« والله جعل لكم الارض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا » والسورة ٥١ آ ية ٤٨ « والارض فرشناها فنعم الماهدون » .

والبساط الذي مد ونشر هو القشرة الارضية اليابسة التي يمكننا ان نعيش عليها . والطبقات العميقة من الكرة الساخنة جدا والسائلة ، غير صالحة لاي نوع من انواع الحياة .

ان آيات القرآن المتصلة بالجبال : والاشارات الى رسوها وثباتها تبعا الظواهر الانخفاضية مهمة جدا .

وفي السورة ٨٨ آية ١٩ ــ ٢٠ يلفت سياق الآيات نظر الكفار نحو بعض الظواهر الطبيعية منها :

« ... والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت » .

ان مفهوم الاصل في داخل الارض هنا يستخرج بوضــوح من النص وتدل عليه الآيتان التاليتان :

« الم نجعل الارض مهادا والجبال اوتادا » سورة ٧٨ ــ آية ٦ ــ ٧ .

والاوتاد التي ذكرت هنا تستعمل في تثبيت الخيمة في الارض [وهــي جمع وتد] وعلماء الجيولوجيا الحديثون يصفون انخفاضات الارض التــي ركزت النتوءات ، والتي لها ابعاد مختلفة من كيلومتــر حتــى عشرات

الكيلومترات ، ومن ظاهرة الانخفاض هـــذه نستخلص رسوخ القشرة الارضية .

وهكذا لا ندهش عندما نقرأ في القرآن عن الجبال بعض التوضيحـــات التالية :

سورة ٧٩ آية ٣٢ : « والجبال أرساها »

سورة ٣١ آية ١٠ « والقى في الارض رواسي ان تميد بكم »

ونفس العبارة تتكرر في السورة ١٦ آية ١٥ . ونفس الفكرة معبـــر عنها باسلوب مختلف في السورة ٢١ آية ١٣ « وجعلنا في الارض رواســـي ان تميد بكم » .

هذه الآيات تفيد بأن الطريقة التي أرسيت بها الجبال هي مناسبـــة لرسوخها وثبوتها وهو ما يتفق تماما مع المعطيات الجيولوجية .

د ــ الفضاء الارضي

في القرآن بالاضافة لبعض الصور المتعلقة بشكل دقيق جدا في السماء التي عولجت في الفصل السابق ، بعض فقرات تختص بظواهر تقع فـــي الفضاء ، تؤكد باننا لا نجد فيها ما يضاد المعرفة التي وصلنا اليهـــا عن الظواهر المذكورة .

الارتفاع في الجو

ومن المعروف عادة بان الانسان يشعر بضيق لدى ارتفاعه في الجو ، وان شعوره هذا يزداد بنسبة الارتفاع فيه . هذه الظاهرة اوضحها القرآن في السورة ٦ آية ١٢٥ « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كانما يصعد في السماء »

لقد زعم البعض بان هذه الظاهرة لم تكن معروفة من العرب في عصر محمد . ولكن وجود القمم المرتفعة في شبه الجزيرة العربية الى [٣٫٥٠٠] ثلاثة الاف وخمسمئة مترا (١) يجعل جهل صعوبة التنفس لدى الارتفاع في الجو بعيد الاحتمال كما شاء بعض المفسرين ان يرى فيها اخبارا مسبقا عن غزو الفضاء . لكن يبدو ايضا ان من الواجب استبعاد هذا الراي في هـــذا المجال بالنسبة لهذا النص على الاقل .

كهربية الجو

وان كهربية الجو ونتائجها كالصاعقة والبرد مذكورة فيما يلي :

سورة ١٣ آية ١٢ ــ ١٣ « وهو الذي يريكم البرق خوفا وطمعـــا وينشىء السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرســـل

---

(١) ان مدينة صنعاء عاصمة اليمن التي كانت مسكونة في عصر محمد هي على ارتفاع الفين واربعمئة متـــرا .

الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال » .

سورة ٢٤ آية ٤٣

« الم تر ان الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار » .

ففي هاتين الآتين وضوح التناسب بارز بين تكون السحاب المثقل بالمطر أو بالبرد ، وفعل الصاعقة ، موضوع الاول الطمع في الخير الذي يحمله ، وموضوع الثاني الخوف ، لأن سقوط ذلك مرهون بتحديد مشيئة الله القادر على كل شيء . والربط بين الظاهرتين مقبول من المعرفة التي توصلنا اليها في هذه الايام في كهربة الجو .

الظل

ان التفسير البسيط في عصرنا للظل وتنقله هو موضوع تأملات كالتالية:

سورة ١٦ آية ٨١ : « والله جعل لكم مما خلق ظلالا » .

سورة ١٦ آية ٤٨ : « أو لم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيئوا ظلاله عن اليمين وعن الشمائل سجدا لله وهم داخرون » .

سورة ١٥ آية ٤٦ « الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا » .

وبعيدا عن تجلي خضوع كل شيء لله بما فيه الظل وقبضه على كل شيء حسب مشيئته ، يشير النص القرآني الى علاقة هذا الظل بالشمس. ويحسن ان نذكر بهذه المناسبة بأن الناس في عصر محمد كانوا يعتقدون بأن تمدد الظل وتحركه مرهون بتحرك الشمس من الشرق الى الغرب . وانهم كانوا يعتمدون لقياس الزمن ما بين طلوع الشمس وغروبها الساعة الشمسية . والقرآن يتحدث هنا عن هذه الظاهرة دون تفسيرها المنتشر في عصر نزوله . هذا التفسير كان يرتضيه الناس بعد محمد بقرون ، الى ان ثبت عدم صحته اخيرا . لذلك فان القرآن يكتفي بالتحدث فقط عن دور مؤشر الظل الذي تلعبه الشمس ، الامر الذي يجعلنا نلاحظ ايضا غياب التناقض بين الطريقة التي يعرض بها القرآن الظل وما نعرفه عنه في عصرنا الحديث .

٦ ــ عالم النبات والحيوان

لقد جمعنا في هذا الفصل الكثير من الآيات المفرقة في الكتاب التي تذكر أصل الحياة وصورا من عالم النبات ، وموضوعات عامة او خاصة متعلقة بعالم الحيوان . وترتيبها في مجموعات على أسس عقلية يمكن ان يعطينا فكرة عامة عن معطيات القرآن في كل هذه المسائل .

على ان اختبار نص القرآن بالنسبة لموضوعات هذا الفصل كما بالنسبة للفصل اللاحق دقيق أحيانا بسبب بعض الصعوبات الملازمة

للمفردات التي لا يمكن تجاوزها الا بعد ان نأخذ بالاعتبار المعطيات العلمية المتصلة بالموضوع الذي نعالجه . وبخاصة فيما يتعلق بالكائنات الحية كالنبات والحيوان والانسان التي لا بد من مواجهتها مع معطيات العلم لايجاد معنى لبعض تأكيدات القرآن في هذا الصدد .

ونفهم من الآيات بأن عددا من الترجمات لهذه النصوص من القرآن التى قام بها بعض الادباء محكوم عليها بعدم الصحة من قبل رجال العلم . وكذلك بالنسبة لبعض التفسيرات التي لا يملك اصحابها المعارف العلمية الضرورية لفهم النص .

اصل الحياة

لقد شغلت هذه المسألة الانسان في كل زمن فيما يتعلق به وبجميع الكائنات المحيطة به وسنتفحصها هنا بنظرة عامة . ولقد كان حال الانسان الذي نزل على هذه الارض ، وتكاثره موضوع التوسعات التي سنمارسها في الفصل التالي .

ومع تصدي القرآن لاصل الحياة في خطها العام ، فانه يوجز ذكره حدا في آية تعنى أيضا بموضوع تكون الخلق الذي سبق ذكره وشرحه .

سورة ٢١ آية ٣٠ « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون » .

ان مفهوم اصل الاشياء ليس موضع شك . اذ يمكن ان يفهم من هذه الآية ان الماء مادة اساسية في صنع كل شيء حي . او ان الماء هو أصل كل شيء حي . وهذان المعنيان المكنان متوافقان تماما مع المعطيات العلمية. فقد عثر على ان اصل الحياة مائي . وان الماء هو العنصر الاول لكل خلية حية . وانه لا سبيل الى الحياة دون الماء . وعندما ندرس امكانية الحياة على اي كوكب ، نبادر الى التساؤل هل يحتوي هذا الكوكب الماء بكمية كافية ؟

ان المعطيات الحديثة تسمح بالتفكير بان الكائنات الحية الاكثر قدما تعود الى عالم النبات . وقد عثر على بعض النبات المائي من العصر السابق لكامبري اي في الاراضي الاكثر قدما في علمنا . وان بعض عناصر الحيوان القديمة ، ظهرت بعد ذلك بقليل . وقد جاءت من المحيطات .

هذا وتفسير كلمة eau هو ماء الذي يعني ماء السماء . كما يعني ماء المحيطات ، او اي سائل كان . وفي المعنى الاول فان الماء هو العنصر الاساسي لكل حياة نباتية .

سورة ٢٠ آية ٣ « ... وانزل من السماء ماء فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى » .

أول ذكر للزوج في النبات مفهوم سنعود اليه .

وفي المعنى الثاني وهو السائل دونما تدقيق استعملت الكلمة بشكلها غير المحدد لتعني اساس تكوين كل حيوان .

سورة ٢٤ آية ٤٥ : « والله خلق كل دابة من ماء »

وسنرى فيما بعد ان الكلمة يمكن ان تطلق على السائل المنوي (١)

وهكذا فان كل آيات القرآن المتعلقة بأصل الحياة سواء كان يراد اصل الحياة العامة ، او العنصر الذي ينبت الزرع ، او البذرة الحيوانية متفقة مع المعطيات العلمية الحديثة كل الاتفاق . وليس لاي خرافة وثنية مما كان يفيض بها ذاك العصر حول أصل الحياة وجود في نص القرآن .

عالم النبات

لا يسعنا هنا أن نورد النصوص الكثيرة في القرآن التي تحدثت عن نعمة الله من خلال التحدث عما للمطر من فضل في انبات الزرع . وفيما يلي سنختار ثلاث آيات منها :

سورة ١٦ آية ١١ : « هو الذي انزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات » .

سورة ٦ آية ٩٩ : « وهو الذي انزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا يخرج منه حبا متراكبا . ومن النخيل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .

سورة آية ٩ ـ ١١ « ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد واحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » .

ويضيف القرآن الى هذه الاعتبارات العامة ، غيرها مما يوجه الى صور اكثر تحديدا .

التوازن السائد في عالم النبات

سورة ١٥ آية ١٩ : « والارض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون »

اختلاف الاغذية

سورة ١٣ آية : « وفي الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

انه لمن المهم التنبيه الى وجود هذه الآيات ، لتسليط الضوء على اعتدال العبارات المستعملة ، وغياب اي ذكر يزيد في التعبير عن معتقدات العصر

---

(١) يرشح من غدد مهياة للنسل . وهي تحتوي البرماتوزوييد .

على حساب اي حقائق اساسية . ومع ذلك تبقى الآيات القرآنية العائدة الى التكاثر في عالم النبات آسرة للانتباه .

تكاثر النبات

وينبغي التذكير بان التكاثر في عالم النبات يتم عن طريقين : التكاثر التناسلي ، والتكاثر اللاتناسلي . والحق يقال بان الطريق الاول هو الوحيد الذي يستحق ان يعطى لقب التكاثر لانه يحدد امتدادا حيوانيا غرضه ظهور كائن جديد مماثل للذي منحه النشأة .

والتكاثر اللاتناسلي هو تكاثر بسيط يتحقق من انقسام جسم الى اقسام ، يحاول أحدها حال انفصاله عن الاصل الاستحصال على ان يعيده شبيها بالذي انفصل عنه . ويعتبره كل من Mangenot، Guillermond « حالة خاصة بالنمو » وعملية زرع الفسول تعطينا مثلا بسيطا لذلك . فالفرع المقطوع من نبته ، اذا زرع بطريقة مناسبة في أرض ، ثم سقي تعود اليه الحياة بنمو جذوره . ولبعض النبات أعضاء مختصة بهذه المهمة . بينما يحمل البعض الآخر آلات التناسل ــ اذا صح التعبير ــ كأنها البذور [هي ثمرة امتداد التكاثر التناسلي] .

والتكاثر التناسلي للنبات يتفاعل بتلاقح عناصر الذكورة والانوثة المنتمية الى تكوينات مولدة ملتقية جميعها في نفس النبتة او منفصلة . وهذه وحدها نراها في القرآن في السورة ٢٠ آية ٥٣ « الذي جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فأخرجنا به ازواجا من نبات شتى » .

وازواج جمع زوج . ومعناه الاولي : ما يكون مع آخر مثله زوجا . وينطبق أيضا على الزوجين « العروسين » وعلى زوج الحذاء .

سورة ٢٢ آية ٥ : « وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج » .

سورة ٣١ آية ١٠ « فانبتنا فيها من كل زوج كريم »

سورة ١٣ آية ٣ « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين »

اننا نعلم بان الثمرة هي نهاية دورة التكاثر لدى النباتات العالية ذات التنظيم الاكثر كمالا وتركبا . يسبقها مرحلة الزهرة مع اعضاء الذكورة [اللقاح] والانوثة (البويضات) التي بعد حملها اللقاح تعطي الثمرات التي تخرج الحب بعد نضجها . فكل ثمرة اذن تتطلب وجود اعضاء الذكورة والانوثة ، وهذا ما تريد الآية القرآنية قوله .

ومع ذلك فانه ينبغي ان يلاحظ بان بعض الانواع تأتي من زهر غير ملقح [ثمر رجعي] كما هو الحال في الموز ، وبعض انواع الاناناس والتين والبرتقال والعنب . وهذه الثمار رغم ذلك منحدرة من نباتات ذات جهاز تناسلي .

واكتمال عملية التكاثر يتم بامتداد تفريخ الحبة بعد انفتاح قشرتها الخارجية [التي يمكن ان تكون متركزة في النواة] التي تسمح بخروج الجذور التي تتشعب في الارض وهذا لضرورة المحافظة على الغرسة ذات الحياة البطيئة للحبة ولتنمو وتعطي كيانا جديدا . ويشير القرآن الى عملية الانبات هذه في السورة ٦ آية ٩٥ : « ان الله فالق الحب والنوى » .

والقرآن الذي اكثر من ترداد وجود هذه الازواج في عالم النبات يسجل مفهوم الزوجية هذا في اطار اعم ذي حدود غير دقيقة في السورة ٣٦ آية ٣٦ :

« سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون » .

ويمكننا ان نعقد العديد من الافتراضات على معنى هذه الاشياء التي كان يجهلها الناس في عصر محمد ، والتي من اجلها نرى جليا في ايامنا حلقة او بنية مزدوجة في نظام الكائنات الدقيقة الكيان ، كما في الكائنات العظيمة الكيان ، في العالم الحي كما في العالم اللاحي . والمهم ان نحتفظ بمفاهيم واضحة المعاني وان نلاحظ مرة اخرى باننا لا نجد فيها اختلافات مع العلم في هذا العصر .

ج ـــ عالم الحيوان

في القرآن عدد من المسائل المتصلة بعالم الحيوان محل ملاحظات تفرض ان تتجه الى عقد مواجهة لها مع المعارف العلمية الحديثة . على اننا اذا لم نسق نصا كالذي سيلي ذكر فيه خلق بعض عناصر من عالم الحيوان في معرض حمل الناس على التفكير في نعم الله عليهم ، فسنقدم صورة ناقصة عما يحتويه القرآن في هذا الموضوع . وهذا النص مسوق في الاصل لضرب مثل عن الطريقة التي يذكر بها القرآن انسجام الخلائق مع حاجات الانسان وبخاصة الريفية لانه لا يقدم مادة الاختبار من نوع آخر .

سورة ١٦ آية ٥ ـــ ٨ : « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينه ويخلق ما لا تعلمون » .

بجانب هذه الاعتبارات العامة نرى القرآن يعرض بعض المعطيات في موضوعات مختلفة :

- التكاثر في عالم الحيوان .
- ذكر وجود المجموعات الحيوانية .
- تأملات عن النحل والعنكبوت والطيور .
- خبر عن منشأ الحليب الحيواني .

١ ـــ التكاثر في عـــالم الحيوان :

ان هذا المـــوضوع وارد بصورة مجملة في الايـــات ٤٥ ، ٤٦ مـــن السورة ٥٣ :

« وانه خلق الزوجين الذكر والانثى من نطفة اذا تمنى » .

الزوج هو نفس التعبير الذي رايناه في الايـــات التي لها تعلق بتكاثر النبات ، علـــى اساس ان المراد هنا التكاثر التناسلي . والتفصيل معتبر وواضح في التعريف المعطى للنطفة . ونفس الكلمة التي تعني مـــادة التناسل المستعملة للانسان . وسنشرح في الفصل التالي لماذا استعملت للانسان نفس كلمة التناسل التي استعملت لغيره .

٢ ـــ وجود مجموعـــات الحيوانات

سورة ٦ آية ٣٨ : « ومـــا من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه ، الا أمم أمثالكم . . ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون » .

في هذه الآية نقاط كثيرة تحتاج الى شرح . ويبـــدو اولا ، ان مصير الحيوانات بعـــد موتها مذكور . اذ ليس للاسلام على مـــا يظهر في هذه النقطة اي مذهب(١) . ثم ان الصيرورة العامة التي يبدو انها موضع بحث هنا يمكن أن تفهم على انها صيرورة مطلقة(٢) او صيرورة نسبية محددة في بنيات وتنظيمات مرتبة مشترطة شكلا من السلوك . وللحيوان تحرك نتيجة للمؤثرات الخارجية المتنوعة وفقا لتكييف خـــاص .

ويرى بلاشير أن مفسرا قديما كالرازي يفكر بـــأن هذه الاية لا تعالج الا افعالا غريزية يسبح الحيوان بها الله . والشيخ سي ابو بكر حمزة في شروح ترجمته للقرآن ، يتكلم عن « الغريزة التي تدفع حسب الحكمة الالهية، كل الكائنات للتجمع والتكاثر والتنظيم في طوائف تتطلب لتكون قويـــة معافاة أن يكون عمل كل عضو منها في صالح المجموعة .

لقد درس هذا السلوك الحيواني بدقة اخيرا في هذه العشرات مـــن السنين وتوصل الى ابراز طوائف حيوانية حقيقية . ولا شك بـــأن تفحص نتيجة عمل مجموعة استطاعتمنذ زمن طويل ان تحمل على تبني ضرورة تنظيم المجموعات . ولكن ليس هذا الا في فترة حديثة حيث اكتشفت فيها الطرق التي تتصرف في مثل هذه التنظيمات لبعض الانواع . واحسن حالات الحيوان دراسة واكثرها معرفة هي دونما جدال ، حال النحل التي يرتبط بهـــا اسم فون فريش . وفون فريشولورنز وتنبرجن قد حازوا لقب نوبل سنة ١٩٧٣ .

---

(١) الراجح ان هذه الحيوانات تبعث يوم القيامة ثم تحاسب فيقتص حتى للشاة الجلحاء من الشاة القرناء ثم تموت جميعها. المترجمون .

(٢) رأينا في المدخل للقسم الثالث من هذا الكتاب ما ينبغي التفكير فيه بالنسبة لحالـــة الانسان من الصيرورة .

٣ ــ تأملات في النحل والعناكب والطيور

الحيوانات التي تذكــر غالبا عندما يريد بعض اختصــاصيي الجهاز العصبي : اعطاء أمثلة بارزة عن التنظيم المعجز الذي يحكم كيان الحيوان ، هي النحل والعناكب والطيور [وبخاصة ما يهاجر منها] .

وعلى كل حال فانه يمكننا ان نؤكد بان هذه المجموعات الثلاث تمثل طرازا جميلا للتنظيم الرفيع . وكأن القرآن يتعرض لهذا الثالوث المثالي في عالم الحيــوان ويجيب تماما على الصفة المهمة ــ بشكل خاص من وجهة نظر العلم ــ لكل من الحيوانات المذكورة هنا .

النحــــل

انها هي التي في القرآن مدار شرح طويل .

سورة ١٦ آية ٦٨ ــ ٦٩ : « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلي من الثمرات فاسلكي سبــل ربك ذللا. يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس. ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون » .

وانه لمن الصعب معرفة ما تعنيه الآية بالضبط من نظام اتباع سبل الرب ذللا ، اللهم الا اذا كان ذلك من وجهة نظر عامة . وكل الذي يمكن قوله وفقا للمعرفة التي بين ايدينــا في دراسة كيانها هو هنــا [كما في حالات الحيوانات الثلاث المذكورة على سبيل المثل في القرآن] تنظيم عصبي عجيب هو ركيزة الكيان . كما علمنا ان النحــل تتخذ من تراقصها وسيلة الاتصال فيما بينها . وهي قادرة بأن تعرف بهذا قرناءها في اي اتجاه ، وعلى اي بعد توجــد الزهرات اللواتي يمكنها الامتصاص منها . وقد كشفــت تجربة فون فريش الشهيرة معنى حركات الحشرة الهادفة الى نقل الخبر بين افراد النحــل العــاملة .

العنكبــوت

ذكرت العنكبوت في القرآن للفت النظر الى دقة ورقة بيتهــا الذي هو أوهن البيوت . انه بيت سريع الزوال كمــا يقول القرآن . مثله كمثل النصرة التي ينشدها الناس لدى من اتخذوهم اولياء من دون الله . سورة ٢٩ آية ٤١ : « مثل الذين اتخذوا أولياء من دون الله كمثل العنكبوت اتخذت بيتــا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

ان نسيــج العنكبوت مصنــوع في الواقع من خيــوط حريرية متدنية الصنف ، تسيل من لعابها وهو من الدقة بحيث لا يستطيع الانسان ان يقلده.

ويتساءل علماء الطبيعة عما لا يتكلم عنه القرآن من التصميم العجيب للعمــل المسجل من خلايا الحيــوان العصبية ، الذي يسمح لها بصناعة نسيج كامل الهندسة .

الطيــــور

امـــا الطيور فهي موضع احاديث متكررة في القرآن ، اذ دخلت في مراحل من حياة ابراهيم ويوسف وداود وسليمان وعيسى . وليس لهذه الاحاديث اية صلـــة بالموضوع الذي نتناولــه هنا . فقــد لاحظنا سابقا الآية المتعلقة بوجود طوائف من الحيوانات الارضية والطيور .

سورة ٦ آية ٣٨ : « ومـــا من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم » .

وثمة آيتان اخريان تبــرزان خضوع الطيور الدقيق لقدرة الله .

سورة ١٦ آية ٧٩ : « اولم يروا الى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن الا الله » .

سورة ٦٧ آية ١٩ : « أولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن » .

ان من الممتــع ترجمــة فعل «امسك» الوارد في كل مــن هاتــين الآيتين التي توضح هنا أن الله يمسك بقدرته الطيــور . ومعنى امسك الاولى هو : وضع يده على ، قبض ، حجز شخصا ما .

ويمكننا تماما تقريب معنى هذه الآيات التي تبرز تبعية الطـــير تبعية خاصة ومحدودة بالنسبـــة لنظام الله ، مع المعطيـــات الحديثة التي تظهر نقطة الكمال التي يتصف بها عمـــل بعض انواع الطيـــور ، كما تصف بها تنقلاتهم المبرمجـــة . اذ هناك بالفعـــل برنامج الهجرة مسجـــل في النظام النوعي للحيوان الذي يمكنه وحده التاكـــد من المسافات المعقـــدة والطويلة جدا ، التي تثبت فراخ الطيور دونمـــا تجربة سابقـــة ودونما دليل ، انها قادرة على القيام بها بحيث تستطيع أن تعود في نفس التاريخ المعـــين الى مكان الذهاب . ويذكر الاستاذ هامبرجر في كتـــابه [القدرة والضعف](١) على سبيل المثال الحالة الشهيرة [طير — ميتون] من المحيط الهادىء وعن رحلته بشكل (8) التي هي بطول خمسة وعشرين الف كيلومتر(٢) وتقدر بان التعليمات المعقـــدة جدا لمثل تلك الرحلة مسجلـــة ضرورة في الخلايا العصبية للطير . انها بالتأكيد مبرمجة ، ولكن من هو الذي يبرمجها ؟!

٤ — منشأ مركبات الحليب الحيواني

ان وصف القرآن لمنشأ مركبات الحليب الحيواني متفق تمـــاما مع معطيات المعرفة الحديثة في السورة [١٦ آية ٦٦] وطريقة ترجمة وتفسير

---

(١) فلاماريون ١٩٧٢

(٢) انه ينجز هذه الرحلة في ستة اشهر ليعود من نقطة انطلاقه في الذهاب بتاخر اقصـــاه اسبـــوع .

هذه الآية هي شخصية محضة لأن الترجمات حتى المعاصرة تنسب اليها عادة معنى غير مقبول ابدا في رايي واليك مثلين.

ترجمة بلاشير : « في الحقيقة ان لكم بالتأكيد عبرة في انعامكم نسقيكم من حليب نقي سائغ للشاربين من هذا الذي في بطونها وبين الغذاء المهضوم والدم » .

ترجمة حميدالله « نعم لا شك ان ثمة ما يستدعي تفكيركم في الانعام وما في بطونها نسقيكم من خلال البراز والدم حليبا صافيا سائغا للشاربين » .

ان كل عالم بالحيوان يجيب عندما نقدم اليه مثل هذه الترجمة للنصوص بانها غامضة جدا . اذ لا يبدو فيها شيء من الانسجام مع المفاهيم الحديثة حتى البدائية . ومع أن هذه الاسطر من صنع اكابر علماء العربية ، الا اننا نعلم جيدا بأن المترجم مهما كان بارعا عرضة لارتكاب خطأ في ترجمة المفاهيم العلمية الواردة فيها اذا لم يكن اختصاصيا في المادة المعنية هنا .

والترجمة التي تبدو لي صحيحة هي التالية :

« في الحقيقة ان لكم في حيوانات قطعانكم عبرة . تعطيكم للشرب مما في داخل جسمها والذي ينتج من الصلة ما بين محتوى الامعاء والدم حليبا صافيا سائغا للشاربين » .

ان هذه الترجمة قريبة جدا مما يوضحه تفسير المنتخب في طبعته المنشورة سنة ١٩٧٣ من قبل المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية في القاهرة الذي يعتمد على معطيات من علم اعضاء الحيوان الحديث .

والترجمة المقترحة هذه محققة من جهة مفرداتها كما يلي :

فقد ترجمت « في داخل أجسامها » لا كما ترجم بلاشير او الاستاذ حميدالله « في بطونها » . لان كلمة بطن [العربية] تعني وسط وداخل اي شيء ، بقدر ما تعني كلمة بطن [الفرنسية] ventre هذه الكلمة ليس لها معنى تشريحي دقيق . ولقد يبدو لي أن [في داخل الجسم] متفق تماما مع السياق .

ومفهوم كلمة « مصدر » مركبات الحليب معبر عنها بحرف « من » ، وبالظرف « بين » الذي لا يعني فقط « خلال » أو ضمن كما في الترجمتين الاخريين المذكورتين ، ولكن يصلح للتعبير به ايضا باننا نضع بين شيئين أو شخصين الواحد بحضرة الاخر . وينبغي لالتقاط معنى هذه الآية من وجهة النظر العلمية أن نذكر مفاهيم في علم الاعضاء الحيواني .

تتكون المواد الاساسية التي تؤمن تغذية الجسم بوجه عام من تحولات كيميائية تجري في طول القناة الهضمية . وهذه المواد تاتي من عناصر حاضرة في محتويات الامعاء . وعندما تصل الى المرحلة المراد فيها

التحــول الكيمائي ، تمر عبره غشاوة نحو الدورة الدمويـــة العامة . وهذا العبور يتحقق بطريقتين : اما بطريقة مباشرة بواسطة ما نسميه الشرايين اللمفاوية ، واما بطريقة غير مباشرة بالدورة التي تسوقها الـــى الكبد اولا حيث تتلقى بعض التحويرات ثم تبرز لتتصل اخيرا بالدورة الدموية العامة . وبهذه الطريقـــة كل شيء يمر اخيرا عبر الدورة الدموية .

ان مركبات الحليب ترشح من الغدد الرضعيـــة التي تتغذى ــ اذا أمكن القول ــ من حصيلة هضم الاغذية التي تصلها بواسطة الدم السائل . اذ يلعـــب الدم دور المصدر والمورد للمواد المستخلصة من الاغذية ليجلب الغذاء للغدد الرضعية المنتجة للحليب كما تجلبه لغيرها من الاعضاء الاخرى.

وهنا كل شيء ينشـــأ من منطلق وضع المحتوى المعوي بحضرة الدم في مستوى الجدار المعوي ذاته . هذا المفهوم الدقيق يرجع الى ابحاث كيمائية وعضوية في عملية الهضم . وقد كانت مجهولة تماما في زمن الرسول ومعرفتهـــا تعود الى الفترة الحديثـــة . كما أن الـــدورة الدموية هي من توضيح « هاري » الذي ظهر بعد الوحي القرآني بما يقارب عشرة قرون .

وفي رأيي ان وجود الآية التي تشير الى هذه المعلومات في القرآن لا يمكن أن يكون له تفسير بشري بسبب العصر الذي اعطيت فيه(١) .

٧ ــ التكـــاثر البشري

ان العمل الانساني القديم رغم ما كان عليه من ضآلة في التفصيل ، انتج من يوم أن بدأ يتجـــه الى التكاثر افكارا خاطئة . وقد كان يحيط به في مرحلـــة من القـــرون الوسطى غير قديمة الوان من الاخيلـــة الوثنية والخرافات . وكيف يمكن أن يكـــون في وضع غير هذا الوضع اذا كان في فهمه لتركيبه المعقد يفتقر الى معرفة علم التشريح ، والى اكتشاف المجهر ونشأة العلوم الاساسيـــة التي كان منها علـــم الفيزيولوجيا والامبريولوجيا والاوبستيريك ؟(٢) .

غير أن الامر يختلف بالنسبة الى القرآن ، اذ يثير في أكثر من موضع منه مركبـــات الانسان الدقيقة ويذكر عن التكاثر عبارات محددة لا يشوب اي معلوم منها شائبة بطلان . فكل شيء معبر عنه بعبارات بسيطة سهلة الفهم وشديدة الاتفاق مع ما سيكتشفه العلم بعد ظهوره بزمن طويل .

ان التكاثر البشري وقد أثير في عشرات الآيات القرآنية دون ترتيب ظاهر ، قد عرض من خـــلال تعاليم تركز كل منها على نقطـــة خاصة أو

---

(١) يعني انها لا يمكن ان تكـــون من كلام البشر . المترجمون .

(٢) الفيزيولوجيا علم تركيب أعضاء الحيوان . والامبريولوجيا علم الاجنة والاوبستيريك علـــم الولادة .

اكثر . ولا بد لتكوين فكرة عامة عنها من اعادة تصنيفها . وقد بسطنا شرح هذا الموضوع كما سبق في غيره من المواضيع .

تذكير ببعض المفاهيم

من الضرورة التذكير ببعض المفاهيم التي كانت مجهولة عن عصر الوحي القرآني والعصور التي لحقت به .

لقد تأكد التكاثر البشري بمجموعة تطورات مشتركة فيما بين ذوات الثدي ، فتوجد البويضة التي انفصلت عن المبيض في نقطة انطلاقتها في الخرطوم في وسط دورة العادة الشهرية . واللقاح هو مني الرجل . وبدقة اكثر هو السبرماتوزييد ، لان خلية واحدة تكفي . ولكي يتحقق التلقيح اذن تكفي كمية ضئيلة جدا من هذا السائل المنوي الذي يحول السبرماتوزييد باعداد ضخمة جدا [عشرات الملايين في الدقيقة الواحدة] ان هذا السائل بنزف من الغدد ويظل محفوظا مؤقتا في شبه خزانات واقنية تفرغ نهائيا في المسالك البولية . وثمة غدد ملحقة بها مبعثرة على طول هذه المسالك تضيف الى نفس المني رشحات اخرى ثانوية خالية من عناصر الاخصاب .

وهكذا يتم تكون البويضة الملقحة في نقطة معينة من جهاز المبيض الانثوي ، فتنزل عبر خراطيم في الرحم ، وتعشش في سطحه ، حيث لا تتأخر عن التعلق بدقة مندمجة في سماكته ، وفي المخاط وفي العضل يعد تكون الغشاوة وبمساعدتها . واذا تركزت هذه البويضة الملقحة مثلا في الخرطوم بدل أن تتركز في الرحم توقف الحمل .

وبمجرد أن يصبح الحمل مرئيا بالعين المجردة يكون بهيأة كتلة من اللحم تتوسطها صورة غامضة لكائن انساني في اول الامر ، فينمو فيها بسرعة على مراحل متتابعة اصبحت اليوم معروفة جدا حتى تبرز هيكل الجسم البشري : الهيكل المكسو بالعضلات والجهاز العصبي والجهاز الخاص بالاوردة والشرايين واوعية الدماغ والرئة والقلب وغيرها .

ان هذه المفاهيم هي التي ستستخدم كمواد للمقارنة مع ما يمكننا قراءته في القرآن عن التكاثر .

التكاثر البشري في القرآن

ليس من اليسير تكوين فكرة عما في القرآن من هذا الموضوع . وذلك لتناثر المعلومات المتعلقة فيه كما سبق واشرنا اليه . ولا نحب ان يفهم من هذا القول ان يراد ان ثمة تعقيدا عظيما . غير ان مما يزيد في ضلال الباحث هنا هو ايضا الكلمات .

والواقع ان في عصرنا ترجمات وشروحا لبعض النصوص منتشرة دائما يمكنها أن تعطي العلماء الذين يقراونها في الموضوع المقصود ، فكرة كاملة الخطأ عن الوحي القرآني . وهكذا فان اغلب الترجمات تذكر تكون الانسان ابتداء من « كتلة الدم » أو « التصاق » وهو ما ليس مقبولا أبدا من

العالم المتخصص في هذا الحقل ، لانه لـم يكن للانسان مطلقـا مثل هذه البداية . وسنرى في الفقرة التي تعالج حضانة البويضة في رحم الامومـة الاسباب التي قادت بعض البارزين من علماء العربية الذين لـم تكن لهـم الثقافة العلمية للوقوع في مثل هذه الاخطاء .

وهذا مـا يدفعنا الى التفكير في اهمية التقاء المعـارف البيانية مع المعارف العلمية للتوصل الى التقاط معنى التعـاليم القرآنية في موضوع التكـاثر .

يركز القرآن اولا على التطورات المتتابعة للجنين حتى يكـون في رحم الامـومة :

سورة ٨٢ آية ٦ ــ ٨ : « يـا ايها الانسان ما غرك بربك الكريـم الذي خلقك فسواك فعـدلك في اي صورة ما شـاء ربك » .

سورة ٧ آية ١٤ « وقـد خلقكم اطوارا » .

وبجانب هذه الملاحظة العامة يوجه النص القرآني الانتباه الى نقـاط عـدة تتعلق بالتكاثر التي يبدو انه يمكن ترتيبها كما يلي :

١ ــ اللقاح يتم بقليل من السائل .
٢ ــ طبيعة السائل اللقاح .
٣ ــ حضانة البويضة الملقحة .
٤ ــ تطور الجنين .

١ ــ اللقاح يتم بقليل من السائل

كرز القرآن ذكر هذه النقطة احـدى عشرة مرة مستعملا التعبير الذي نجـده فيما يلي :

سورة ١٦ آية ٤ « خلقَ الانسان من نطفة » .

ونجدنـا مضطرين لترجمة كلمة نطفة الى اللغة الفرنسية بعبـارة Goutte (de spereme) وذلك بسبب العجز في اللغة الفرنسية عن امتلاك الكلمة الدقيقة المناسبة لها ، وينبغي ان نقـول بأن هذه الكلمة مشتقة من فعل نطف الذي يعني سـال ورشح . ويستخدم للاشـارة لما يمكن أن يبقى في سطل بعـد تفريغه . فهو اذن يشير الى كمية ضئيلة جـدا مـن السائل حيث يصبح المعنى الثاني قطرة من المـاء . وهنا قطرة من المني للتعبير عنها في آية اخرى بكلمة مني . سورة ٧ آية ٣٧ : « الم يك نطفة من مني يمنى » .

والمراد من كلمة « مني » العربية sperme في اللغة الفرنسية .

وهناك آية اخرى تبين ان النطفة التـي هي محـل الحديث توضع في قرار مكين الذي يعني بوضوح تام الرحم .

سورة ٢٣ آية ١٣ يقول الله : « ثم جعلناه نطفة في قرار مكين » .

على أنه ينبغي أن يضاف هنا بأن وصف « القرار » في الآيـة بكلمة

« مكين » لا يمكن ترجمته الى اللغة الفرنسية كما يبدو لي . وذلك لانه يعبر عن فكرة المكـــان المتميز الرفيع المتين الثبوت . ومهما يكن فانه يراد مكان نمو الانســـان في رحم الامومة .

والمهم بالخصوص هو ان نشير الـــى ان قضيـــة الكمية الضئيلة من السائل الضروري للتلقيح متفقة بدقة مع ما نعرفه عنها في هذا العصر .

٢ ــ طبيعـــة السائل الملقح

يذكر القرآن هذا السائل الذي يضمن اللقاح بأوصاف يهم تفحصها :

أ ــ المني كما سبق وحققناه « سورة ٧ آية ٣٧ » .

ب ــ السائل الدافق « سورة ٨٦ آية ٦ » .

جـ ــ السائل المهين « سورة ٣٢ آية ٨ وسورة ٧٧ آية ٢٠ » .

ويبدو انه يمكن تفسير وصف المهـــين ليس من جهة نوعيـــة السائل بالذات بل من جهة انه يصدر عن نهاية الجهاز البولي مستعيرا المجاز الذي يخرج منه للبـــول .

د ــ امشـــاج او مخلوط « انا خلقنــــــاه من نطفة امشاج » سورة ٧٦ آيـــة ٢ .

وكثير من الشراح كالاستاذ حميدالله يرى في هذا الخليط عنصر الذكورة وعنصر الانوثة . وكذلـــك فان راي بعض الكتاب القدمـــاء الذين لم يكن لهم ادنى فكرة عن فيزيولوجية التلقيح وبخاصة ظروفهـــا البيولوجية من جهة المراة . لقد كانوا يرون ان كلمة امشاج الواردة في القرآن ، هـــي مجرد التقـــاء العنصرين .

ولكن شراحا محدثين كاصحاب تفسير المنتخب المنشور من قبل المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية في القاهرة صححوا هذا الفهم وكشفوا بان المني « مشحون بعناصر مختلفة » وان كانوا لم يفصلوا الحديث فيه . ولكن يبدو لي بان ملاحظتهم معقولة جـــدا .

فما هي اذن العناصر المختلفة للمني ؟.

السائل المنوي مؤلف من رشحات تنطف من الغدد التالية :

أ ــ الغدد المنويـــــة للذكورة [رشح الغدد المنويـــــة للذكورة يحتوي السبرماتوزوييد وهو خلايا متطاولة مزودة بشعيرات مطمـــورة في سائل حليبـــي] .

ب ــ المبايض ، وهي خزانات السبرماتوزوييد موجودة قريبــــا من البروستات لها رشح خاص خال من عناصر التلقيح .

جـ ــ والبروستات وهي ترشـــح بسائل يكسب المني لونـــه الكريمي ورائحتـــه الخاصة .

د ــ الغدد المساعدة للمسالك البولية : غدد كوبر او ميري ، ترشح بسائل سلس ، وغدد ليتري ترشح بالمخاط .

هذه هي أصول هذه « الامشاج » التي يبدو القرآن متكلما عنها كثيرا .

على انه بالاضافة الى ما سبق ، اذا تكلم القرآن عن سائل ملقح مكون من عناصر مختلفة ، فهو ينبهنا الى ان نسل الانسان يتحقق من بعض الاشياء التي يمكن أن تكون مستخرجة من هذا السائل . وهو معنى الآية ٨ من السورة ٣٢ .

« ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » .

والكلمة العربية « سلالة » مترجمة هنا بكلمة quintessence التي تعني « مستخرجا من اخر » أو « أفضل جزء من شيء ما » وسواء ترجمت بهذه الطريقة أو تلك فانها تبقى تعني جزءا من كل .

والذي يكسب البويضة اللقاح ويؤمن التكاثر خلية ذات شكل طويل جدا ، انها بطول واحد من عشرة الاف من المليمتر . عنصر واحد من عشرات الملايين المتدفقة من مني الانسان في ظروفه الطبيعية(١) تتوصل للدخول الى البويضة بينما يبقى عدد كبير منها في الطريق دون أن يتمكن من قطع المسافة التي توصل الى البويضة من مدخل الرحم عبر فجوة الجهاز التناسلي الانثوي وخرطومها .

فالذي ابدى نشاطه اذن هو جزء دقيق جدا انفصل من سائل التكوين الشديد التعقيد . فكيف لا ندهش بالتالي من الاتفاق القائم بين نص القرآن والمعرفة العلمية التي توصلنا اليها في هذه الظواهر ؟!

٣ ـ حضانة البويضة الملقحة

وبمجرد أن تلقح البويضة في الخرطوم تنزل الى قرارها داخل الرحم. وهذا ما ندعوه حضانة البويضة . والقرآن يطلق كلمة الرحم على المكان الذي تستقر فيه البويضة الملقحة « ونقر في الارحام ما نشاء الى اجل مسمى » سورة ٢٢ آية ٥ .

يتحقق استقرار البويضة في الرحم بنمو [الزغابات] اي الامتدادات الحقيقية للبويضة التي تتشعب كالجذور في الارض لتمتص من سماكة العضو ما هو ضروري لنماء البويضة . هذه التخلقات تعلق البويضة في الرحم تعلقا قويا . وهذه كلها لم نعرفها الا في هذه الازمان الحديثة .

لقد ذكر هذا التعلق في القرآن خمس مرات . اولا في الآيتين الاوليين من السورة ٩٦ :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق » .

وترجمة « العلق » بالللغة الفرنسية quelque chose qui s'accroche اي شيء ما يتعلق .

---

(١) يمكن أن نقدر السنتيمتر المكعب من المني يحوي ٢٥ مليونا من السبرماتوزوييد بظروف طبيعية بالدفقة من بعض السنتيمترات المكعبة .

وهو معناه الاصلي . معنى مشتق من هذا الفعل . اما صورة [دم متجمد او كتلة دم] المكررة في الترجمات فهي غير صحيحة . ويجب التنبه الى ذلك . اذ ان الانسان لم يمر مطلقا في مرحلة [الدم المتجمد او كتلة الدم] كما انه كذلك بالنسبة للترجمة الاخرى المعطاة وهي [الالتصاق] الذي هو ايضا تعبير غير صحيح . والمعنى الاول هو كما ذكرنا [شيء ما يتعلق] يلتقي تماما مع الحقيقة المثبتة في هذه الايام .

وهذه الحقيقة مذكورة في اربع آيات اخرى تستعرض تطورات متعاقبة تبدأ من مرحلة النطفة المنوية وتنتهي في اجل الولادة :

« ... فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة » سورة ٢٢ آية ٥ .

سورة ٢٣ آية ١٤ « ... ثم خلقنا النطفة علقة » .

سورة ٤٠ آية ٦٧ « هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة » .

سورة ٧٥ آية ٣٧ — ٣٨ « الم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى » .

ان العضو الذي يتقلب فيه الحمل ، موصوف في القرآن كما شاهدنا بكلمة مستعملة دائما في العربية لتعني utérus الرحم . وقد أعطى في بعض السور اسم القرار المكين سورة ٢٣ آية ١٣ التي ذكرت سابقا والسورة ٧٧ آية ٢١ (١) .

٤ — تطور الجنين داخل الرحم

ان وصف مراحل تطور الجنين كما هو في القرآن يتجاوب مع كل ما نعرفه اليوم عن ذلك . وهو لا يحتوي اية عبارة ينتقدها العلم الحديث .

ثم ان الجنين بعد « شيء ما يتعلق » وهو التعبير الذي راينا الى اي حد هو صحيح ، يمر كما يقول القرآن بمرحلة المضغة [مثل اللحم الممضوغ] ثم يبدو الهيكل العظمي مكسوا باللحم [موصوف بكلمة مختلفة

---

(١) في آية اخرى من « سورة ٦ اية ٩٨ » يتحدث القرآن عن القرار المكين للانسان المعبر عنه بعبارة قريبة جدا للسابق . ويبدو انه يقصد رحم الامومة . اني شخصيا ارى ان هذا هو معنى الاية . ولكن تفسيرها بتفصيل يستجر توسعا ليست هذه الدراسة مكانه ومن الشروح الممتعة جدا شرح الاية التالية من سورة ٣٩ آية ٦ « يخلقكم في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث » .

يرى بعض المعاصرين من مغزى القرآن في هذه الاية ما يفيد التصاميم التشريحية الثلاثة التي تصون الطفل اثناء الحمل : حاجز البطن ، الرحم نفسه ، اغلفة الجنين (البلازنتا — الغشاوة والسائل اميتونيك) وينبغي لاكون كاملا ان اورد الاية كلها لان التفسير المعطى لا يبدو لي قابلا للمناقشة تشريحيا . ولكن هل هذا هو الذي يريد ان يقوله القرآن ؟

عن الاولى ونعني بها اللحم الطري] سورة ٢٣ آية ١٤ « فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما » .
وترجمة كلمة « مضغة » في الفرنسية هي La chair comme marchée
اما ترجمة « اللحم » في الفرنسية فهي La chair comme la chair fraiche
وهذا التفريق بين التعبيرين يستحق أن يشار اليه . والجنين هو في البداية كتله لها بالنسبة للعين المجردة في بعض مراحل نموها ، هياة المضغة . والهيكل العظمي يتطور في حضن هذه الكتلة فيما نسميه [المشيمة]، وعندما تتكون العظام تنكسي بالكتل العضلية التي ينطبق عليها كلمة اللحم .

ونعلم انه خلال هذا التطور الخاص بالجنين تظهر بعض الاجزاء غير المنسجمة تماما مع الذي سيكون ، كيان الانسان ، بينما تبقى اجزاء اخرى منسجمة معه .
اليست كلمة « تخلق » وهي التي تعني « تكون بانسجام » قد استعملت في الآية ٥ من السورة ٢٢ للتعبير عن هذه الظاهرة : « فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم » .
والقرآن يثير ايضا ظهور الاحاسيس والاوعية من القلب والرئتين السورة ٣٢ الآية ٩ :
« وجعل لكم السمع والابصار والافئدة .. » .
انه يشير الى التكون الجنسي في السورة ٥٣ آية ٤٥ — ٤٦ :
« وانه خلق الزوجين الذكر والانثى من نطفة اذا تمنى » .

والتكون الجنسي مذكور ايضا في السورة ٣٥ آية ١١ والسورة ٧٥ آية ٣٩ . وكل هذه النصوص القرآنية ينبغي ان تقارن كما قلنا مع المعلومات المثبتة في هذا العصر . واتفاقها معها واضح . بيد أن من المهم جدا ايضا ان نقابلها مع المعتقدات العامة في هذا الموضوع ، التي كانت منتشرة زمن الوحي القرآني ، للتاكد الى اية درجة كان اناس ذلك الزمن بعيدين عن ان تكون لديهم رؤى شبيهة بتلك التي عرضت في القرآن حول هذه المسائل . لا ريب انهم لم يعرفوا تفسير هذا الوحي كما نعرفه اليوم، لان معطيات المعرفة الحديثة تساعدنا. والواقع اننا ما توصلنا الى الحصول على رؤية واضحة تقريبا في هذه المسائل الا في بحر القرن التاسع عشر .
لقد ظلت الاوهام والخرافات التي لا اساس لها في اصل النظريات الاكثر تنوعا طيلة كل القرون الوسطى . بل وبعدها ايضا بقرون أخرى . مع اننا نعلم ان المرحلة الاساسية في التاريخ في علم الجنين عندما اكد هارفي سنة ١٦٥١ بأن « كل من يعيش يأتي في البداية من بيضة » وان الجنين يتكون ويتطور جزءا بعد جزء . ولكن العلم مع كونه في طور نشأته في هذا العصر ، قد استفاد كثيرا من الموضوع الذي نعالجه باختراع

المجهر . فقـــد كانوا يناقشـــون ايضا في الادوار المتتــــالية للبيضة والسبرماتوزوييد .

وكان العالم الطبيعي الكبير [بيفون] من مجموعة المؤمنين بالاصل البيضوي مع [بوني] الذي دعم نظرية اندماج البذرة المنوية . بمعنى ان مبيض حواء ام البشر كان يحوي بذر كل الكائنات البشرية ، مندمج بعضها بالبعض الاخر . ولقد ظلت هذه الفرضية حاصلة على بعض التأييد حتى القرن الثامن عشر ، وقد علم الناس ذلك من القرآن من قبل اكثر من الف سنـــة ، اي في عصر كثـــرت فيه المذاهب الوهميـــة . لقد كـــانت هذه النصوص عن التكاثر البشري تعبر في كلمات بسيطة عن حقـــائق اولية استغرق اكتشافها من الناس اجيالا .

القرآن والتربية الجنسيـــة

يعتقد عصرنا بانه انجز الكثير من الاكتشافات في كل الحقـــول . كما يعتقـــد بانه اتى بجديد في مادة التربية الجنسية . ويرى ان انفتاح الشباب على معرفـــة مسائل الحيـــاة هي من اكتساب العالم الحديث . كما يحمل الكثيرون الاديان مسؤولية جهالة القرون التي خلت ، والتي كانت مقصودة في هـــذا الموضـــوع .

وعليه فان في كل ما سبق وعرض ، لبرهانا على انه منذ اربعة عشر قرنا طرحت مسائل نظرية — اذا صح القول — تتعلـــق بالتكاثر البشري حملت الى معرفة الناس بنسبة ما كان بامكانهم فعله ، مع العلم ما كانوا يملكون معطيات في علم التشريح وعلم تركيب الاعضاء تساعد على تطورات واسعة . وانه كان ينبغي لكي يكون مفهوما الاستعانة بلغة سهلة ومتجانسة مع القدرة العقلية لسامعي الموعظة .

فلم تمر الصـــور الممارسة مطلقا دون الحـــديث عنها . ففي القرآن مجموعة من التفاصيل عن الحياة العملية على العموم ، عن السلوك الذي ينبغي ان يكون للناس في عـــديد من ظـــروف وجـــودهم بما فيهـــا حياتهم الجنسيـــــة .

ولقد اثير موضوع العلاقة الجنسية في القرآن بتعبير صريح وبكلمات تجمع ما بين رغبة التدقيق ، وبين ضرورة الاحتشـــام في آيتين منه . بيد اننا عندما نرجع الى الترجمات والشروح الموضحـــــة التي وضعت في هذا الموضوع نصدم باختلافها وتباعدها . وقد ترددت طويلا في ترجمـــة هاتين الآيتين . ومع ذلك فاني مدين فيما اعرضه الى الدكتـــور [أ.ر. جيرو] استاذ قديم في كلية الطب في بيروت . ســـورة ٨٦ آية ٦ — ٧ « خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » .

لقد عبر القرآن عن الناحية الجنسية في الرجل بكلمة صلب بالمفرد . كما عبر عن الناحية الجنسية في المراة بكلمة الترائب بالجمع .

ان هـــذه الترجمة هي التي تبدو مقبولـــــة . وهي تختلف عن تلك الموضوعة غالبا من المترجمين الفرنسيين والانكليز وهي كما يلي : « خلق الانسان من سائل دافق يخرج من بين خرزة الظهر وعظم الصدر » بل انها تبدو فوق ذلك كانها اختلاف في التاويل بدلا من أن تكون ترجمة . وفضلا عن ذلك فهي غير مفهومة .

ان سلوك الرجال وعلاقاتهم الحميمة مع نسائهم واضحـــة في ظروف مختلفة . وللتوجيه لفترة العادة الشهرية التي ذكرت في الآيات ٢٢٢ ـــ ٢٢٣ من السورة ، فقد أمر الله الرسول أولا بقوله :

« يسألونك عن المحيض قل هو اذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نســـاؤكم حرث لكم فأتوا حرثكـــم انى شئتم وقدموا لانفسكم » .

معنى مقدمة هذا النص واضح جدا . وتحريم العلاقة الجنسيـــة مع المراة حالة الحيض صريح . والجزء الثاني منه يذكر « الحرث » الذي يسبق بالنسبة للحارث وضع البذرة التي ستنبت وتكون غرسة جـــديدة . فلقد سلط التوجيه تصويريا ، وبطريقة غير مباشرة على اهمية ان يكون معروفا لدى فكر المرء ، بأن غاية العلاقة الجنسية البعيدة هي النسل . ان ترجمة العبارة الاخيرة هي لـ [ر. بلاشير] انها تحتوي على امر يكشف مقدمات العلاقة الجنسية على مـــا يظهر .

ان الارشادات الموجهة هنا هي من النـــوع العام جدا . وقد طرحت بمناسبة هذه الايات مسألة العزل التي لا يشير القرآن اليها في آية منه .

وبالاضافة الى ذلك فان القرآن لم يذكر موضوع اسقاط الحمل . غير ان النصوص العديدة المذكورة سابقا عن التطورات المتعاقبة للجنين هي من الوضوح بحيث يعتبر الانسان معها متشكلا منذ الفترة الموســـومة بوجود « العلقة » وفي هذه الظروف ، فان احترام القرآن المطلق للانسان ، المؤكد دائما فيه ، يستلزم استنكار عملية الاسقاط اصلا . وهو الموقف الذي تقفه جميع الديانات الموحدة في هذا العصر .

هذا وان العلاقات الجنسية مباحة في فترة الليل من ايام الصوم طيلة شهر رمضان والآيات التي تحض على الصوم فيه هي التالية :

سورة ٢ آية ١٨٧ : « احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وانتم لباس لهن علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم » .

لكن الامر في ايام الحج هو على العكس اذ تحرم الآيات مباشرة النساء فيها تحريما عـــاما لا استثناء فيه .

سورة ٢ آية ١٩٧ : « فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جـــدال في الحج » .

وكما ان تحريم مباشرة النساء في أيام الحج واضح ، فكذلك تحريم امور أخرى كالصيد والجدال وغيرها .

ويذكر القرآن الحيض أيضا بمناسبة الطلاق .

سورة ٦٥ آية ٤ : « واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن . وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهـــن » .

وفترة « العدة » هـــي التي تمتد بين اعلان الطلاق ، واللحظة التي يصبح فيها ناجزا . وللنسـاء اللواتي وصفن بأنهن يئسن من المحيض ، أي اصبن بانقطاع الحيض نهائيا فترة معقولة مدتها ثلاثة . فاذا انتهت امكنهن الزواج ممن يشــأن .

أما النساء اللواتي لم يحضن بعد ، فعليهن ترقب زمن الحمل(١) . أما الحوامل فلا ينفذ طلاقهن الا بعد وضع الحمل(٢) .

كــل هذا التشريع كامل الانسجـــام مع المعطيات الفيزيولوجية . ونستطيع أن نجد في القرآن بالاضافة الى ذلك في النصوص التي تعالج الترمل نفس الاجراءات التشريعية البصيرة .

كذلك بالنسبة للمعلومات النظرية المتعلقة بالتكاثر ، كما في الارشادات العملية المقننة التـــي تحدثنـــا عنها بمناسبة الحيـــاة الجنسية للازواج ، نلاحظ بانه ليس من واحد منها يتعارض مع معطيات المعارف الحديثة ولا مع ما يمكن أن يتفرع عنه منطقيـــا .

الروايات القرآنيـــة والروايات التوراتيـــة

١ ـــ لمحـــة عـــامة

في القرآن عدد هـــام من الموضوعات عرضت في التوراة . انها أولا أخبار الرسل : نوح ، وابراهيم ويوسف وايليا ويونان وموسى ، وملوك اسرائيل : شـــاوول ، داود ، سليمان ، لكن لن نذكر الا الاخبـــار البارزة المشتركة ، ونستبعد ما ليس سوى استشهاد . انها بشكل اكثر خصوصية اخبار لكبريات الاحـــداث يدخل في مسيرتها الاعجاز ، مثل خلق السموات والارض ، وخلق الانسان والطوفـــان وخروج موسى . وختاما كل ما له اتصال بعيسى وامه مريم ، وما يخص العهد الجديد .

---

(١) هذا خطأ . لان نص القرآن المذكور اعلاه يفيد ان اللواتي لم يحضن سواء مع اللائي يئسن من المحيض. أي ان عدتهن جميعا ثلاثة اشهر عند تطليقهن. المترجمون (٢) وهذا خطا ايضا لان الطلاق ينفذ على المطلقة انتهت عدتها ام لم تنته . ولكن عدتها في حال الحمل لا تنتهي الا بعد وضعها . المترجمون .

فما هي الافكار التي نحصل عليها بعيداً عن النصوص المقدسة ، وتلهمنا بها هذه الموضوعات التي عالجها الكتابان المقدسان وفقا للمعارف الحديثة ؟

موازنة بين القرآن والاناجيل والمعارف الحديثة

ينبغي ان نلاحظ اولا لدى الموازنة بين القرآن والاناجيل انه ما من موضوع من موضوعات الاناجيل اثار انتقادات من وجهة نظر العلم — والتي ذكرناها في الجزء الثاني من هذا المؤلف — قد ذكر في القرآن . فعيسى في القرآن ، موضوع احاديث كثيرة منها : اخبار عمران بولادة ابنته مريم ، واخبار مريم بولادتها المعجزة لعيسى . وطبيعة عيسى كرسول وضع في المرتبة الاولى بين الجميع (1) وله وصف المسيح ، والوحي الذي خاطب به الناس وصدق به التوراة وعدلها . ثم ارشاده ، وحواريه ، والمعجزات وارتفاعه اخيرا الى الله ، ودوره في اليوم الآخر .

لقد خصصت السورة ٣ من القرآن والسورة ١٩ [التي تحمل اسم مريم] مقاطع طويلة لآل عيسى ، تروي طهارة والدته مريم ، وصباها ، واخبارها بامومتها العجيبة . فعيسى مدعو دوما في القرآن « ابن مريم » ونسبه اساسا لوالدته كما هو منطقي لانه لا أب له في الحياة . وبهذا يفترق القرآن عن انجيلي متى ولوقا ، اللذين — كما سبق وعرفنا — جعلا نسب عيسى متصلا باجداده من ناحية الذكور .

لقد وضع القرآن عيسى من خلال نسبه الامومي على خط نوح وابراهيم ووالد مريم [عمران كما هو في القرآن] . سورة ٣ آية ٣٣ — ٣٤ « ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض » .

وهكذا فان عيسى هو من نسل نوح وابراهيم عبر والدته مريم ووالدها عمران . ولا توجد في القرآن اخطاء الاناجيل الاسمية المتعلقة بنسب عيسى ، واستحالات النظام النسبي الذي لدى العهد القديم فيما يتعلق بنسب ابراهيم الذي درسناه في الجزء الاول والثاني من هذا الكتاب.

بل ان الموضوعية لتفرض علينا أن نسجل هذا الواقع الذي يتخذ كل اهميته بوجه تأكيدات اولئك الذين يدعون دونما سند أن محمدا كاتب القرآن ، وانه قد توسع بالنقل عن التوراة . اننا نتساءل هنا عن الحجة

---

(1) حقا ان الرسل متفاضلون لقوله تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » وافضلهم محمد صلى الله عليه وسلم لقوله صلى الله عليه وسلم « انا اكرم الاولين والاخرين ولا فخر » اي لا اقول ذلك فخرا بل تحدثا بالنعمة . ويليه بالفضل ابراهم ثم موسى ثم عيسى ثم نوح عليهم السلام . وهؤلاء هم اولو العزم من الرسل ومن بعدهم تاتي مكانة الانبياء ، ثم جبريل ثم ميكائيل ثم الاولياء من البشر ثم عوام الملائكة . المترجمون .

وعمن صرفه عن ان ينسخها ، على الاقل فيما يخص نسب عيسى ، ليدرج في القرآن بدلا منه التصحيح الذي جعل نصه بعيدا عن كل انتقاد يثار من المعارف الحديثة . بينما نصوص الاناجيل بالمقابل ونصوص العهد القديم هي من هذه الزاوية غير مقبولة ابدا ؟!

موازنة بين القرآن والعهد القديم والمعارف الحديثة

لقد سبق وعالجنا بعض الصور من هذه الموازنة مع العهد القديم ، كما كان موضوع خلق العالم حسبما هو وارد في التوراة هدف دراسة نقدية في الجزء المخصص من هذا الكتاب للعهد القديم . والموضوع نفسه قد حلل في المقطع المعطى من الوحي القرآني . وقد عقدت المقارنات في هذا الموضوع ولم يعد من مجال للعودة اليه .

ان المعارف التاريخية هي كما يبدو كثيرة الاختلاط . وان معطيات الاثار هي من النقص بحيث لا يتيسر معها عقد موازنات في ضوء المعارف الحديثة في مسائل تتعلق بملوك اسرائيل ، محور الروايات المشتركة بين القرآن والتوراة .

أما بالنسبة الى الانبياء فيمكننا تناول هذه المسائل مع معطيات المعارف الحديثة . وبنسبة ما يكون للاحداث المروية [او لا يكون] من ترجمة تاريخية تركت [او لم تترك] اثارا وصلت الينا .

هناك موضوعان كانا هدف روايات مشتركة بين القرآن والتوراة جديران باجتذاب انتباهنا ، وان يدرسا في ضوء معارف زمننا . وهما :

ا ـ الطوفان .

ب ـ خروج موسى .

اما الاول فلانه لم يترك في تاريخ المدنيات العلامات التي تتضمنها رواية التوراة . في حين أن المعطيات الحديثة لا تثير انتقادات في وجه الرواية القرآنية .

واما الثاني فلان الرواية القرآنية والرواية التوراتية تبدوان في الخطوط العريضة مكملة الواحدة منهما للاخرى ، وان المعطيات الحديثة تبدو حاملة لاحداهما كما للاخرى مستندا تاريخيا هاما .

٢ ـ الطوفان

تذكير بالرواية التوراتية

والانتقادات التي اثارتها .

ان تحليل رواية الطوفان في الجزء الاول من هذا الكتاب كما هي واردة في العهد القديم ساق الى الملاحظات التالية : ليس في التوراة رواية واحدة للطوفان ، بل روايتان كتبتا في عصور مختلفة :

١ ـ الرواية اليهوية . وهي تعود الى القرن التاسع قبل المسيح .

٢ ـ الرواية الكهنوتية . وهي تعود الى القرن السادس قبل المسيح .

وقد سميت بهذا الاسم لانها كانت من عمل كهنة ذلك العصر .

هاتان الروايتان ليستا موجودتين الواحدة بجانب الاخرى . بل هما متداخلتان . عناصر أحدهما مدرجة بين عناصر الاخرى ، مع تعاقب فقرات عائدة لمرجع ، وفقرات اخرى عائدة لمرجع آخر . ويظهر شراح ترجمة سفر التكوين الموضوعة من قبل الاب دي فو الاستاذ في المدرسة التوراتية في القدس التوزع الكامل لهذه الفقرات بين المرجعين ، تبدأ الرواية وتنتهي بفقرة يهوية . عشر فقرات يهوية توجد في المجموع . بين كل واحدة منها تدرج فقرة كهنوتية [فتكون تسع فقرات كهنونية في المجموع] .

هذا التلوين في هذه النصوص لا يحقق الانسجام في صورة تتابع الاحداث ، لان بين المرجعين تناقضات فادحة . وقد كتب الاب دوفو بانهما « تاريخان لمصيبة الطوفان وقعت بحسبهما من عوامل مختلفة وفي فترة زمنية مختلفة حمل فيها نوح في السفينة عددا مختلفا من الحيوانات » .

فالرواية التوراتية للطوفان بمجموعها في ضوء المعارف الحديثة غير مقبولة لسببين :

أ — ان العهد القديم يصفه بأنه طوفان عالمي .

ب — وانه في نفس الوقت الذي لا تحدد له الفقرات ذات المرجع اليهوي تاريخا ، نرى الرواية الكهنوتية على العكس تحدد له زمناً في عصر لا يمكن أن يقع فيه طوفان من هذا الطراز .

والبراهين التي تسند هذا الراي هي التالية :

تؤكد الرواية الكهنوتية بأن الطوفان وقع ولنوح من العمر ستمئة سنة . وقد علمنا من خلال الانساب في الفصل الخامس لسفر التكوين [من المصدر الكهنوتي — هي ايضا — والتي نقلت في الجزء الاول من هذا الكتاب] بأن نوحا قد ولد في سنة الف وست وخمسين بعد آدم ، الامر الذي نستخلص منه ان الطوفان كان سنة الف وستمئة وست وخمسين بعد خلق آدم . ومن ناحية ثانية ، فان لائحة نسب ابراهيم الموضوعة في سفر التكوين [١١ ، ١٠ — ٣٢] حسب افادة المصدر نفسه ، تسمح بأن نقدر بان ابراهيم ولد سنة مئتين واثنتين وتسعين بعد الطوفان . واذا كنا نعلم بان ابراهيم كان يعيش حوالي الف وثمانمئة وخمسين قبل المسيح ، فالطوفان اذن ، حسب التوراة ، كان في القرن الواحد والعشرين او الثاني والعشرين قبل المسيح . هذا الحساب متفق تماما مع اشارات التوراة القديمة ، التي كانت تظهر فيها هذه التحقيقات التاريخية في وضع لائق قبل النص التوراتي ، في فترة كان غياب المعارف الانسانية في هذا الموضوع ،

يجعل المعطيات التاريخية التوراتية ، بسبب عدم وجود الأدلة المقابلة ، مقبولة دونما نقاش من قرائها (١) .

فكيف يمكن ان نتصور اليوم ، بأن طوفانا عالميا هدم الحياة على وجه الارض كلها [باستثناء ركاب السفينة] في القرن الحادي والعشرين او الثاني والعشرين قبل المسيح ، وفي نفس هذا العصر ، كانت قد ازدهرت في عدة جهات من الارض مدنيات ، انتقلت آثارها الى الاجيال اللاحقة ؟ ! لقد كانت هذه الفترة بالنسبة الى مصر مثلا الفترة المتوسطة التي أعقبت نهاية الامبراطورية القديمة ، وكانت بها بداية الامبراطورية المتوسطة . أما وقد تأكدنا مما نعرفه عن تاريخ هذه الحقبة ، فان من المضحك دعم من يقول بأن الطوفان هذا ، قد انهدمت به كل المدنيات اذ ذاك .

وهكذا يمكننا من وجهة النظر التاريخية ، ان نؤكد بأن رواية الطوفان كما تنقلها التوراة متناقضة تناقضا صريحا مع المعارف الحديثة . ووجود هاتين الروايتين ، هو الدليل الواضح على تلاعب الناس بالكتابات المقدسة .

الروايات القرآنية للطوفان :

يعالج القرآن القضية بطريقة مجملة مختلفة لا تثير الانتقادات من وجهة النظر التاريخية . انه لا يسرد للطوفان قصة متتابعة . وانما يتكلم في عدد من سوره عن العقاب الاليم لقوم نوح . والرواية الاكثر كمالا فيه، هي التي في السورة ١١ والآيات ٢٥ — ٤٩ منها ، والسورة ٧١ التي تحمل اسم نوح ، وتثير بخاصة ارشاده ونصحه لقومه كما هو دأب الآيات ١٠٥ حتى ١١٥ من السورة ٢٦ . ولكن قبل مواجهة تتابع الوقائع المتحدث عنها ، ينبغي تحديد مكان الطوفان كما يسرد قصته القرآن بالنسبة الى السياق العام للعقوبات التي انزلها الله على المجموعات الخاطئة ، لنقضها أوامره بصورة خطرة .

وفي الوقت الذي تتحدث التوراة فيه عن طوفان عالمي ، لمعاقبة كل الانسانية الكافرة ، يذكر القرآن على العكس عدة عقوبات أنزلت على مجموعات محددة . والآيات ٣٥ — ٣٩ من السورة ٢٥ توضحها في : « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه اخاه هارون وزيرا فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا.وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية واعتدنا لهم عذابا اليما.وعادا وثمود واصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا . وكلا ضربناه له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا » .

---

(١) منذ ان كنا نملك بعض التعاليم عن تاريخ الازمان القديمة ، وان هذه الاهواء التاريخية للكتاب الكهنوتيين للعهد القديم لم تعد ذات قدرة على التحديد . فقد تحمس الناس لحذفها من التوراة . ولكن الشراح المحدثين لهذه الانساب الذين حفظوها لم يلفتوا انظار قراء الكتب المنتشرة الى الاخطاء التي تحتويها .

وفي الآيات ٥٩ الى ٩٣ من السورة ٧ تذكير بالعقوبات التي أصابت قوم نوح وعاد وثمود وسدوم ومدين ، كلا على حدة .

وكذلك يبرز القرآن أن كارثة الطوفان كانت عقابا اعد بخاصة لقوم نوح . وهذا يؤلف المخالفه الاساسية الاولى بين الروايتين . اما المخالفة الثانية الاساسية ، فهي ان القرآن على العكس من التوراة ، لا يركز الطوفان في وقت محدد ، ولا يعطي اية اشارة لمدة دوام الكارثة بالذات .

بيد أن اسباب الطوفان على وجه التقريب واحدة في الروايتين . تذكر منها الرواية الكهنوتية للتوراة [٧ ، ١١ سفر التكوين] اثنين مندمجين « في ذلك اليوم انفتحت ينابيع الوديان وسحب السماء » وقد اكدهما القرآن في الآيتين ١١ — ١٢ من السورة ٥٤ « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر » .

والقرآن صريح فيما يتعلق بمحتوى السفينة ، اذ قد أمر الله نوحا بأن يحمل فيها من كتيبته النجاة من كارثة الطوفان .

سورة ١١ آية ٤٠ « قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول منهم ومن آمن وما آمن معه الا قليل » والشخص الذي استثني في الامر ، وهو ابن ملعون لنوح ، تحدثنا في امره الآيتان ٤٥ — ٤٦ من نفس السورة وتعلمنا بان رجاءات نوح لصالحه لدى الله لم تغير القرار .
ويذكر القرآن ان نوحا قد حمل معه في السفينة بالاضافة لاسرته باستثناء ولدها اللعين الذين آمنوا معه بالله وكانوا قلة .

والتوراة لا تأتي على ذكر هؤلاء الآخرين بين الذين ركبوا في السفينة وتبرز في الواقع ثلاث روايات عن محتوى السفينة .

— حسب الرواية الكهنوتية : نوح واهله دونما استثناء وزوج من كل نوع .

— فرقت الرواية اليهوية بين الحيوانات الطاهرة والطيور من جهة ، وبين الحيوانات النجسة من جهة أخرى [وذكرت ان السفينة حملت من الاوائل سبعة من كل نوع من ذكر وانثى (١) وزوجا واحدا من الأخريات] .

— وحسب آية يهوية معدلة [٧ ، ٨ سفر التكوين] حملت زوجا من كل نوع طاهر أو نجس .

هذا وليس بين رواية الطوفان الواردة في السورة ١١ في الآيات ٢٥ — ٤٩ منها والسورة ٢٣ آيات ٢٣ — ٣٠ ، ورواية التوراة اختلافات معنوية خاصة .

---

(١) الم يكن معنى الرقم ٧ سبعة حشد كبير ، كما كان المفهوم رائجا في تلك الزمان ؟!
الجواب في نظر الاسلام مأخوذ من القرآن نفسه الذي يقول انه حمل معه المؤمنين فقط وانه ما آمن معه الا قليل المترجون .

وتروي التوراة ان الجبل الذي استوت عليه سفينة نوح هو «ارارات» بينما يذكر القرآن بانه جبل الجودي [سورة ١١ آية ٤٤] مع العلم ان الجودي ذروة جبال ارارات في ارمينيا . ولكن لا شيء يثبت أن الناس لم يمارسوا تغييرات في الاسماء لتوافق الروايتين . ويؤكد ذلك [ر. بلاشير] الذي يرى ان هناك سلسلة جبال لها اسم جودي في العربية . ويمكن ان تكون هذه الموافقة في الاسماء من صناعة الناس .

وفي النهاية ، فان هناك خلافات هامة بين روايات القرآن وروايات التوراة ، لا يخضع بعضها للنقد لعدم توفر المعطيات الموضوعية . ولكننا عندما نجتهد في تحقيق اخبار الكتب المقدسة بمساعدة المعطيات الاكيدة ، فان عدم مطابقة الرواية التوراتية — في تحديدها وقت الطوفان ومدة دوامه — لما حصلته المعارف الحديثة واضح كل الوضوح . بينما تثبت الرواية القرآنية بالمقابل براءتها من كل عنصر يبتعث الانتقاد الموضوعي . وهل استحصل الناس بين عصري رواية التوراة ورواية القرآن على معلومات توضح مثل هذا الحادث ؟ بالتاكيد كلا . لان الوثيقة الوحيدة التي كانت بين يدي الناس ما بين العهد القديم حتى ظهور القرآن عن هذا التاريخ كانت هي التوراة بالذات .

ولئن عجزت عوامل انسانية عن تفسير المتغيرات في الروايات المؤثرة في معنى التوافق مع المعارف الحديثة ، فانه ينبغي قبول تفسير آخر . انه وحي آخر لاحق لما هو في التوراة .

٣ — خروج موسى

بخروج موسى وقومه من مصر ، وهي الخطوة الاولى لاستقراره في ارض كنعان ، ندنو من حادث ذي اهمية اساسية ، حادث تاريخي اكيد يندرج في سياق معروف رغم الاحتجاجات التي نجدها من هنا ومن هناك وتميل الى ان تضفي عليها صفة اسطورية .

ويشكل سفر الخروج في العهد القديم ، مع قصة السير في الصحراء بعد الخروج من مصر ، والميثاق الذي وثقه الله في جبل سيناء ، الكتاب الثاني من الاسفار الخمسة والتوراة . وينزله القرآن طبعا منزلة عظمى .

وقصة اتصالات موسى واخيه هارون مع فرعون ، وقصة الخروج من مصر نفسها ، موجودة في اكثر من عشر سور منه مع اخبار طويلة كما في السورة ٧ ، ١٠ ، ٢٠ ، ٢٦ . او اخبار اكثر اختصارا وتركيزا او تذكيرات قصيرة . واسم فرعون — وهو شخصية اساسية لدى المصريين — وارد في القرآن اربعا وسبعين مرة في سبع وعشرين سورة ما عدا الخطأ .

ودراسة الروايتين القرآنية والتوراتية ، توفر لنا نفعا خاصا لانهما هنا خلافا لما رأيناه في حديث الطوفان مثلا متفقتان في الاساس . وبالتأكيد هناك بعض الاختلافات . ولكن الرواية التوراتية لها قيمة تاريخية عظيمة كما سنرى ، لانها تسوق الى طريق تحديد هوية فرعون ، او على الاصح الفرعونين المقصودين . ويأتي القرآن في هذه الفرضية عند منطلق الرحيل التوراتي ناقلا خبرا مكملا . وتنضم الى هذين المصدرين المقدسين معطيات حديثة من التاريخ المصري بحيث نصل من مواجهة القرآن والتوراة ومعارف زمننا ، الى ان نركز ظهور الكتابات المقدسة في سياق تاريخي .

الخروج حسبما هو وارد في التوراة :

تبدأ الرواية التوراتية بذكر دخول اليهود مصر مع يعقوب، لحاقا بيوسف. ثم « يأتي الى السلطة في مصر ملك جديد لا يعرف يوسف » [سفر الخروج ١ — ٨] انها مرحلة البغي والظلم فرض فيها فرعون على اليهود بناء مدينتي بيتوم ورمسيس حسبما تذكر التوراة . ولكي يحول دون انفجار سكاني لدى اليهود، فرض عليهم بأن يلقوا منهم في النهر كل مولود ذكر جديد.

اما موسى فقد خبأته امه بعد ولادته مدة ثلاثة اشهر ، اضطرت بعدها اخيرا ان تعزم على وضعه في سلة من خيزران على ضفة النهر . وهناك اكتشفت بنت فرعون وجوده ، فالتقطته ، وهيأت له حاضنة هي امه بالذات . لان اخته التي قصت اثره لترى من يلتقطه تظاهرت بأنها لا تعرفه ، واشارت على الاميرة بمرضعة كانت هي امه . وقد عامله فرعون كأنه ابنه واعطي له اسم موسى .

وعندما شب موسى ذهب الى مدين ، حيث تزوج واقام فيها طويلا . ونذكر هنا جزئية مهمة هي انه « اثناء هذه المرحلة الطويلة مات ملك مصر » راجع كتاب سفر الخروج [٢ ، ٢٣] .

وامر الله موسى بأن يذهب الى فرعون ، وان يخرج بقومه من مصر ، [خبر هذا الامر موجود في قصة الشجرة الملتهبة] فرافقه هارون في مهمته هذه . ولهذا رأيناه في رجعته الى مصر يعود مع اخيه الى فرعون خليفة ذاك الذي كان قد ولد في عهده من قبل .

ولما رفض فرعون طلب مجموعة اليهود اتباع موسى بان يبرحوا مصر ، اوحى الله الى موسى من جديد وامره بان يعيد على فرعون نفس الطلب . وقد كان لموسى من العمر اذ ذاك حسب افادة التوراة ثمانون عاما . فذهب اليه واظهر له من عجيب ما كان يملك من قدرات معجزة . ولكن ذلك لم يكف . فأرسل الله على مصر الابتلاءات المعروفة : بدل مياه الانهار الى دم . وسلط عليهم الضفادع والبعوض، وذباب الحيوانات وموت القطعان وظهور الدمل على جلود الناس والحيوانات ، والبرد ، والجراد ، والظلمات

وموت أوائل المواليد . ومع ذلك فقد ظل فرعون يرفض السماح لليهـــود بالرحيل .

ولذلك فقد فروا من مدينة رمسيس في عدد يبلغ ستمئة الف رجل ما عدا عائلاتهم [سفر الخروج ١٢ ، ٣٧] فما كان من فرعون الا ان « جهز عربته وقاد جيشه . واخذ معه ستمئة من أحسن عرباته وكل عربات مصر ، محملة بالجنود . وانطلق متتبعا الاسرائيليين . رافعا يده الى العلاء [سفر الخروج ١٤ ، ٦ — ٨] حتى استطاع ان يصل مجموعة موسى على شاطيء البحر . وما ان رفع موسى عصاه حتى انفلق البحر أمامه ، فدخل الناس فيه يسيرون على أرض جافة . وتبعهم المصريون ومعهم كل جياد فرعون وعرباته وفرسانه ودخلوا في الطريق متعقبين آثارهم في وسط البحر » سفر الخروج [١٤،٢٣] وهنا طما البحر وغرق عربات وفرسان كل جيش فرعون الذين دخلوا وراءهم فيه ، ولم يبق منهم أحد » [سفر الخروج ١٤ ، ٢٨ — ٢٩] .

ان نص كتاب سفر الخروج واضح جداً . لقد كان فرعون على راس الملاحقين . ولقد مات . لان كتاب سفر الخروج يؤكد « بانه لم يبق منهـم أحد » وقد عادت التوراة الى تفصيل هذا في مزامير داوود : مزامير ١٠٦ آية ١١ ومزمار ١٣٦ آيتان ١٣ — ١٥ وهي ظاهرة مساعدة « الى الــذي فرق بحر القصب فرقتين والذي أدخل فيه الاسرائيليون وفرعون وجيشه » فليس من شك بان فرعون حسب رواية التوراة في الخروج مات في البحر . ولكن التوراة لا تذكر شيئا عما حصل لجسمه .

الخروج حسب افادة القرآن

تشابه الرواية القرآنية عن الخروج في خطوطها العريضة الروايـــة التوراتية ، ومع ذلك فلا بد من جمع عناصرها المبعثرة في الفقرات العديدة من القرآن .

ولا يذكر القرآن كما لا تذكر التوراة اسم اي شخص يسمح بتحديـــد من كان فرعون الحاكم في فترة الخروج من مصر . وكل ما عرفناه منه ان اسم احد أفراد مجلس استشارته « هامان » وهو الذي ورد اسمه ســت مرات في القرآن [سورة ٢٨ آيات ٦ — ٨ — ٣٨ . وسورة ٢٩ آية ٣٩ سورة ٤ آيات ٢٤ — ٣٦ .

فرعون ظالم اليهود

سورة ٢٤ آية ٦ :

« واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ انجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم » .

والظلم مذكور ايضا في نفس العبارات في الآية ١٤١ من السورة ٧ ولكن القرآن لا يذكر كما فعلت التوراة اسماء المدن التي بناها اليهود المسخرون .

وقصة موسى الملقى على ضفة النهر واردة في السورة ٢٠ الآيات ٣٩ ــ ٤٠ وفي السورة ٢٨ آيات ٧ ــ ١٣ . وتفيد هذه الآيات بأن الذي التقط موسى هم آل فرعون . ففي الآيتين ٨ ــ ٩ من السورة ٣٨ نقرأ :

« فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا . ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امراة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولدا وهم لا يشعرون » .

وفي العرف الاسلامي أن امرأة فرعون التي اعتنت بموسى هي آسية. بينما لا يذكر القرآن بان الذي التقطه امراة فرعون ، بل آله ، اي سكان قصره .

هذا وشباب موسى واقامته في مدين ، وزواجه واردة في السورة ٢٨ والآيات ١٣ ــ ٢٨ .

غير ان القرآن لم يذكر الآفات العشر التي ابتلى الله بها مصر على انها القصاص الالهي كما ذكرتها التوراة طويلا . بل ذكر منها خمسا باختصار شديد [في السورة ٧ آية ١٣٣] وهي الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

وقد سرد القرآن قصة هروب بني اسرائيل من مصر دون ذكر التفاصيل الجغرافية والعددية الواردة في الرواية التوراتية المشكوك فيها . انه يصعب علينا تصور ، كيف يمكن ان يكون لستمئة الف مع عائلاتهم كما تدعيه التوراة اقامة طويلة في الصحراء .

وقد ذكر القرآن موت فرعون في نهاية ملاحقته اليهود فقال :

« فأتبعهم فرعون بجنــوده ، فغشيهم من اليم ما غشيهم » ســـورة ٢ آيـــة ٧٨ .

فنجا اليهود ، وهلك فرعون . وعثر على بدنه . وهو التفصيل المهم جدا الذي لم تأت على ذكره الرواية التوراتية . سورة ١٠ آيات ٩٠ـ٩٢ .

« وجاوزنا ببني اسرائيل البحر ، فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا ادركه الغرق ، قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين. الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية .

هذا النص يجر الى حقيقتين :

أ) البغي والعدوان المذكوران يفهمان بالنسبة لمحاولات الاقتناع التي مارسها موسى لدى فرعون .

ب) ونجاه فرعون تنطبق على بدنه فقط ، لان من المؤكد جدا في الآية ٩٨ من السورة ١١ بان فرعون وصحبه قد ماتوا :

« يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار » .

وهكذا فانه ينبغي القول بان رواية القرآن بالنسبة للاعمال القـابلة للمواجهة مع المعطيات التاريخية والجغرافية والاثرية ، يختلف عن الرواية التوراتية في النقاط التالية :

ـ اغفال القرآن ذكر اسماء المكان وكذلك المدن التي بناها اليهود من قوم موسى وطريق الخروج .

ـ اغفال القرآن ذكر موت فرعون اثناء اقامة موسى في مدين .

ـ اغفال القرآن ذكر معطيات حول عمر موسى عندما خاطب فرعون .

ـ اغفال القرآن تحقيق الارقام في عدد قوم موسى . هذا العدد الذي ضخمته التوراة بحيث اصبح غير معقول [٦٠٠،٠٠٠ وجل وعائلاتهم يمكن ان يشكلوا قريبا من مليوني ساكن] .

ـ اغفال التوراة ذكر ايجاد جسد فرعون بعد موته .

ـ إثبات القرآن ظلم فرعون لقوم موسى .

ـ اغفال الروايتين ذكر اسم فرعون مصر .

ـ اثبات القرآن موت فرعون اثناء الخروج من مصر .

مواجهة معطيات الكتابات المقدسة مع المعارف الحديثة

تمثل الروايات القرآنية والتوراتية المتعلقة باقامة بني اسرائيل في مصر وخروجهم منها ، صورا يمكن أن تكون موضع الجهات مع المعارف الحديثة . والحق يقال انها ليست سواء ، لان منها ما يحمل مجموعة من المسائل ومنها ما لا يوفر مـادة للنقاش مطلقـا .

اختبار بعض التفاصيــل في الروايات

اليهود في مصــر

يبدو انه يمكننا القول ، دون خطر الخطأ الكثير ان اليهود ، طبقا لمــا هو مكتوب في التوراة [سفر التكوين ١٥ ، ١٣ والخروج ١٢ ، ٤٠] اقاموا في مصر طيلـــة اربعمئة سنة او اربعمئة وثلاثين سنة .

وايا ما كان هذا الخلاف بين سفري التكــوين والخروج ، وهو ليس بذي اهمية ، فان اقامتهم بدأت بعد ابراهيم ، مع استيطـــان يوسف بن يعقوب واخوته مصر . ونحن لا نملك اية وثيقة غير التوراة ، يمكــن أن تنورنــا في هذه النقطة ، وتقدم لنا المعلومات التي روتهـــا ، وغير القرآن الذي يذكر هذا الاستيطان دون ان يشير الى اقل اشارة تاريخية .

يرى كل من بيير مونتي ، ودانيال روسي ، حسب ما يقدره العقل ، بأن وصول يوسف واهله اتفق مع رحلة الهكسوس الى مصر حوالي القرن السابع عشر قبل المسيح . وانه في آفاريس من الدلتا كان احــــد ملوك الهكسوس هو الذي استقبل يوسف واخوته استقبالا حسنا .

هذا التقدير ، هو بالتأكيد ، متناقض مع ما يزودنا به اول كتاب سفر الملوك في التوراة [٦ ، ١] الذي يحدد زمن الخروج من مصر بسنة ٤٨٠ قبل بناء هيكل سليمان [نحو ٩٧١ قبل المسيح] وهذا التقدير يضع الخروج اذن تقريبـــا نحو سنة ١٤٥٠ قبل المسيح ، وبالتـــالي يكون الدخول نحو ١٨٥٠ — ١٨٨٠ وعليه فان هذا هو على التحقيق ، العصر الذي عاش فيه — كما نظن — ابراهيم الذي ينبغي أن يكون بينه وبين يوسف ، حسب معطيات اخرى للتوراة قريب من مئتين وخمسين سنة . وهذا المقطع من الكتـــاب من سفر الملوك من التوراة هو اذن مرفوض تاريخيا(١) وسنرى بان النظرية المدعومة هنا لا نرى ما يناقضها الا هذه المعارضـــة المستخرجـــة من هذا الكتاب . غير أن عدم صحة هذه المعطيات التاريخية البارزة ، ينتزع كل ما لدى هذه المعارضة من قيمة . ان مـــاتركه اليهود كأثر لاقامتهم في مصر مبهم جـــدا اذا استثنينا معطيات الكتابات المقدسة . على انه يوجد بعض الوثائق الهيروغليفية ، تذكر وجود مجموعة من العمال يدعون الآبيروس أو الهابيرو أو الهابيري ، حددت هوياتهم صـــوابا او خطأ بانهم اليهود . ولقد اطلقت هذه العبـــارة على عمال البناء أو فلاحين او قاطفي العنب . فمن اين جاؤوا ؟ ان من العســـير جدا الاجابة على هذا السؤال كما يقول الاب دوفو « انهم ليسوا من المواطنين المحليين ولا ينتمـــون الى احدى طبقات المجتمع ، وليس لهم جميعا نفس العمل ونفس النظام » .

---

(١) سوف نعود للتحدث عما ينبغي التفكير فيـــه مع الاب دوفو عن هذه الدراســـة لاول كتاب سفر الملوك .

يذكرهم مخطوط من البردى ، يرجع الى ايام تحوتمس الثالث كأنهم « اناس اسطبل » ونحن نعلم بان امينوفيس الثاني حوالي القـــرن الخامس عشر قبل الميلاد اقتاد منهم ٣٦٠٠ (ثلاثة الاف وستمئة) كمساجين آتين من ارض كنعان . وكانوا يؤلفون كما كتب الاب دوفو جزءا بارزا من شعب سوريا ـــ فلسطين وحوالي ١٣٠٠ قبل المسيح ، وفي عهد سيتي الاول ، اثار هؤلاء الآبيروس انفسهم قلاقل في ارض كنعان في منطقة بيت شان . وفي عهد رمسيس الثاني استعمل منهم كمقالعين للحجارة ، او في نقل الاوتاد لاشغال فرعون [عامود كبير لرمسيس ميامون] ونعلم من التـــوراة ان اليهـــود بنوا في عهد رمسيس الثاني مدينة رمسيس عاصمة الشمال . وفي الكتابات المصرية ورد ذكر الآبيرو في القرن الثانـــي عشر وللمرة الاخيرة في عهد رمسيس الثالث .

بيد ان الأبيرو قد ذكروا في غير مصر . فهل تنطبق هـــذه التعابيـــر على اليهود وحدهم ؟ ولعل ثمة مـــا يذكر بان الكلمة يمكن أن تعني ابتداء عمالا مسخرين دون معرفة منشئهم ، وبالتالي يكون قد استعمل هذا التعبير كوصف مهني . اليس من حقنا أن نقارن هذا مع المعاني المختلفة التي تدل عليها كلمة Suisse في اللغة الفرنسية حيث تستعمل مثلا بمعنى ساكن في سويسرا ، وبمعنى جندي سويسري في الجيوش الملكية الفرنسية ، او حارس في الفاتيكان ، او عامل في الكنيسة المسيحية ؟ !

ومهما يكن من امر ، فقـــد ساهم اليهود في عهـــد رمسيس الثـــاني [حسب افادة النصوص الهيروغليفية] في الاعمال العظيمة التي امر بها فرعون . ويمكن القول في اعمـــال سخروا بها . ولا نرتـــاب مطلقا بان رمسيس الثاني هذا كان ظالم اليهود . ومدن رمسيس والبيتوم المذكورة في سفر الخروج موجودة في المنطقة الشرقية من دلتا النيل ، وتنيس وكانتيـــر الحاليتان الموجودتـــان على بعد خمســـة وعشرين كيلومترا الواحـــدة من الاخرى ، تجيب على هاتين المدينتين القديمتين . فهناك كانت عاصمةالشمال التي بناها رمسيس الثاني . فرمسيس الثاني هو فرعون الظالم .

في هذه الظروف ولد موسى . وقد رأينا قبل نجاته من ميـــاه النهر . واسمه مصري . ابرز هذا بيير مونتي في كتابه « مصـــر والتوراة* » ميزو او ميزي هما في لائحة معجم اسماء الاشخـــاص في اللغة الهيروغليفية . وموسى كانت هي الكلمة التي تحولت الى العربية كما ذكرها القرآن .

ابتلاءات مصر

تحت هذا العنوان ذكرت التوراة العقوبات العشر التي ابتلى الله بها المصريين ، واوردت عن كل واحدة منها كثيرا من التفاصيل . وللبعض منها سمة وبعد المعجزات . وقد عدد منها القرآن خمسا فقط ؛ ليست في نظر الغالبية الا احداثا طبيعية مغالى فيها . وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم(١) .

ولقد ذكرت التوراة تكاثر الجراد والضفادع . وتكلمت عن ماء الانهار الذي انقلب دما ، واغرق البلد بكاملها ، في الوقت الذي ذكر فيه القرآن الدم ، عاريا من اي تفصيل . ويمكننا ان نفترض بمناسبة هذا الدم الفروض كافة .

اما انواع البلاء الاخرى [كالبعوض ، وذباب الحيوانات ، والدمل ، والبرد ، والظلمات ، وموت أوائل المواليد من الناس والحيوانات] التي وصفتها التوراة ، فانها تعود الى أصول مختلفة كما كان حال رواية الطوفان المؤلفة من مواد مجموع بعضها الى بعض من مصادر متعددة .

طريق الخروج

ولم يحدد القرآن اي طريق للخروج . بينما ذكرت له التوراة طريقا بكثير من الجزم . وقد درسه كل من الاب دوفو ومونتيه ، وبينا أن المنطلق قد يكون من تنيس كانتير . بيد انهما لم يجدا لبقية الطريق اثارا توافق الرواية التوراتية . ولم يكن بالامكان معرفة الموضع الذي انفرق فيه البحر ليسهل على موسى واصحابه تجاوزه .

معجزة البحر

تصور البعض تيارا مائيا كاسحا كان نتيجة اسباب فلكية أو زلزلات ارضية متصلة بثورة بركانية بعيدة .

---

(١) انها ليست في نظرنا كذلك ، بل آيات معجزات حصلت على يدي موسى تأييدا له ودعما لرسالته . المترجمون .

وقد استفاد اليهود في تلك الاثناء من انحسار البحر ، بينما هلك المصريون المندفعون وراءهم لملاحقتهم اذ وصلوا في الوقت الذي كان فيه موج البحر يعود الى امتداده . وهذا مجرد افتراض(٢) .

تحديد زمن الخروج في التاريخ الفرعوني

ويمكننا باسلوب مقبول ، الوصول الى معطيات ايجابية فيما يتعلق بتحديد الخروج زمنيا ..

لقد قدر البعض ، منذ تاريخ بعيد ، أن منفتاح خليفة رمسيس الثاني كان فرعون الخروج . . الم يكتب « ماسبيرو » المؤرخ الشهير في مطلع هذا القرن سنة ١٩٠٠ في كتابه « دليل زائر متحف الاثار في القاهرة » ان منفتاح « هو بموجب تقليد اسكندري الاصل ، فرعون الخروج الذي هلك — كما يقال — في البحر » ولكن رغم اني لم استطع العثور على الوثائق التي اعتمد عليها « ماسبيرو » في زعمه هذا ، فان جديته تفرض بأن نعلق على ما اكده أهمية كبرى .

واذا وضعنا « بيير مونتي » جانبا ، فان علماء الاثار المصرية ، أو المتخصصين من شراح التوراة المحدثين الذين بحثوا عن الادلة التي قد تكون في مصلحة هذه النظرية او ضدها قليلون جدا . وقد شاهدنا على العكس في العشرات السنين الاخيرة هذه ، تفتح نظريات مختلف بعضها عن بعض ، لم ينشئها كتابها كما يبدو ، الا لغرض تأمين التوافق مع أحد تفصيلات روايات الكتابات المقدسة دون الاشتغال بالبحث عن وجوهها الاخرى . وهكذا نرى كيف تتحرك هذه الفرضية او تلك ، التي تبدو متفقة مع وجه من وجوه رواية ما ، دون ان يكون كاتبها قد اهتم بان يقابلها مع جميع المعطيات الاخرى للكتابات المقدسة [ليس فقط بالتالي مع التوراة] وفي نفس الوقت مع جميع المعطيات المكتسبة تاريخيا واثريا .

ومن الفرضيات الاكثر طرافة التي ظهرت ، نظرية J. de Miceli سنة ١٩٦٠ الذي ادعى بانه قد وصل الى تحديد الخروج حتى باليوم . وهو التاسع من ابريل سنة ١٩٤٥ قبل المسيح . وهذا بواسطة حسابات الروزنامة فقط . وان تحوتمس الثاني ، وقد حكم اذ ذاك في مصر هو بالنسبة اليه فرعون الخروج ، وذلك بالتأكيد . لان مومياءه قد وصفت ببعض القروح الجلدية التي يصفها الكاتب — لا ندري لماذا — بالجذام . وان أحد الابتلاءات المصرية التي روتها التوراة كانت الدمل . هذا التركيب المدهش لا يعير أي حساب للوقائع الاخرى للرواية التوراتية ، وبخاصة ذكر مدينة

---

(٢) اما نحن المسلمين فعقيدتنا الصريحة هي ان انفراق البحر كان معجزة لموسى ايده الله بها لينقذ قومه ويخزي عدوه فرعون وجنده . المترجمون .

رمسيس ، التي تحمل كل افتراض في توقيت الخروج من مصر قبل حكم رمسيس ، متقادما او باليا .

أما فيما يتعلق بالطفح الجلدي ، الظاهر على تحوتمس الثاني ، فلا مجال لاتخاذها دليلا على انه هو فرعون الخروج ، لان هذا الطفح الجلدي يظهر ايضا على ابنه تحوتمس الثالث (١) وحفيده امينوفيس الثاني . ومن اجل هذا اثار بعض الكتاب فرضية وجود مرض عائلي ، الامر الذي يجعل فرضية تحوتمس الثاني غير جديرة بان يدافع عنها .

ومثل ذلك يقال بالنسبة لفرضية « دانييل روبس » في كتابه شعب التوراة(٢) التي تنسب الى امينوفيس الثاني دور فرعون الخروج . لانها كما يبدو ليست اكثر تدعيما من السابقة . وبحجة ان اباه تحوتمس الثالث كان شديد الوطنية اعلن « دانييل روبس » امينوفيس مضطهدا لليهود ، وان زوجة ابيه « حتشبسوت » هي التي استقبلت موسى . ولكن دون ان تدري لماذا .

على ان الاب دوفو اقام نظريته في رمسيس الثاني التي درسها في كتابه تاريخ اسرائيل (٣) القديم على قاعدة اقوى . لانها وان كانت لا تتفق مع الرواية التوراتية في كل نقاطها ، غير ان لها على الاقل فضل تحسين وضع معطى اساسي : بناء مدينتي رمسيس وبيتوم المذكورتين في التوراة في حكم رمسيس الثاني ، الامر الذي يوجب رفض التقدير بان الخروج كان سابقا على جلوس رمسيس الثاني على عرش الملك . هذا الجلوس الذي تجدد موقعه حسب تاريخ « دريوتون » و « فانديبه » سنة ١٣٠١ قبل المسيح ، وحسب تاريخ « راوتون » في سنة ١٢٩٠ قبل المسيح . وهكذا فان النظريتين الاخريين المذكورتين سابقا هما غير مقبولتين بسبب هذا الامر الحتمي . رمسيس الثاني هو فرعون الاضطهاد الذي تتكلم عنه التوراة .

هذا وان الاب دوفو ، يرى بان الخروج ، قد وقع في النصف الاول ، و نحو الوسط من حكم رمسيس الثاني . وهذا التحديد ليس دقيقا . فهو يشير به على حد قوله ، يريد ان يمنح جماعة موسى الوقت الذي به يستطيعون استيطان ارض كنعان . ولفرعون منفتاح خليفة رمسيس الثاني الذي اضطر بان يضع انظمة للحدود عند موت والده ليجعل بني اسرائيل يقفون على اقدامهم كما تشهد بذلك المسلة من السنة الخامسة من حكمه .

---

(١) هذا الطفح مرئي تماما على مومياء هؤلاء الفراعنة في المتحف المصري في القاهرة.

2 p Deselée de Browner 1970

3 p I Galalda et Cie 1971

رمسيس الثاني فرعون الاضطهاد ومنفتاح هو فرعون الخروج

وقد تناول «بيير مونتي» بكثير من الذكاء العرف الدائي الاسكندري(١) المذكور من « ماسبيرو » والذي سنلمحه كثيرا فيما بعد في العرف الاسلامي كما نجـده في العرف المسيحـي الكلاسيكي(٢) وعـززه في كتابه [مصـر والتوراة] بادلة مكملـة بخاصة ما حملته الرواية القرآنيـة التي لم يشر اليها هذا العـالم الاثري الشهير بأية اشـارة . ولنعد قبـل التعرض لها الى التـوراة .

في سفر الخروج ذكر كلمة « رمسيس » دون ان تسبقه كلمة فرعون . ورمسيس في التوراة هو اسم احدى المدينتين المذكورتين على انهما اللتان بناهما اليهود سخرة . ونحن نعلـم اليوم بأن هاتين المدينتين هما تابعتان لمنطقة تنيس كانتر في الجهة الشرقية من دلتا النيل ، حيث بنى رمسيس الثاني عاصمته في الشمال . وقد كان بالتأكيد في هذه المنطقة أبنيـة سابقة على رمسيس الثاني . غير انه يعود اليه انه جعل لها موقعا هاما . وقد حملت الحفريات المباشرة في العشرات السنين الاخيرة عنها البرهان الواضح بانه سخر لبنائها اليهود المستعبـدين .

وقراءة كلمة رمسيس في التوراة لا تفـاجىء الفكر في أيامنا ، لانهـا اشتهرت منذ اكتشف « شامبليون » مفتاح الهيروغليفية [منذ قرن ونصف] وهو يدرس الصفات الاساسية التي توضحها . وقد اعتـاد البعض علـى قراءتها حاليا ، والنطق بها ، مع معرفة ما تعنيه . ولكن ينبغي أن ندرك بأن المعنى الهيروغليفي قد فقد تقريبا في القرن الثالث من العهد المسيحي ، وان اسم رمسيس لم يكن محفوظا مطلقا الا في التـوراة ، وبعض الكتب اليونانية واللاتينية التي حرفته بعض الشيء . ولهذا فان «تاسيـت » في اخباره يتكلم عن رعمسيس . امـا التوراة فقد احتفظـت، بالاسم صحيحا وذكرته أربع مرات في الاسفار أو التوراة [سفر التكوين ٤٧ ، ١١ سفر الخروج ١ ، ١١ ، ١٢ ، ٣٧ ، عدد ٣٣ ، ٣ ، ٣٣ ، ٥] .

والتوراة العبرية تكتب كلمـة رمسيس بطريقتـين RAemss و RAeamss (٣) والتوراة المسماة السبعية في طبعتهـا اليونانيـة تكتب راعمسيس RAmsse . والتوراة اللاتينية تكتبها رعمسيس .

---

(١) لا شك ابدا بانـه في عصر بطليموس المجيد كان الناس يملكون في الاسكندرية ، قبل خراب غزو الرومان ، وثائق تاريخية عن العهود القديمة .

(٢) في التاريخ المقدس حتى مطلع القرن العشرين كما في تاريخ H. lesetre الهادف الى التعليم المدني ذكر الخروج كحادث في عهد منفتاح .

(٣) الحرف « e » يعبر عن العين العبرية .

وفي طبعة التوراة الكليمانتية بالفرنسية [الطبعة الاولى ١٩٢١] كتبت الكلمة ايضا رعمسيس . وقد كانت هذه الطبعة الفرنسية منتشرة في عهد اعمال « شامبليون » الذي يتحدث عن الطريقة التوراتية لكتابة الكلمـــة في تحقيقه النظـــام الهيروغليفي للمصريين القدمـــاء [الطبعة الثانية ١٨٢٨ صفحـــة ٢٧٦] .

وهكذا فان التوراة قد احتفظت بالكلمة بصورة مدهشة في نصوصها العبرية واللاتينية واليونانية(١) والمعطيات التي سبقت تسمح لنفسها فقط بأن تثبـــت :

أ ــ ان الخروج لا يمكن تصوره قبل استلام رمسيس ايا كان السلطة في مصـــر .

ب ــ ان موسى قد ولد في عهد بانى المدينتين : « رمسيس وبيتوم » ويعني هذا في عهد رمسيس الثاني .

جـ ــ ان رمسيس الثاني قد مات عندما كان موسى في مدين . وعليه فان القسم الثاني من تاريـــخ موسى في مصر تتابـــع في عهد خلف رمسيس الثاني اي منفتـــاح .

هذا وان في التوراة فوق ذلك ، عنصرا هو من الاهمية بمكان في تحديد الخروج في التاريخ الفرعوني . وهـــو الخبر بان عمر موسى كان ثمانين سنة ، عندما جـــاء بأمر الله ، يحاول الاستحصـــال من فرعون على تحرير اخوانه « لقد كان عمر موسى ثمانين سنة وهرون ثلاثا وثمانين سنة عندما كلما فرعون » [سفر الخروج ٧ ، ٧] وعليه فان التوراة تعلمنا [سفر الخروج ٢ ، ٢٣] أن فرعون الذي ولد موسى في عهده ، مات أثناء اقامة موسى في مدين . مع ان الرواية التوراتية تتابع دون ذكر اي تغيير باســـم الحاكم . وهذان النصان من التوراة يتضمنان ، ان مدة حكم الفرعونين اللذين عاش موسى في مصر في عهدهما ، ينبغي ان تكون ثمانين سنـــة على أقل تقـــدير .

ونحن نعلم بأن رمسيس الثاني حكم سبعا وستين سنة [من ١٣٠١ — ١٢٣٥] حسب تاريخ « دريوتون » و « فانديه » اوما بين[١٢٩٠ ؟ ١٢٢٤] حسب تاريخ « راوتون » والعلماء في التاريـــخ المصري لم يستطيعوا ان يحصلوا بالنسبة لفترة ملك خلفه منفتاح على مدة محـــددة . ولكنهم يرون بأنها على الاقل عشر سنوات . لان السنة العاشرة من حكمه مثبتة بوثائق

---

(١) انه لعجيب ان يلاحظ في نسخ التوراة القديمة ان الشراح لا يفهمون شيئا بكل معنى الكلمة . فمثلا ان التوراة الكليمانتية في طبعتها الفرنسية ١٦٢١ تترجم كلمة رعمسيس التي تؤلف ما لا معنى له وما هو مضحك في نفس الوقت « الزوبعة الضارة » .

كمـــا يثبته الاب دوفو . بينما يرى مانثون ان فترة حكمـــه كانت عشرين سنة . ويقدر دريوتون وفانديه لمنفتاح امكانيتين :

ــ اما ان تكون فترة حكمه قد امتدت عشر سنـــوات من ١٢٣٤ ــ ١٢٢٤ .

ــ او انها كما ذهب راوتون(١) امتـــدت عشرين سنة من ١٢٢٤ ــ ١٢٠٤ .

وليس لدى علماء التاريخ المصري شيء اكيد فيما كانت عليه نهـــاية حكمه . وكل ما يعرفونه ان مصر مرت بعده بضائقة داخلية خطـــيرة دامت قريبـــا من ربع قرن .

ورغم ان عناصر تاريـــخ عهود الحكم غير دقيقـــة ، فانه ليس طيلة الامبراطورية الجديدة فترات أخرى او عهدان متتابعان طالا او تجاوزا مدة ثمانين سنة الا عهدي رمسيس الثاني ــ منفتاح .

ولا يمكن ان تكون معطيات التوراة المتعلقة بعمر موسى ، عندما طلب من فرعون تحرير اخواته متوفرة الا في فترة تتابع عهدي رمسيس الثاني ومنفتـــاح . وكل شيء يتيح القول بان موسى قد ولد في اول عهد رمسيس الثاني . ووجد في مدين عند موته بعد سبع وستين سنة من حكمـــــه . وكان قريبا بالتالي من منفتاح من رمسيس الثاني وخلفه ، محاميـــا عن يهود مصر . هذا الحادث يمكن أن يمر في الجزء الثاني من عهـــد منفتاح اذا حكم عشرين سنة كما هو ممكن ، وكما يفكر فيه « راوتون » .

لقد قـــاد موسى الخروج اذن من مصر في اخر حكم منفتاح على كـــل الاحوال ، لان فرعون قد فقد حياته بملاحقة اليهود الذين خرجوا من البلد كما يذكر القرآن والتوراة .

هذه الصورة تتفق تمـــاما مع ما تنقله الكتابات المقدســـة عن طفولة موسى ، واستقبال آل فرعون له . والمعروف أن سن رمسيس الثاني كانت عند موته قد تقدمت به كثيرا . قيل انها كانت تسعين أو مئة . ويفهم من هذا الفرض انه كان له من العمر عند ابتداء حكمه الذي كان سبعا وستين سنـــة ، ثلاث وعشرون سنة أو ثلاثون سنة . وفي هذه السن كان يمكنه أن يتزوج . ولا تضـــارب مع التقاط احـــد « آل فرعون » حســـب افادة القرآن ، لموسى المولود الجديد ، من ضفة النيل ، وتدخل امراة فرعون لصرفـــه عن قتلـــه .

هذا وتدعي التوراة بان الملتقط كان بنتا لفرعون . وبما ان فرعون كان له من العمر ما سبق ، فانه يمكن ان يكون له في ذلك العمر بنت قادرة على

---

(١) لعل الكاتب يريد هنا مانثون . المترجمون .

اكتشاف الولد الملقى . والرواية القرآنية والرواية التوراتية لا تتناقضان اذن في هذه النقطـــة في شيء .

والافتراض المصوغ هنا هو بصورة مطلقة متفق مع القرآن . وهو ليس بالمقابل متناقضا الا مع نص فقط من التوراة . وهو كما رايناه في الفقرة الاولى من الفصل ٦ من اول سفر الملوك [الذي ينبغي الاشارة الي انه لا يؤلف جزءا من التوراة] وهذا النص هو محـــل نقاش طويـــل . والاب دوفو يرفض المعطيات التاريخية لهذا السفر من العهد القديم الذي يحدد زمن الخروج من مصر بالنسبة الى وقت بناء هيكل سليمان . وكونه موضوع شـــك يحول دون منحـــه قوة دليل يحدد بالمقابل النظرية المؤسسة هنا .

مسألة المسلة في السنة الخامسة في عهد منفتاح

لقد ظن البعض بانه يمكن أن يكون في نص المسلة الشهيرة عن سنة منفتاح الخامسة معارضة للنظرية المطروحة هنا في الخروج من مصر الخاص باخر دور من حكمه .

ان لهذه المسلة فائدة عظيمة لانها تمثل الوثيقة الهيروغليفية الوحيدة المعروفة التي ذكرت فيها كلمة « اسرائيل »(١) والمسلة وهي قد تعود الى الجزء الاول من حكم منفتاح ، اكتشفت في طيبا في معبد مأتمي مظلم لفرعون. انها تذكر مجموعة انتصارات احرزها على جواره في مصر ، بخاصة في اخر الوثيقة فانها تذكر انتصارا على « اسرائيل المدمرة والمسحوقة التي لم يعد لها بذر تزرعه » وقد راى البعض من هذا ان وجود كلمة اسرائيل يعني انه ينبغي ان يكون اليهود قد استوطنوا ارض كنعان في سنة منفتاح الخامسة ، وان خروجهم بالتالي كان قد تم في هذه الفترة .

ولا يبدو ان هذه الملاحظة مقبولة . لانها تعني انه لم يبق هناك من يهود في كنعان ما داموا في مصر وهو ما لا حجة له . ومع ذلك فان الاب دوفو كتب مؤيدا نظرية رمسيس الثاني في كتابه«تاريخ اسرائيل القديم» في معرض الحديث عن استيطانهم ارض كنعان « بصدد الجنوب ، فان تاريخ استيطان مجموعات منتسبة الى الاسرائيليين في منطقة قادس غير محدد وهو قبل الخروج » انه يواجه اذن صحة استيطان بعض مجموعات خارجة من مصر في فترة اخرى غير فترة خروج جماعة موسى « ان الابيرو او الهابيرو الذين يرى البعض انهم يمثلون وحدة مع الاسرائيليين كانوا اذ ذاك في سوريا ــ فلسطين قبل رمسيس الثاني ، اي قبل الخروج ، الم يجلب امينوفيس الثاني مساجين منهم وقد عرفنا ذلك من وثيقة ، في مجموعة يقدر عددها بثلاثة الاف وستمئة ، استخدمهم كعمال مسخرين في مصر ؟ وقد اسكن البعض منهم ايضا في ارض كنعان في عهد سيتي الاول حيث اثاروا قلاقل في منطقة بيت ــ شان . و p. Montet يذكر بها في

---

(١) ان الكلمة ملحقة بتعريف لا يترك اي شك فيما تعنيه من مجموعة انسانية .

كتابه « مصر والتوراة » ويحتمل أن منفتاح عاقب هذه المجموعة على حدوده بينما كان داخل بلاده اولئك الذين تجمعوا فيما بعد حول موسى للهرب . ان وجـود المسلة في سنـة منفتاح الخامسـة لا يعارض ابـدا النظرية المطروحـة هنا .

على ان ظهور كلمة «اسرائيل» في تاريخ الشعب اليهودي لا صلة له مطلقا باستيطان مجموعة موسى في ارض كنعان فأصل الكلمة هو كما يلي :

ان اسرائيل حسبما هو مفهوم من سفر التكـوين « ٣٢ ، ٢٩ » هو الاسم الثاني الذي كان ليعقوب بن اسحاق وحفيد ابراهيم . ومعناه كمـا يقول مفسرو الترجمة المسكونيـة للتوراة ــ العهد القـديم [١٩٧٥] هو ترجيحا « ليبدو الله قويـا » وبعد ان انطبق على رجل فليس غريبـا فيما بعد بان يصف مجموعة احياء لذكرى احد الاباء الامجاد(١) .

فقد ظهر اسم اسرائيل اذن قبل موسى ببضع مئات السنين . وليس بمدهش ان يرى مذكورا في مسلة تعود الى عهد فرعون ــ منفتاح . كما لا يمثل هذا الذكر بأية طريقة دليلا لمصلحة تاريخ خروج موسى قبـل سنة الفرعون منفتاح الخامسة .

والواقع انه بذكر مسلة منفتاح لمجموعة تسمى « اسرائيل » لا نستطيع ان نشير الى مجموعة مركزة سياسيا لان الكتابـة تعود الى اخر القـرن الثالث عشر قبل المسيح . والملكة الاسرائيلية لم تتشكل الا في القرن العاشر قبل المسيح . انها اذن تشير الى مجموعة بشرية اكثر ضآلة(٢) .

لقد أصبحنا نعلم اليوم ، بان فترة طويلة من التكوين امتدت ثمـانية أو تسعة قرون سبقت وقت دخول اسرائيل في التاريخ . ولقد تميزت هذه الفترة باستيطان العديد من مجموعـات الساميين الرحل في كل المنطقة ، وبخاصة الاموريين والاراميين . وبظهور الجدود الاعلين في صميم مجموعاتهم الذين كان منهم ابراهيم واسحـاق ويعقوب ــ اسرائيـل . والاسم الثاني للجد الاخير استعمـل ليعني المجموعة البدائيـة ، نواة الكيان السياسي المستقبلي الذي سيظهر بعد حكم منفتاح بكثير لان الملكة الاسرائيلية دامت من ٩٣١ ــ ٩٣٠ حتى ٧٢١ قبل المسيح .

(ذكر الكتابات المقدسة لموت فرعون زمن الخروج)

يشكل موت فرعون زمن الخروج نقطة هامة جدا في روايات القرآن والتوراة . وهي تنبثق عن نصوص شديدة الوضوح غير مذكورة فقط فـي

---

(١) معنى اسرائيل عندنا عبد الله او صفوة الله . المترجمون .

(٢) كما يشير R.P.B. couroyer استاذ في المدرسة التوراتية في القـدس في شروحـه للترجمة لسفر الخروج Ed.le cerf 1968 p. 12 فان اسم اسرائيل مقرون فيها بوصف شعب بدل وصفه «ببلد» كبقية الاسماء الاخرى للمسلة.

الاسفار الخمسة او التوراة بل في مزامير داود ايضا ، وقد أوضحنا ذلك آنفا .

والعجيب ان الكتاب المسيحيين يمرون بذاك بصمت . فهذا الاب دوفو يساند النظرية التي تفيد بأن الخروج من مصر كان في الجزء الاول او في وسط حكم رمسيس الثاني ، دون أن يحاول التأكد فيما اذا كان فرعون قد هلك في هذا الخروج . وهو ما لم يسمح ، في كل الافتراضات بان يحدد وقوع الحادث الا في آخر فترة الحكم . ولا يبدو مدير مدرسة التوراة في القدس في كتابه«تاريخ اسرائيل القديم»، مهتما بأي نوع من التعارض بين النظرية التي يسندها ويدافع عنها ، وبين معطيات كتابي التوراة .

ويحدد P. montet في كتابه « مصر والتوراة » الخروج من حكم منفتاح . ولكنه لا يذكر كلمة عن موت فرعون الذي كان على راس الملاحقين للهاربين .

هذا الموقف العجيب يتناقض مع موقف اليهود . فهو في الغالب منشد في طقس من مزمور داود رقم ١٣٦ الذي في آيته ١٥ يشكر الله الذي اغرق فرعون وجيشه في بحر القصب . انهم يعرفون التوافق بين هذه الآية وعبارة سفر الخروج [١٤ ، ٢٨ ، ٢٩] « واندفعت المياه وغمرت العربات وفرسان كل جيش فرعون الذين دخلوا وراءهم في البحر ، فلم يبق منهم احد قط » فليس بالنسبة اليهم اقل شك بأن فرعون أبيد مع جميع فرقه . هذه النصوص بالذات موجودة في التوراة المسيحية .

على انالشراح المسيحيين يبعدون عمدا ، وضد كل وضوح موت فرعون . ويثير بعضهم ذكر ما هو وارد في القرآن ، محرضين قراءهم على اجراء مقارنات عجيبة . وهكذا يمكننا ان نقرأ في ترجمة التوراة المجراة باشراف المدرسة التوراتية في القدس الشرح التالي المتعلق بموت فرعون للاب كوروابيه الاستاذ في المدرسة المذكورة « اشار القرآن [السورة ١٠ آية ٩٠ ــ ٩٢] الى ذلك ، فرعون مع جيشه قد غرق حسب الاعراف الشعبية [وهو ما لم يقله النص المقدس] واستقر في عمق البحر وتحت سلطة اركان بحريته « الفقمة » .

ان القارىء غير المزود بالمحتوى القرآني، يعقد صلة بين التأكيد القرآني المناقض ــ كما هو في نظر الشارح ــ للنص التوراتي ، والخرافة المضحكة الصادرة عن الاعراف الشعبية المذكورة في الشرح بعد نسبة هذه الافادة الى القرآن .

وحقيقة الخبر القرآني في هذا الموضوع بعيدة عما ينسبه اليها هذا الكاتب . والآيات ٩٠ ــ ٩٢ من السورة ١٠ في القرآن تفيد في الواقع ان بني اسرائيل تجاوزوا البحر بينما كان يتبعهم فرعون بجنوده . وأن فرعون عندما أدركه الغرق قال : « آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل

وانا من المسلمين» وان الله اجابه: « الان وقد عصيت قبل وكنت من المعتدين، فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » .

هذا كل ما تحويه هذه الآية فيما يخص موت فرعون . وهنا كما في غيره من مواضع القرآن ، ليس لاوهام شارح التوراة المبسوطة آنفا مجال لان القرآن يخبر ببساطة ووضوح تامين بأن بدن فرعون سينجو . وهذه هي النقطة الاساسية ! !

في العصر الذي كان فيه الرسول يضع القرآن في متناول الناس ، كانت ابدان كل الفراعنة الذين شك الناس في هذا العصر الحديث خطأ او صوابا بأنهم اهتموا بالخروج ، موجودة في قبور وادي الملوك في « طيبا » في الضفة المقابلة للاقصر من النيل . وقد كان الناس في هذا الزمن يجهلون كل هذا الواقع . ولم يكتشفوه الا في اواخر القرن التاسع عشر . وقد ثبت كما يقول القرآن ، بان بدن فرعون الخروج قد نجا . . أيا كان هذا الفرعون ، فانه اليوم في صالة المومياءات الملكية في المتحف المصري في القاهرة ميسرة رؤيته للزائرين . والحقيقة هي اذن مختلفة جدا عن الخرافة المضحكة المنسوبة خطأ الى القرآن من قبل الاب كوروابيه .

مومياء فرعون — منفتاح

لقد اكتشف « لوريت » منفتاح المحنط ابن رمسيس الثاني الذي يتضافر كل شيء على اقناع الفكر بأنه فرعون الخروج ، سنة ١٨٩٨ في طيبا في وادي الملوك . وقد نقل من هناك الى القاهرة وحل « اليوت سميث » عصابته في الثامن من تموز سنة ١٩٠٧ وضبط محضر هذه العملية . وفحص البدن في كتاب المومياء الملكية سنة ١٩١٢ . وحالة حفظ المومياء كانت مرضية في هذا العصر مع بداية التلف في عدة مواضع . ومن هذا التاريخ اصبحت المومياء معروضة على الزائرين في متحف القاهرة مكشوفا منها الراس والعنق، وبقية البدن مغطاة باحكام بقطعة قماش الى درجة انه حتى في هذه الاشهر الاخيرة لم يؤخذ لها اية صورة غير تلك التي اخذت لها من «اليوت سميث» سنة ١٩١٢ .

وفي حزيران سنة ١٩٧٥ سمحت لي المراجع العليا المصرية بفحص اجزاء بدن فرعون الذي ظل حتى هذا التاريخ مغطى ، وبان آخذ له بعض الصور . وعندما قورن وضع المومياء الحالي مع وضعها منذ اكثر من ستين عاما ، ظهر بوضوح بان بعض التلف قد اصابها ، وان بعض الاجزاء قد اختفت منها . كما ان الاقمشة التي كانت ملفوفة بها لم تكن احسن حالا منها بسبب لمس الايدي لبعض اجزائها . وبعامل الزمن — اذا امكن القول — وعوامل اخرى .

ولقد اوضح تماما هذا التلف الطبيعي ، بانه بسبب تغير شروط الحفظ بين يوم اكتشافها للناس في اخر القرن التاسع عشر في قبر تحت الارض في « طيبا » ، حيث كانت ترقد منذ اكثر من ثلاثة الاف عام . والان وهي معروضة ضمن حافظ زجاجي بسيط ، لا يعزلها بشكل محكم عن الخارج ، ولا يمنع عنها التلوث ببعض الميكروبات العضوية . وهي خاضعة لانحراقات في الحرارة وغير محمية من الاصابة برطوبة فصلية .

وهكذا فان المومياء اليوم ، ليست موجودة في مثل الشروط التي مكنتها بان تتجاوز تقريبا ثلاثة الاف سنة ، بعيدا عن كل هذه المسببات للتلف . لقد فقدت لفافاتها التي كانت تحميها ، ومعطيات الوجود في وسط مغلق في قبر كانت فيه الحرارة اكثر ثبوتا ، والهواء اقل رطوبة منه في القاهرة في بعض مراحل السنة . ولا شك انها حتى وهي في القبر تحت الارض ، يفرض ان تصادف ، حسب الواقع القديم ، زيارة مكسري القبور ، أو الحيوانات القارضة التي احدثت فيها بعض الاضرار . ولكنها شروط تبدو الى حد ما اكثر مناسبة مما هي فيه اليوم لمقاومة عادية الزمن .

وخلال محاولتي الاختبار للمومياء في حزيران سنة ١٩٧٥ انجزت ابحاث خاصة ، حقق بموجبها كل من الدكتور المليجي ورمسيس دراسة رائعة باشعة اكس . بينما اجرى الدكتور مصطفى المنيلاوي بواسطة سيلان مادة على سطح حاجز الصدر ، اختبارا في داخل القفص الصدري والبطن محققا اول سبر لداخل الجسم مطبق على مومياء . وقد توصل الى رؤية وتصوير بعض التفصيلات الهامة جدا في داخل الجسم . وبالاضافة الى الاختبار المجهري لبعض الاجزاء الساقطة من جسد المومياء بشكل طبيعي ، وهو الاختبار الذي سيجري في باريس من الاستاذ « مينو » والدكتور « بريجتون » فتستكمل دراسة عامة ، طبية — قانونية ، يقوم بها الاستاذ سفالدي . ولا اظن انه يمكن الحصول على نتائجها ، مع أسفي الكبير ، في نفس الوقت الذي ينتهي فيه تحرير هذا الكتاب .

والذي يمكن ان يستخلص منذ الان من هذه الدراسة ، هو ملاحظة اضرار عظيمة كثيرة ، مع اضرار مادية هامة — قد يكون جزء منها مميتا — دون أن يكون ممكنا بعد ، اثبات ما اذا كان بعضها قد حصل قبل أو بعد موت فرعون ، الذي مات حقيقة ، اما غرقا حسب روايات الكتب المقدسة او باهتزازات شديدة جدا ناتجة عن جروح سبقت غرقه في البحر ، أو الاثنين معا .

وان تضافر كل هذه الاضرار ، مع القلق الذي ذكرت اسبابه ، يجعل المحافظة الجيدة على بدن مومياء فرعون ، امرا مشكوكا فيه اذا لم تتخذ لها وسائل الحفظ والترميم في المستقبل القريب . هذه الوسائل مفروض فيها أن

تحذر اختفاء الشاهد المادي الوحيد الذي لا يزال موجودا في أيامنا عن موت فرعون الخروج ، ونجاة بدنه بمشيئة الله .

انها لامنية بأن يجتهد الانسان في حفظ معالم تاريخه . بيد انه هنا ، يطلب ما هو اكثر ، يطلب تجسيد في بدن موميائي للانسان الذي عرف موسى ، وقاوم عروضه ولاحقه في هربه ثم فقد حياته في ذلك . وقد نجت جثته بارادة الله من العدم واصبحت آية للناس كما قد سجل القرآن ذلك(1) .

يا لها من التماعة عجيبة للآيات القرآنية ، تلك المختصة بجسد فرعون المعروض في صالة المومياءات الملكية للمتحف المصري في القاهرة ، والتي تقدم لكل باحث في معطيات الاكتشافات الحديثة براهين صحة الكتابات المقدسة .

---

(1) ان مومياء رمسيس الثاني شاهد آخر على تاريخ موسى كان فرض دراسة مقارنة مع حياة مومياء منفتاح . انها تحتاج نفس الوسائل الترميمية .

القرآن والعلم الحديث

ليس القرآن هو المصدر الوحيد للعقيدة والشريعة في الاسلام . بل ان السنة النبوية من افعال النبي (ص) واقـوالـه هي المصدر الثاني الذي عنى العلماء بطلبه تكملـة للمصدر الاول ، حتى اثناء حياة النبي فضلا عنه بعد وفاتـه . وكانت معلومات هذه المصدر الثاني تعتمد فقط على النقـل الشفهي . لذلك فان الذين بادروا الى جمع هذه الاقوال والافعال في نصوص، قد قاموا بتحقيقات تتسم دائما بالصعوبة كما هو الشأن في حكاية جميـع الاحداث بعد انقضائها . ولهذا كان همهم الاول في عملهم العسير في مدوناتهم منصبا أولا ، على دقة الضبط لهذه المعلومات الخاصة بكل حـادثة في حياة محمد (ص) ، وبكل قول من اقواله . وللتدليل على ذلك الاهتمام بالدقـة والضبط لمجموعات الاحاديث المعتمدة ، فانهم قد نصوا على اسماء الذيـن نقلوا اقوال النبي (ص) وافعاله ، وذلك بالصعود في الاسناد الى الاول من اسرة النبي (ص) ومن صحابته ممن قد تلقوا هذه المعلومات مباشرة من محمـد (ص) نفسه ، وذلك بغية الكشف عن حال الراوي في جميع سلسلة الرواية ، والابتعاد عن الرواة غير المشهود لهم بحسن السيـرة وصدق الرواية ونحو ذلك من دلائل ضعف الراوي الموجبة لعدم الاعتمـاد على الحديث الذي روى عن طريقه . وهذا ما قد انفرد به علماء الاسـلام في كل ما روي عن نبيهم (ص) .

وهكذا ظهرت للوجود مجموعات اقوال النبي (ص) وافعاله ، واصبحت تعرف الان في العلوم الاسلامية بـ « علم الحديث » . واذا كانت كلـمة « حديث » قد تشير فقط الى القول ، فانها تجمع تحتها ايضا روايات افعال النبـي (ص) .

وقد نشرت أول مجموعات للاحاديث في العشرات من السنين التـي تلت مباشرة وفاة محمد (ص) . وقد كانت كمية الاحاديث التي جمعت فـي القرن الاول بعد وفاته محدودة بالنسبة الى كثرة الامور المنقولة عنه ، وان اضخـم مجموعات الحديث لم تظهر الا بعد مضي اكثر من قرنين على وفـاته ، وهي التي جمعـت أوسع المعلومات وأوثقهـا . ويعتبر صحيح

البخاري بصورة عامة اكثر الكتب صحة بعد القرآن . ولقد قام « هوداس » و « مارسي » فيما بين ١٩٠٣ و١٩١٤ بترجمته الى الفرنسية تحت عنوان « الاحاديث الاسلامية » . وقد نشرت في الاعوام الاخيرة طبعة عربية مع ترجمة انكليزية للدكتور محمد حسن خان من الجامعة الاسلامية في المدينة المنورة . وبناء على ذلك اصبح في استطاعة من لا يعرف العربية الاطلاع على الاحاديث بلغة اخرى . غير أن الحيطة لازمة ازاء قيمة بعض الترجمات التي انجزها الغربيون ، بما في ذلك الترجمة الفرنسية ، اذ يستطيع القارىء أن يكتشف فيها احيانا ما هو غير صحيح ومناقض للحقائق ، مما يعتبر تأويلا لا ترجمة حقيقية . بل هناك احيانا تحريفات كبيرة للمعنى الحقيقي للحديث لدرجة انها تجعله يقول ما لا يعني .

ونرى في هذا المقام انه من الممكن المقارنة فيما بين مجموعات الاحاديث وبين الاناجيل من حيث أصول النصوص فيها : اذ هناك سمة مشتركة فيما بينها جميعها ، من حيث أن هذه المجموعات والاناجيل قد كتبت كلها بأقلام كتاب لم يكونوا من شهود العيان لما قد نقلوه من الوقائع ، كما انها لم تظهر للوجود الا بعد انقضاء مدة على الاحداث التي تتكلم عنها . وكذلك فان مجموعات الحديث هي مثل الاناجيل من حيث انها لم تعتبر كلها صحيحة ثابتة ، ولهذا فان اصحاب الاخصاء في علم الحديث لم يقبلوا من هذه الاحاديث بصورة شبه اجماعية الا عددا قليلا منها ، واصبح من الممكن أن يوجد في نفس المجموعة الواحدة احاديث مظنون فيها ، او مرفوضة قطعا ، الى جانب الاحاديث التي اعتبرت صحيحة .

غير انه على عكس الاناجيل القانونية التي لم يتناولها الاعتراض عليها والنقد لها ، رغم انها كتبت بأقلام كتاب لم يكونوا أيضا من شهود العيان لما قد نقلوه ، فان مجموعات الاحاديث ، حتى تلك التي تعتبر بوجه خاص انها صحيحة ، قد خضعت كلها لفحوص نقدية عميقة قام بها اساتذة الفكر الاسلامي لتحديد درجتي القبول والعمل بها . ولكن الكتاب الاساسي ، اي القرآن ، قد ظل المرجع الذي لا يمكن أن يكون محلا للجدل في صحة نصوصه ، وذلك لانه قد نقل عن النبي (ص) بصورة اجماعية متواترة ، وسجل عنه في أيام حياته بأقلام كتاب كانوا كلهم من شهود العيان لما قد سجلوا .

ولقد قمت بالمقارنة بين الملاحظات التي خرجت بها من دراسة الاحاديث وبين الملاحظات التي عرضتها من قبل فيما يختص بالقرآن والعلم الحديث . وكانت نتيجة هذه المقارنة هامة جدا : لان الفرق قد ظهر واضحا ومدهشا بين دقة المعلومات القرآنية وصحتها في حالة مقارنتها بمعطيات العلم الحديث كلما كانت تلك المعلومات راجعة الى العلوم الكونية ، وبين قابلية النقد الواضحة لبعض معلومات الحديث المتعلقة بموضوعات تدخل في

صميم الميـــدان العلمي ، مع العلم بأن هذه الاحـــاديث هي وحدها التي نعالجهـا هنا .

وان هذه المقارنة قد حملتني على ابداء الملاحظة التالية ، وهي : كيف امكن لمحمـــد ان يتناول قبل اربعـــة عشر قرنا حقائق علميــة في القرآن لم يكتشفها الا التقدم العلمي في القرون الحديثة ، لو لم يكن القرآن وحيا منزلا لا شك فيه ، ولا ارتياب في نصوصه ؟.. وهذا على خلاف الاحاديث التي اشارت الى بعض المواضيع العلمية وكانت قابلة للنقد والشك فيهـا ..

وانني حينما اشير الى بعض هذه الاحاديث ، لا أريد منها الا الاحـــاديث التي اعتبرت صحيحة بصورة عامة ، مثل احاديث صحيح البخاري . غير انني لا يفوتني هنا ، أن العلماء المختصين في علم الحديث قـــد صنفوا الاحـــاديث القابلة للنقـــد في جملة الاحاديث الظنية الثبـــوت ، وميزوا بين هذه وبين الاحاديث المتواترة المصنفة في جملة الاحاديث القطعية ، آخذين بعين الاعتبار فيما يتعلق بالاحاديث الظنية الثبوت ، أنها كتبت بأقلام اناس اعتمدوا فيها على النقل الشفهي للاحـــاديث النبوية ، وانها بالتالي قد تقـــل دقتها نتيجة لاخطاء الرواة الذين قـــد نقلوا هذه الاحاديث بطريقة اخبار الآحاد ، والذين لم يتوفر لديهم كمـــال القدرة على ضبط ما سمعـــوه ، ولا الانتباه لظروف الكـــلام الذي نقلوه .

وهكـــذا يتقرر لدينـــا من جديد أن حقائق القرآن العلمية كما شرحناها في محلها سابقا ، تدل جميعها على أن نصوص القرآن نصوص لا دخل ليد البشـــر فيها ، وانها وحي لا شـــك فيه ، وذلك خلافا لنصوص الاحاديث الظنية من اخبـــار الاحاد التي لا يمكـــن أن ترتفع في الثبـــوت الى درجة الوحي المنزل المتواتر المكتـــوب ، وذلك لمـــا قد يدخـــل عليهـــا من اخطاء الرواة كما سبق . وفضـــلا عن ذلك كله فقد يكون الحديث صحيحا لا شك فيه ، ولكنـــه ما دام في أمر من أمور الدنيا ، فلا فرق عندئذ في ذلك بين النبي (ص) وبين غيره من البشر لما ورد في صحيح مسلم عن النبي (ص) :

« اذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما انا بشـــر » ، وكذلك نقل السرخسي في اصـــوله قول النبي (ص) : « اذا اتيتكم بشيء من امر دينكم فاعملوا به ، واذا اتيتكم بشيء من امر دنيـــاكم فأنتم اعلم بأمر دنياكم » ، ويكـــون النبي (ص) قد دعم بنفســـه ملاحظتنا بشكل عام ، واقر الفوارق فيما بين مواضيع القرآن العلمية التي لا شك فيها وقد ايدهـــا العلم الحديث ، وفيما بين بعض مواضيع الحديث التي لا وحي فيها عندمـــا يكون الحديث متعلقا بشأن من شؤون الدنيا مما قد لا يتفق احيانا مع حقائق العلم الحديـــث ، ولا يضر هذا بمكانة الرسول النبوية أو البشريـــة ، ولكنه مفيـــد على كل حـــال لانه قد يعطينا في هذه المواضيع

صورة عن مفاهيم ذلك العصر وارائهم فيما يتعلق ببعض المواضيـــع ذات الصفـــة العلميـــة .

ومن ابرز هذه الاحاديث الدنيوية غير الدينية ، عـــدد من الاحاديث المتعلقـــة بالطب ، مع العلم بان القرآن لا يعطينا اية ارشادات فنية عن مهنة التطبيـــب بصورة خاصة ، غير ما قد اشار اليه مرة واحده فقط في الآية ٦٩ من سورة النحل (سورة عدد ١٦) التي تقول بامكانية وجود عامل علاجي في العســـل ، ولكن بدون اي ايضـــاح في ذلك ، أما الاحاديث فانها تحتفظ بمكان واسع لمثل هذه المواضيع . وهكـــذا فهناك جزء بتمامـــه من صحيح البخاري (الباب ٧٦) قـــد افرد للطب . ويحتل هذا البـــاب في تـــرجمة « هوداس » و « مارسي » الصفحات من ٦٢ الى ٩١ من الجزء الرابع ، امـــا في الترجمة الانكليزيـــة للدكتور محمد حسن خـــان فيحتل الصفحات ٣٩٥ الى ٤٥٢ من الجزء السابع . ويضاف الى ذلك احديث اخـــرى ذات طابع علاجي ايضا ، وقد ادمجت في اجـــزاء اخرى من صحيح البخاري . وليس هنـــاك ادنى شك في ان هـــذه الصفحات تحتوي على الكثـــير من الاحاديث الظنية ، فضلا عن انها كلها تتعلق بأمور دنيوية غير دينية . وقـــد قال النبي (ص) في مثل هذا المقام كما سبق : « فانتم اعلم بأمر دنيـــاكم » . غير أن المجمـــوع العام من هذه الاحاديث المتعلقة بموضوعات طبيـــة هو في نظرنا هام جدا لانه يعطينا فكرة عن اراء ذلك العصـــر في مثـــل هذه المواضيع الطبية المختلفـــة .

وهكذا نكتشف في هذه الاحاديث اذكارا عن الاذى ، والعين : والسحر، وامكانية التخلص من اثار السحر ، مع العلم بان هنـــاك منعا عن التكسب باستخدام القرآن لهـــذا الغرض ، كما أن هناك حديثـــا يشير الى أن بعض التمر ، يقي من نتائج السحر ، وانه يمكن ايضا استخدامه ضد اللدغـــات الســـامة .

هذا ولا ينبغي ايضا ان ندهش ، ونحن نتكلم عن عصر كانت الامكانيات الفنية والصيدلية فيه محدودة ، اذا وجدنـــا هناك توصيـــات باللجوء الى اجراءات بسيطـــة ، او الى علاجات طبيعية مثل الفصـــد ، والحجامة ، والكي ، والحلاقة ضد القمل ، واستخدام لبن الناقة ، وبعض الحبوب مثل الحبة السوداء Nigelle ، وبعض النباتات مثل القسط الهندي ، ورماد الحصير لفوائده في قطع النزيف ، اذ انـــه لا بد في الظروف الصعبـــة من استخدام كل الوسائل الممكنة والتي قد تكون مفيدة حقا . غير انـــه لا يبدو لنـــا مع ذلك ان التوصية بشرب أبوال الاباعر هي فكرة مستطابة للعـــلاج في بعض الحـــالات .

وكذلك يبدو عسيرا في عصرنا قبول بعض الايضاحات المتعلقـــة بعلم الامراض ، وذلك مثل الايضاحات التالية :

أ ــ فهنــاك حول « اصل الحمى » اربعـــة نصوص تنص على ان « الحمى هي من فيح جهنم » ــ كتاب الطب ، الفصل ٢٨ ، الصفحة ٤١٦ .

ب ــ وهنــاك القول بــ « وجود علاج لكل مرض » حيـث ذكر في الحديث انه : « لم ينزل الله مرضا الا وانزل له علاجا » ــ كتاب الطب ، الفصل ١ ، الصفحة ٣٩٥ ــ ، وفي حديث الذبابة توضيح لهذا المفهـوم حيث نقل في الحديث : « اذا وقع الذباب في اناء أحدكم فليغمسه كله ، ثـم ليطرحه ، فان في احدى جناحيه داء ، وفي الاخر شفاء » ــ كتاب الطب ، الفصل ٥٨ ، الصفحة ٤٥٢ ، وكتاب بدء الخلق ، البـاب ٥٤ ، الفصلان : ١٥ و١٦ ، الصفحة ٣٣٥ .

ج ــ وهنــاك القول بــ « الاجهاض عند رؤية ثعبـان معين » وانه « يسبب العمى » ، وقد نص على ذلك في كتاب بدء الخلق ، الفصلين ١٣ ، ١٤ ، الصفحات ٣٢٠ ــ ٣٣٥

د ــ وكذلك حول النزيف خارج العادة الشهريـة ، فقد جاء في كتاب الحيض ، وفي الباب السادس من البخاري حديثان عن النزيف خارج العادة الشهرية ، الفصول : ١٦ ، ٢١ ، ٢٨ . وهذان الحديثان يخصان امراتين، ويؤكد الحديث فيما يتعلق باحدى الحالتين أن النزف ناشيء عن عرق ، ولكن الحديـث لم يعطنـا اي ايضاح عن الاعراض ، وامـا في الحالة الاخرى فالموضوع امراة تنزف منذ سبع سنوات خارج العادة الشهرية ، وفي هذه الحالة ايضا يؤكد الحديث بأن النزف ناشيء كذلك عن عرق . وقد يكون من الممكن القول بعـدة افتراضات حول السبب الحقيقي لهذه الاضطرابات ، ولكنه من العسير معرفة الحجة التي استند اليها حينذاك لتأكيد مثـل هذا التشخيص الذي قد يكون مع ذلك صحيحا .

هـ ــ وهناك ايضا القول بــ « عدم عدوى بعض الامراض » ، وقد نقل ذلك في عـدة امكنة من مجموعة البخاري ــ كتاب الطب ، الباب ٧٦ ، الفصول : ١٩ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٥٣ ، ٥٤ ــ وذلك تارة اثناء الكلام عن بعض الحالات الخاصة : مثـل الجذام ، والطـاعون ، وجرب الجمـال ، وتارة بصورة عامة . غير ان هذه الاقوال في تلك الحالات الخاصـة قـد رافقتها اقوال اخرى مناقضة ، وهكـذا فهناك في الواقع احـاديث اخرى توصي بعدم الذهاب الى حيث يوجد الطـاعون ، كما توصي بشدة بالفرار من المجـذوم .

ونستنتج من كل ذلك انه من الممكن القول بوجود بعض الاحاديث غير المقبولة علميا في مواضيع الطب والمعالجة ، وان الشك يخيم على صحتها ، فضلا عن انها من امور الدنيا وليست من امور الـدين . وان الفائدة من الاشـارة اليها هو فقط لمقـارنتها مع نصوص القرآن العلمية التي اثبتت دراستها كما سبـق : انها لا تحتوي قط على شيء من ذلك غير صحيح ،

ولذلك كان لهذه المقارنة اهمية كبرى : لانها كما راينا تشهد للقرآن بأنه وحي لا شك فيه ، وانه لا يد فيه للبشر .

وبالاضافة الى هذه الامثلة من الاحاديث التى قد ذكرناها اعلاه مما لم يعتبر مقبولا علميا فى مواضيع الطب والمعالجة : هناك ايضا بعض الاحاديث الاخرى من اخبار الاحاد ومما لا علاقة لها بأمور الدين . غير انها قد تتخذ تفسيرا لبعض الايات القرآنية الكونية في مدار الشمس وفي مراحل تكوين الجنين مما لا يمكن ان يقبل فى عصرنا كتفسير لآيات لا اعتراض على مفهومها ضمن نصها القرآني .

وهكذا فقد مر معنا كما تعلمون فى الايات العلمية حول الشمس انها « تجري لمستقر لها » — سورة يس عدد ٣٦ . الاية ٣٨ — وتبين لنا هناك انها من عجائب معلومات القرآن الكونية التى لم تكتشف الا في العلم الحديث . غير انه قد ورد حديث قد يعتبر تفسيرا للاية القرآنية ، وهو يرى انه : « عندما تغرب الشمس فانها تسجد تحت عرش الله ، وتطلب اليه الاذن بأن تعيد طريقها وتسجد من جديد . وفي نهاية الامر تعود من حيث اتت لتشرق من جديد » . وقد جاء النص الاصلي لهذا الحديث في « كتاب بدء الخلق » من صحيح البخاري ، الجزء الرابع ، الباب ٥٤ ، الصفحة ٢٨٣ . وعلى الرغم من ان هذا الحديث مبهم وعسير الترجمة ، فانه يحتوي على صورة مجازية تتضمن معلومات خاصة « بمدار الشمس حول الارض » مما لا يتفق في ظاهره مع العلم الحديث الذي اثبت العكس . وعلى كل فان هذا الحديث في ظاهر معناه هو اكثر من ظني ، وهو من اخبار الاحاد كما هو معروف في علم الحديث ، وما كان كذلك فهو لا يفيد العلم القطعي .

وكذلك هو الامر فيما يتعلق بمراحل تكون الجنين ، فقد وردت فقرة من حديث يحدد بصورة غريبة الازمنةاللازمة لتطور الجنين في مراحله الاولية كما جاء ذلك في نفس « كتاب بدء الخلق » من صحيح البخاري — الباب ٥٤ ، والفصل السادس ، الرقم ٤٣٠ ، والصفحة ٢٩٠ — فهناك مرحلة محددة بأربعين يوما تجتمع فيها العناصر المكونة للمخلوق البشري ، ثم مرحلة اخرى مساوية للاولى حيث يصبح فيها الجنين « علقة » ، ثم مرحلة ثالثة مساوية ايضا في المدة لاربعين يوما يصبح فيها الجنين كاللحم المضوغ « مضغة » . ثم بعد ذلك يأتي تدخل الملائكة لتحديد ما سيكون عليه مستقبل هذا الكائن ، ثم تنفخ فيه الروح . وان وصف تطور الجنين في هذا الحديث الظني لا يتفق مع المعلومات العلمية الحديثة . اما نص القرآن القطعي حول ذلك فقد سكت عن هذا التحديد الزمني الذي لا اعتراض عليه .

وفي الحقيقة يجب على القارىء ان يتذكر ان تعاليم النبي (ص) قد انقسمت عند موته الى مجموعتين :

ـ فمن ناحيـــة كان هناك عدد كبير من المؤمنين الذين كانوا يحفظون القرآن عن ظهر قلب ، وكانوا يتلونـــه مثل النبي (ص) دائما . ويضاف الى ذلك انـــه كانت هناك ايضا تسجيلات كاملة لنص القرآن ، وقد تمـــت هذه التسجيلات في حياة النبي (ص) وبامر منه ، ومنذ ما قبل الهجرة (١) .

ـ ومن ناحية اخرى فان المقربين من صحابة النبي (ص) والمؤمنين ممن كانوا من شهود العيان لافعاله واقواله ، قد حفظوهـــــا في ذاكرتهـم واعتمدوا عليها بالاضافة الى القرآن للتعريف بالعقيدة والشريعة الجديدتين .

غير ان هذه التعاليم القرآنية والنبوية لم تلبث ان دونت فيما بعد وفاة النبي (ص) ، وذلك في مجموعتين منفصلتين . وكانت أولى المجموعتين هي مجموعة نصوص القرآن التي دونت بصورة رسمية في عهد الخليفتين أبي بكر وعثمـــان ، وخاصة في خلافـــة هذا الاخير الـــذي قد عمم على جميع الامصار الاسلامية النص القطعي للقرآن . وكان ذلك كله فيما بين العـــام الثاني عشر والعام الرابع والعشرين من بعد وفاة محمد وبمعرفة جميع شهود العيـــان لما قد سمعوا وحفظوا أو سجلوا .

واما فيما يتعلق بالحديث فان أول مجموعة فيه انما ظهرت بعد حوالي اربعـــين عاما من الهجرة .

ونرى من الواجب في هذا المقـــام التاكيد على عدم التشابه فيما بين هاتين المجموعتين : القرآنية والنبوية ، سواء من وجهة النظر الادبية ، أو من وجهة النظر احيانا للمحتوى والمضمون فيما يتعلـــق ببعض الامور ذات الطابع العلمي . وهكذا فانه يستحيل اقامة اية مقارنة بين اسلوب القرآن وبين الاسلوب الحديث . وكذلك فاننا اذا قارنا بين محتويات نصوص القرآن وبين محتويات نصوص الحديث فيما له صلة بالعلوم لا بالعقيدة والتشريع ، وقابلناهما مع معطيات العلم الحديث ، فيما له صلة بالعلوم لا بالعقيـــدة والتشريع وقابلناهما مع معطيات العلم الحديث فسوف تذهلنا حقا الفروق التي آمل أن أكون قـــد نجحت في اظهار وجودها :

اولا : من نـــاحية معتقدات علمية قرآنية لم تكن احيانـــا مقبولة في ظاهرها ، ولكنها عندما درست اليوم على ضوء المعارف الحديثة الثابتة ظهر انها تنطوي على حقائق علمية استطـــاع العلم في العصر الحـــديث فقط أن يثبـــت حقيقتها .

ثانيا : من ناحيـــة أخرى فيما يتعلق ببعض نصـــوص الاحاديث ذات الصلة بقضايا علمية لا صلة لها بقضـــايا الدين ، فقد احتـــوت على آراء اعتبرت اليوم غير مقبولـــة علميا ، ولكنها ـ وهي كلها من امور الدنيا ـ يبدو لنا أنها تعبر عن مفاهيم ذلك العصر في تلك القضايا ، حتى ولو كانت

---

(١) تقع الهجرة في عام ٦٢٢ م. أي قبل عشر سنوات من وفاة محمد (ص) .

صحيحة في نسبتها الى محمد نفسه . وقد اقحمت هذه الآراء الدنيوية في مجموعة من النصوص المتعلقة بالعقيدة والشريعة الاسلاميتين مما هو متفق على الاعتراف بصحتها وعلى عدم المجادلة فيها .

واخيرا فان هذا الذي قد توصلنا الى الكشف عنه من الفروق في الامور العلمية الدنيوية فيما بين القرآن والحديث ، يدعمه محمد (ص) نفسه حين قال كما سبق : « اذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشيء من رايي فانما انا بشر » ، وفي رواية : « واذا اتيتكم بشيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم بأمر دنياكم » .

وهكذا نختم هذه المقارنة ما بين القرآن وبين الحديث في الامور العلمية الدنيوية بالتاكيد على أن هذه الفروق تثبت بصورة مذهلة : ان القرآن هو الوحي المكتوب الذي لا شك فيه ، ولذلك كان معصوما من كل خطأ علمي من هذا النوع . واما كلام محمد (ص) في تلك الامور الدنيوية التي لا وحي فيها ، حتى وان صحت نسبة الكلام فيها اليه ، فانه كلام بشر قد يخطيء وقد يصيب عملا بقول محمد نفسه كما سبق أعلاه ، ولذلك كان التمييز على هذا الاساس ما بين القرآن وبين اقوال محمد البشرية الدنيوية تمييزا ضروريا ، وفيه قوة للقرآن ، وتاكيد على انه وحي لا شك فيه ، كما انه قوة لمحمد (ص) نفسه وذلك بالتدليل على صدقه فيما نقله عن الله بطريق الوحي مما يتميز تمام التمييز عن كلام البشر ، مصداقا لقول محمد (ص) : « فاذا اتيتكم بشيء من رايي فانما انا بشر » .

خاتمة عامة

في نهاية هذه الدراسة يبدو بوضوح ان الراي الغالب المنتشر في بلادنا عن نصوص الكتابات المقدسة التي هي بين ايدينا اليوم لا يناسب الواقع ابدا . فقد رأينا في اي الشروط ، واي العصور واية طريقة جمعت فيها ونسخت العناصر التي تؤلف العهد القديم والاناجيل والقرآن . واذا كانت الظروف التي حكمت نشأة كتابات الوحي الثلاث مختلفة في بعضها عن البعض الآخر ، فقد نتجت عن ذلك فيما يتعلق باصالة النصوص وبعض صور من محتواها فروع مهمة جدا .

فالعهد القديم يمثل مجموعة من الاعمال الادبية تمت خلال تسعة قرون تقريبا . انه يشكل فسيفساء لا انسجام فيها ، تغيرت عناصرها في مجرى القرون بايدي الناس ؛ قطع يؤتى بها وتضاف الى الموجود ؛ وهكذا دواليك حتى اصبح من العسير في ايامنا تحديد هوية المصادر .

ولقد كانت غاية الاناجيل تعريف الناس عن طريق رواية افعال واقوال عيسى ، على التعليم الذي اراد ان يتركه لهم عندما اتم رسالته الارضية . والمؤسف ان كتابها لم يكونوا شهود عيان للافعال التي نقلوها . انها بكل بساطة التعبير عن كلمات اولئك المنقولة عنهم ، والتي كانت تحفظها الجماعات اليهودية ـ المسيحية المختلفة عن حقيقة المعلومات في حياة عيسى العامة بشكل رواية شفوية ، او كتابات اختفت الآن كانت الواسطة بين الرواية الشفوية والنصوص النهائية .

وفي ضوء هذا ينبغي النظر حاليا الى الكتابات المقدسة اليهودية ـ المسيحية . وينبغي ـ اذا شئنا ان نكون موضوعيين ـ ترك المفاهيم المعتمدة على الشروح الكلاسيكية .

ان من ثمرة كثرة المراجع التي لا يمكن تجنبها ؛ والتضادات والتناقضات التي اعطينا عنها عددا كبيرا من الامثلة . لقد كان لكتاب الاناجيل ، بالنسبة للتصرف ببعض الوقائع مع المسيح ، نفس الميول التي كانت لكتاب الادب المنظوم في القرون الوسطى الفرنسية مع اغاني الشعراء الجوالين . وقد ترتب على هذا ان الاحداث جاءت معروضة من كل راو بما يتميز به . كما ثبت الارتياب باصالة الافعال المنسوبة في اكثر من حال . في هذه الشروط ينبغي دوما اختبار بعض اخبار الكتابات المقدسة اليهودية ـ المسيحية ، التي يمكن

ان يكون لها صلة مع المعارف الحديثة ، مع الاحتياط الذي يفرضه الشك في اصالتها المجادل فيها .

والتضادات ، وعدم الصحة ، والتعارض مع المعطيات العلمية الحديثة تجد تفسيرها تماما في كل ما سبق . ولكن دهشة المسيحيين تصبح كبيرة عندما يعلمون كم كان الجهد المبذول حتى الآن من كثير من المفسرين الرسميين عميقا ومتتابعا لتغطية ما يخرج من وضوح الدراسة الحديثة بأثواب بهلوانية جدلية مغرقة بثناء شاعري . لقد اعطوا بمناسبة نسب المسيح عن انجيلي متى ولوقا المتضادين وغير المقبولين علميا امثلة كثيرة عن هذا الوضع الفكري . وانجيل يوحنا اجتذب على الخصوص الانتباه لمخالفاته الهامة مع الاناجيل الثلاثة الاخرى وبخاصة في موضوع الخلل غير المعروف على العموم والمتعلق بالافخارستيا .

بيد ان للوحي القرآني تاريخا مختلفا اساسا عن تاريخ السابقين . فقد ترتب نزوله على الرسول منجما على مدى عشرين سنة (١) بواسطة الملاك جبريل ، وحفظ غيبا من المؤمنين . وسجل كتابة ومحمد على قيد الحياة (٢) .

وقد استفاد آخر جمع للقرآن وتدقيق له — بعد وفاة الرسول بفترة تتراوح ما بين اثنتي عشرة واربع وعشرين سنة وباشراف الخليفة عثمان ، من المراقبة المتخذة من اولئك الذين كانوا يحفظون النص غيبا من أيام الوحي ويتلونه دائما وبتتابع . وهكذا فقد كان النص منذ ذلك الوقت محفوظا بطريقة دقيقة جدا ، الامر الذي يفرض ان نقول بان أصالة القرآن متفق عليها وليست محل كلام ...

والوحي القرآني وقد لحق بالوحيين اللذين سبقاه ، ليس فقط بعيدا عن التناقض في النصوص الذي هو ظاهرة كتابات الناس المختلفين في الاناجيل ، بل انه يبرز للذي يمارس اختباره وتحليله بموضوعية كاملة في ضوء العلم ، ذاتيته الخاصة به وهي الاتفاق التام مع المعطيات العلمية الحديثة ، ويكشف كما سبق حقائق من النوع العلمي تجعل من المستحيل على رجل في عصر محمد أن يكتبه . وهكذا فان المعارف العلمية الحديثة اليوم تيسر لنا فهم بعض الآيات القرآنية التي عجز الانسان عن فهمها حتى الآن .

---

(١) الحقيقة انها على مدى ثلاث وعشرين سنة بما فيها فترة انقطاع الوحي . وهذا التعبير هو الاصح لان فترة انقطاع الوحي مختلف فيها . اما فترة الرسالة من اول يوم حتى الانتقال الى جوار الله فلا خلاف فيها . المترجمون .

(٢) الواقع ان كتابته على الفور كانت بإشراف الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الامي الذي لم يقرأ كتابا .

ومقارنة العديد من نصوص التوراة مع النصوص القرآنيـــة ذات الموضوع الواحد . تؤكد وجود اختلافات اساسية بين تاكيـدات التوراة العلمية غير المقبولة وتاكيدات الاخبار القرآنية التي هي في كامل الاتفـاق مع المعطيات الحديثة . وقد رأينا ذلك في موضوع الخلق والطوفان علـى سبيل المثال . وان كنا قد رأينا بالنسبة لتـاريخ خروج موسى في النص القرآنى تكملة ثمينة للرواية التوراتية . على ان المجموع ينسجم انسجامـا جميلا مع المعطيات الاثرية في تحديد عصر موسى في الزمن ، والفـوارق الهامة بين القرآن والتوراة بالنسبة لموضوعات اخرى دونت لترد كل مـا امكن زعمه ــ دون اي دليل ــ من ادعاء نسخ محمد للتوراة ليوجـد نص القرآن !

واخيرا فان التحليل المقارن من جهة للتأكيدات التي تهم العلم والموجودة في مجموعات الحديث المنسوبة لمحمد ، والتي هي في الغالب ذات اصالـة مريبة ــ عاكسة ، الى حد ما معتقدات ذلك العصر ــ ومن جهة ثانيـة للمعطيات القرآنية من نفس النوع توضح عدم التشابه الذي يسمح بابعاد احتمال وحدة الاصل .

وبالنظر الى حال المعارف في عصر محمد ، لا نستطيع ان نفهم بأن كثيرا من الاخبار القرآنية التي لها سمة علمية يمكن ان تكون عمل انسان . ولذلك فان المشروع ليس بأن يعتبر القرآن تعبيرا لوحي فقط ، بل بأن يعطى مركزا ممتازا لما يتمتع به من الاصالة الفريدة ولوجود اخبار علمية لديه ظهرت كتحد للتفسير الانساني (١) .

(١) يريد الكاتب ان يقول انها تحد للقدرة الانسانية ان تأتي بمثله . المترجمون .

محتويـــات الكتـــاب

هذا الكتاب

□ في الكتاب حديث علمي دقيق عن التوراة والانجيل والقرآن تبرز فيه رجاحة فكر الكاتب وعمقه ، وصدق تحليله وموضوعيته .

□ يؤكد فيه الكاتب ان القرآن وحي من الله وان محمدا صلى الله عليه وسلم هو رسول الله ..

□ ويثبت ان القرآن في جميع ما ورد فيه من اشارات الى قضايا علمية في كل المجالات الانسانية والكونية ، كان متفقا مع معطيات العلم الحديث . كما سبق الى العديد من تلك الاشارات التي تقدم بها على العلم الذي لا يمكنه الاعتراض عليها اعتراضا مقبولا . كل ذلك مسند بادلة ووثائق لا مجال معها للشك .

□ انه مهم جدا بالنسبة الى كل مفكر مجرد مسلما كان او غير مسلم .

□ انه الكلام الفصل بالنسبة لكثير من المعتقدات الدينية .

□ انه باختصار كتاب هذا العصر .

الثمن ١٨ ل.ل أو ما يعادلها